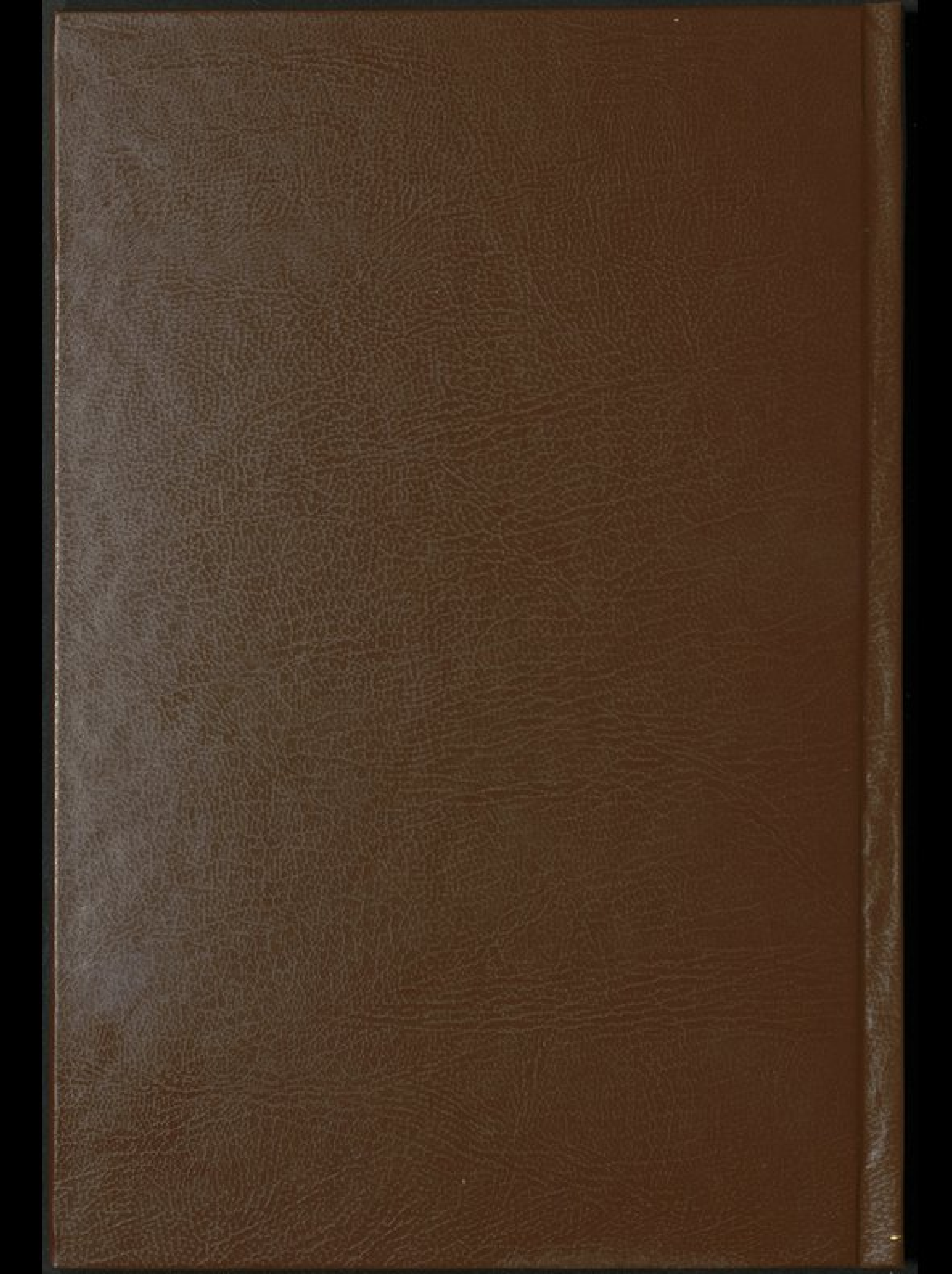



AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY

الاتجاهات الأدبيّة

في العالم العربيّ الحديث

وهي دراسات تحليلية للعوامل الفعَّالة في النهضة العربية الحديثة
والظواهرها الادبية الرئيسيّة

انيس الخوري المقدسي

استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية
وعضو المجمع العلمي العربي

الطبعة الاولى

الجزء الاول

ويتناول يقظة الشعور القومي في العالم العربي منذ اواخر الحكم
العثماني حتى عهدنا الاستقلالي الاخير الذي تم فيه انشاء
جامعة للدول العربيّة تتولّى النظر في شؤونهم
العامة والدفاع عن مصالحهم المشتركة.
وما حرّك ذلك في نفوسهم من
خوالج نثرية وشعرية.

جامعة بيروت الأميركية

منشورات كلية العلوم والآداب



سلسلة العلوم الشرقية :

الحلقة الحادية والعشرون

سلسلة العلوم الشرقية

(١)-(٣) مجموعة الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا للدكتور اسد رستم المجلدات الاول والثاني والخامس . سنة ١٩٣٠-١٩٣٣

(٤) امراء غسان لثيودور نولدكه . ترجمة الاستاذين بندلي جوزي وقسطنطين زريق سنة ١٩٣٣

(٥) مجموعة الاصول العربية . . . . المجلدان (الثالث والرابع) . سنة ١٩٣٤

(٦) اليزيدية قديماً وحديثاً للامير اسماعيل جول نشره الدكتور قسطنطين زريق سنة ١٩٣٤

(٧) عمر ابن ابي ربيعة للاستاذ جبرائيل جبور . الجزء الاول : عصره سنة ١٩٣٥

(٨) اسباب الحملة المصرية على سوريا كما تظهر في سجلات عابدين الملكية للدكتور اسد رستم سنة ١٩٣٦

(٩) تاريخ ابن الفرات: لناصر الدين محمد ابن عبد الرحيم ابن الفرات المجلد التاسع ، الجزء الاول . نشره الدكتور قسطنطين زريق سنة ١٩٣٦

(١٠) تاريخ ابن الفرات : المجلد التاسع ، الجزء الثاني . حققه وضبط نصه الدكتور قسطنطين زريق والدكتورة نجلا عز الدين سنة ١٩٣٨

(١١) الاضطرابات في فلسطين سنة ١٨٣٤ كما تظهر في سجلات عابدين الملكية للدكتور اسد رستم سنة ١٩٣٨

(١٢) ديوان ابن الساعاتي . نشره الاستاذ انيس المقدسي . الجزء الاول سنة ١٩٣٨

(١٣) عمر ابن ابي ربيعة : للاستاذ جبرائيل جبور . الجزء الثاني : حياته سنة ١٩٣٩

(١٤) تاريخ ابن الفرات : المجلد الثامن · حققه وضبط نصه الدكتور قسطنطين زريق والدكتورة نجلا عز الدين سنة ١٩٣٩

(١٥) العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث للاستاذ انيس المقدسي سنة ١٩٣٩

(١٦) ديوان ابن الساعاتي . نشره الاستاذ انيس المقدسي . الجزء الثاني سنة ١٩٣٩

(١٧) تاريخ ابن الفرات : المجلد السابع . حققه وضبط نصه الدكتور قسطنطين زريق سنة ١٩٤٢

(١٨) الكواكب السائرة باعيان المئة العاشرة . الجزء الاول حققه وضبط نصه الدكتور جبرائيل جبور سنة ١٩٤٥

(١٩) معجم الالفاظ العامية في اللهجات اللبنانية للدكتور انيس فريحه سنة ١٩٤٧

(٢٠) الكواكب السائرة الجزء الثاني حققه الدكتور جبرائيل جبور سنة ١٩٤٩

الى القراء

هذه محاولة جديدة في درس الادب الحديث يراد بها تحليل العناصر المختلفة التي يتألف منها جوّنا الادبي والرجوع الى الاسباب التي اثارت امواجه العاطفية والفكرية.

وهي محاولة شاقة فالباحث الرائد لا يرى حوله الا ادغالاً مشتبكة لا طرق معبّدة فيها ولا معالم واضحة . وقد كابد المؤلف من ذلك ما لا يعرفه الا زملاؤه من روّاد هذه المباحث وكانت مهمته ان يقرأ آثار النهضة الادبية الحديثة — غثّها وسمينها — المشهور وغير المشهور منها ثم ينظّم من ذلك كله ما يعكس التطورات الاجتماعية والسياسية والفكرية ويقابله بما ورد من اقوال الباحثين السابقين وما تثبّته من احاديث المعاصرين فضلاً عما عرفه باختباره وكان له اثره الخاص في نفسه .

وقد تهيأ له في هذا السبيل شيء كثير من مطبوع ومخطوط ومن مؤلفات منشورة واوراق خاصة . بيد انّ ذلك لم يظهر منه في كتب المراجع الا ما اعتمده مباشرة لشاهد او عبارة مقتبسة وهو لا يزيد عن نصف ما دعت الحاجة الى مراجعته .

ومما لا بد من ذكره ان معظم الفصول الواقعة تحت باب « الاتجاه القومي » كانت قد نشرت حلقات متتابعة في المجلدين الثالث والتسعين والرابع والتسعين من مجلة المقتطف بعنوان العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث . وقد تكرم رئيس تحريرها يومئذ بكلمة في هذه الفصول نثبت منها الفقرة التالية : « ومن بواعث اغتباط المقتطف ان اتيح له نشر هذه الفصول النفيسة الممتازة بالتقصي الدقيق والانصاف والتحليل العلمي والتاريخي ووصف تقلب الحالة النفسية في الشعوب العربية خلال الفترة التي تناولها ولا يخفى على القارىء المتبصر ما تكبده الاستاذ المقدسي من مشقة في مراجعة الصحف والمجلات لاستخراج ما نشر فيها من انباء النهضة القومية العربية في شتى مراحلها وما قيل فيها من الشعر ثم في مراجعة الدواوين العربية التي طبعت ونشرت في مصر

وسوريا ولبنان والعراق والمهاجر الاميركية فجاءت هذه الفصول « ديوان النهضة العربية » او هي مهدت الطريق لوضع هذا الديوان .

وها نحن نقدّم للذين يعنون بشؤون الادب العربي والنهضة الحديثة هذه الدراسات ولا ندّعي انها بلغت الغاية في هذا السبيل وانما نرجو ان تكون وسيلة يستطيع بها طلاب العلم والراغبون في البحث ان ينظروا في ادبنا الحديث نظراً منطقياً وان يتفهموا خوالج العرب في هذا القرن وبواعثها الحقيقية .

ا . خ . م .

بيروت — [redacted]

توطئة

في الثابت والمتجدِّد في الادب

في الادب عنصران مختلفان : عنصر الثبوت وعنصر التجدد . ونعني بالثبوت تلك الخاصة التي تضمن للادب خلوده من جيل الى جيل . خذ مثلاً روائع القدماء فاننا لا نزال نتناشدها الى الآن ونحن نشعر بروعتها وتأثيرها كما شعر الذين قبلنا وسيقرأها مَن بعدنا ويشعرون بها شعورنا وشعور الناس في كل زمان ومكان . وما ذلك إلا لان فيها جمالاً ثابتاً مع الاجيال هو سرّ خلودها وهو الذي يحدو اهل الثقافة عند كل الامم الى مطالعة روائعهم القديمة والتمتع بها .

وها نحن ابناء العربية في القرن العشرين على بعد عهدنا عن عهد امرىء القيس وزهير وعمر بن ابي ربيعة وابي نواس وابي تمام والمتنبي والبحتري والمعرّي ومن في طبقتهم من الشعراء ترانا نردد الكثير من اقوالهم ونحمل النشء الجديد على تدارسه وحفظه . ومن منا يستجيز لنفسه ان يقول ان تقادم العهد قد ذهب بهذه الروعة الحية المتجسمة مثلاً في رائية عمر اذ نراه واقفاً عند المساء على شرفة وادٍ وهو يراقب من بعيد مخيّم القبيلة التي تقيم فيها فتاته . ثم نسمعه يقول :

وبتّ اناجي النفس اين خباؤها ... وكيف لما آتي من الامر مصدر
فدل عليها القلب ريّا عرفتها ... لها وهوى النفس الذي كاد يظهر

في هذه الكلمات التي تصور لنا الحب هاديا حين لا هادي سواه والتي تحمل الينا من الحبيب طيب ريّاه نَغَم يطربنا وجمال يحلو لنا كلما قرأناها او سمعناها . وذلك نفس ما يعترينا عندما نسمع العباس بن الاحنف يخاطب سرب القطا بلسان الواجد المشتاق :

بكيتُ على سرب القطا اذ مررن بي ... فقلتُ ومثلي بالبكاء جديرُ
أسرب القطا هل من يعير جناحه ... لعلي الى من قد هويت اطير

وهوذا المتنبيء يقرأ سفر الحياة وينقل لنا منه بقلمه الفنان ما يحرّك النفوس ويهز الوجدان . فلا غرابة ان تصبح اقواله على السنة الناس حتى اذا احتاجوا الى ما يشحذ همتهم ويوقظ عزائمهم قالوا :

ذريني انل ما لا ينال من العلى فصعب العلى في الصعب والسهل في السهل
تريدين لقيان المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل

وقبله غاص ابوتمام على المعاني الفخمة وانشدها للناس في انغام رائعة . واي اديب اليوم يقرأ ابياته التالية ولا تعتريه هزة المغامر الذي لا يبالي في سبيل العلى بالاهوال والمخاطر :

ولكنني لم احوِ وفراً مجمّعاً ففزتُ به الا بشمل مبدَّدِ
ولم تعطني الايام نوماً مسكّناً ألذّ به الا بنوم مشرّد
وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد
فاني رايت الشمس زيدت محبةً الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

وما يصدق على هذه الامثلة القليلة يصدق على المئات من الروائع القديمة . ولن يكون الادب ادباً عالياً ما لم تكن فيه هذه الروعة الخالدة التأثير مهما بعد مكانها او زمانها اذ هي قائمة على اسس نفسية ثابتة يشترك فيها جميع الاحياء العاقلة .

على ان ثبوت الروعة الادبية لا ينفي ان يكون في الادب عنصر آخر هو عنصر التغيّر او التجدد. ونعني به تلك النزعة الى التطور والسير في مسالك جديدة . فالادب مرآة يعكس لنا الحياة والطبيعة وما يثيرانه في النفس البشرية من خوالج وافكار . وبديهيٌ ان الطبيعة الجامدة قلما يمسها هذا التطور المستمر . فالبحر والجبل والروض والوادي والمطر والغابة والصحراء وسواها من المشاهد الطبيعية هي هي منذ اقدم الازمنة الى الآن وقد عرفها الانسان القديم كما عرفها الحديث وانما يتفاوتان في التقرب منها والنظر اليها والتلطف بمناجاتها وفهم آياتها .

اما الحياة الانسانية او البيئة العمرانية فسريعة التطور لا تستقر على شكل واحد او نظام واحد . ومن البيّن ان اختبار الانسان في القرن العشرين غير اختباره في القرون الغابرة وان الحياة في لندن ونيويورك وباريس غيرها في بادية نجد او غابات السودان او نجود تيبت . وعلى تقدم الانسان في الاختبار تقوم النهضات العمرانية

وبها يحصل هذا التطور المطرد في المجتمع البشري . وهذه النهضات تنعكس لنا في آداب كل الامم على اختلاف احوالها ودرجات ارتقائها .

فالادب من هذه الناحية متطوّر متغير لانه يعكس لنا العوامل الفعالة في النهضات العمرانية السائرة في سبيل التطور العام . وعلى ذلك نرى في آداب العصور المختلفة ظواهر ينفرد بها عصر دون عصر كما ينفرد مثلاً العصر الجاهلي عن العصر العباسي او الاندلسي . ومن هنا منشأ هذا الاختلاف بين القديم والجديد .

ومهما كان الادب وجدانياً او شخصياً فانه لا ينحصر في ذات صاحبه ويبقى هناك بمعزل عن كل الحركات الفكرية والاجتماعية التي تنشأ في بيئته وتمس حياته . وليس الاديب دودة الحرير التي تنسج حول نفسها قبراً ترقد فيه بل هو لوحة حسّاسة يرتسم عليها ما يحيط به من مؤثرات فتمتزج بنفسه ثم تظهر للناس رسوماً ذات روعة وتأثير .

والذي لا ينكر ان عصرنا الحاضر قد دخله من اسباب العمران ما باعد جداً ما بينه وبين العصور السالفة . اعتبر ذلك في شتى المبادىء السياسية التي طغت علينا من وراء البحر وتلك الانقلابات الاقتصادية والاجتماعية التي اقتضاها تقدم العلم والتوسع التجاري والاحتكاك بالامم الغربية . كل ذلك قد ادّى الى تطور في البيئة العربية وبالتالي الى توجيه الادب العربي نحو اهداف وفي اساليب لم تتهيأ في البيئة القديمة او في الادب القديم . وسندرس ذلك تحت الابواب التالية .

١ – الاتجاه القومي – وهو يعبّر عن وعي عام في البلدان العربية ويبحث في العوامل السياسية الخارجية والداخلية وما اثارت من شعور قومي وحركات وطنية

٢ – الاتجاه الاجتماعي – اي نحو الحياة العامّة . ويتناول الشعب ومشاكله المختلفة واثر الحياة الجديدة فيه .

٣ – الاتجاه الطبيعي – وفيه نرى نزعة الادب نحو الطبيعة والحياة الريفيّة .

٤ – الاتجاه الروحي – او ما يظهر في الادب من تطوّر في النظر الى الحياة ومن ميل الى التأمل في المجرّدات .

٥ – الاتجاه الفني – وهو عرض عام لما في الادب الحديث من ظواهر التجديد في الاسلوب والاخراج .

الاتجاه القومي (١)

تضارب النزعات ابان الحكم العثماني في عهد عبدالحميد الثاني

الحوالج العامّة في العهد الدستوري

النهضة العربية القوميّة واثرها في نفوس العرب

المشادة بين الانتداب والقومية

الاتجاه نحو الاتحاد العربي

(١) ذكرنا آنفاً ان هذا القسم من الكتاب قد نشرت فصوله في المقتطف ٩٣ و٩٤ ثم جمعت في كتاب واحد تحت عنوان العوامل الفعالة في الادب ونحن هنا نعيده متمماً ومنقحاً .

تضارب

النزعات الادبية

في عهد السلطان العثماني عبدالحميد الثاني

« الرابطة العثمانية » ظلت تركيا الى عهد قريب سيدة الامم العربية من الناحية السياسية ، وظلت عاصمتها الاستانة مقرّ سلطنة مترامية الاطراف ، وخلافة دينية واسعة النفوذ.

وبرغم ما بلغتهُ في اواخر عهدها من فساد اداري واختلال اقتصادي ، وبرغم الدعايات[١] الواسعة التي كانت تقوم بها الدول الاوربية ، واخصّها روسيا القيصرية وبريطانيا وفرنسا والمانيا والنمسا ، لا ترى في الشرق العربي منذ ايام ابراهيم باشا المصري حتى اواخر القرن التاسع عشر حركة جدية للانفصال عن السلطنة العثمانية والاستقلال بكيان سياسيّ منظّم . ولم يكن لقطر عربي من الاسباب الممهّدة لظهور ادب قومي عربيّ النزعة ما كان لمصر في القرن التاسع عشر فهي اسبق البلدان العربية الى انشاء وحدة ادارية ذاتية ، بل هي اول مكان بعثت فيه الروح العربية الاستقلالية ، كما يستدل من سياسة ابراهيم باشا التي كانت ترمي الى فصل بعض الاقطار العربية عن جسم السلطنة وتأسيس مملكة عربية كبيرة[٢]. كان ابرهيم باشا يحلم بالاستقلال حينما صرّح للباورن بوالكونت بقوله[٣] « ما انا بتركي بل انا ابن مصر ان شمسها قد غيّرت دمي

(١) الدعايات لفظة غير قاموسية . ولكننا آثرنا استعمالها لشيوعها بين الكتاب السياسيين ولورودها في الحديث الشريف كقوله ادعوك بدعاية الاسلام

(٢) Rustum, The Royal Archives p. 92-96

(٣) Douin, Mission du Baron Boisle Comte p. 249

فجعلتني عربياً قحاً ، وقد سارت مصر بعده بخطى ثابتة في ذلك السبيل ومع كل ذلك ظلّ الادب العربي فيها عثمانيّ الروح . والذي يراجع نفثات الادباء المصريين في القرن الاخير كابي النصر علي ، والشيخ علي الليثي ، وسامي باشا البارودي ، وعبدالله نديم وسواهم يتجلى له ما نقصد اليه .

وسبب ذلك ، على ما يظهر ، ما كان للخلافة ودعاتها من تأثير في نفوس المسلمين . فكان سلطان تركيا الممثل الاكبر لعظمة الشرق والاسلام . وإذا سمعنا الشيخ الليثي شاعر الخديوي اسماعيل يقول في السلطان عبدالعزيز (على الطريقة الشعرية في ذلك العهد)

دع ذكر كسرى وقصّر إن اردت ثنا عن قيصر الروم حيث النفع مفقودُ
واشرح مآثر من سارت بسيرته ركائب الجود تحدوها الصناديدُ
مَلْكِ الملوك الذي من يمن دولته ظلّ العدالة في الآفاق ممدودُ

فانما قوله انموذج لما كان يقال في العرش العثماني وخلافة الاسلام . وقد ظلت الروح العثمانية شديدة البروز في مصر حتى حدث ما حدث بعد الحرب العالمية الاولى من سقوط الخلافة وانقلاب السلطنة العثمانية الى دولة تركيّة صرفة . وكان قادة الحركة الادبية على اتصال بمقر الخلافة . تغمرهم النّعم السلطانية كعلي ابي النصر المتوفى سنة ١٨٨٠ وعبدالله فكري ١٨٨٩ وعبدالله نديم ١٨٩٦ وابراهيم المويلحي ١٩٠٦ ومصطفى كامل ١٩٠٨ ثم المتأخرون عن هؤلاء بالوفاة كاحمد شوقي وحافظ ابراهيم واسماعيل صبري واحمد نسيم ومصطفى الرافعي وسواهم .

وشوقي على ما يظهر هو اعظم من تغنى شعرياً بمحامد الخلافة وتعظيم رجالها . فان له في ذلك قصائد سائرة . ومن اشهرها ما نظمهُ في وقائع الحرب العثمانية اليونانية سنة ١٨٩٧ وكان في التاسعة والعشرين من عمره كقوله في بائيتهِ العصماء (صدى الحرب) يخاطب السلطان : —

بسيفك يعلو الحقّ والحقّ اغلبُ ويُنصر دين الله ايان تضربُ
وما السيف الا آية الملك في الورى ولا الامر إلا للذي يتغلبُ

ومنها في وصف معركة ملونا وبأس الاتراك الظافرين : —

فهل من « ملونا » موقفٌ ومسامعٌ ومن جَبَليها منبرٌ لي فاخطبُ
فاسأل حصنيها العجيبين في الورى ومدخلها الأعصى الذي هو أعجبُ

وأستشهدُ الاطوادَ شمّاء والذّرى بواذخ تلوي بالنجوم وتجـذبُ
هـل البأسُ الا بأسهم وثباتهم ام العـزمُ الا عزمهم والتلبّبُ
أم الدين الا ما رأت من جهـادهم أم الملـك الا ما اعزّوا وهيّبوا

والحق يقال ان هذه القصيدة هي فيض من العواطف العثمانية . وكذلك كان كثير من شعر شوقي . فقد نشأ على حب العثمانيين وظلّ من اكبر الدعاة لهم . ومن أراد ان يتحقق عثمانية هذا الشاعر الكبير فليراجع من قصائده ما يلي : —

تحية الترك ومطلعها :

بحمـد الله ربّ العالمينا وحمدك يا امـير المؤمنينا

ضيف امير المؤمنين :

رضي المسلمون والاسلام فرع عثمان دم فداك الدوام

نجاة امير المؤمنين :

هنيئاً امير المؤمنين فـانما نجاتك للدين الحنيف نجاة

الاسطول العثماني :

هزّ اللواءَ بعزّك الاسلام وعنت لقائم سيفك الايام

في سبيل الهلال الاحمر :

يا قوم عثمان والدنيا مداولة تعاونوا بينكم يا قوم عثمانا

في سبيل الهلال الاحمر :

جبريل هلّ في السماءِ وكبرِ واكتب ثواب المحسنين وسطّر

الاندلس الجديدة :

يا اخت اندلسٍ عليك سلام هوت الخلافة عنك والاسلام

تحية للترك :

الدهر يقظان والايام لم تنم فما رقادكمُ يا اشرف الامم

رثاء الخلافة :

عادت اغاني العرس رجع نواح ونعيت بين معالم الافراح

فمن قراءة هـذه القصائد وسواها[1] يتبين لك ما كان للخلافة العثمانية من مقام في نفوس المصريين

(١) راجع في مثل ذلك ايضاً ديوان حافظ وديوان احمد نسيم

اما في الادب المنثور فاكثر ما ترى ذلك في خطب السيد عبدالله نديم ومقالاته ، ثم في الحركة الوطنية التي قام بها مصطفى كامل وفي كتابات السيد توفيق البكري . ومن امثلته قول الاول في خطاب[١] .

« هذي يدي في يد من اضعها ؟ ضعها في يد وطنك واعقد خنصرك على محبة امير المؤمنين الخليفة الاعظم والا فقطعها خير من وضعها في يد اجنبي يستميلك اليه بوعود كاذبة وحيل واهية لتكون عونه الاكبر على ضياع حقوقك واذلال اخوانك ونزع سلطة اميرك وسلطانك » وهذه الروح بارزة في كثير من اقوال هذا الخطيب .

وكان مصطفى كامل (وهو زعيم الحركة الوطنية قبل الحرب الكبرى) يرى ان مصلحة مصر مرتبطة بمصلحة الاسلام على العموم. فكان كما قال زيدان « شديد المدافعة عنه كثير السعي في نصرته . وقد كان يخدم مصلحة الدولة العثمانية من طرق كثيرة فانعم عليه السلطان بالرتب والالقاب[٢] » ومن قرأ خطبه تحقق صدق عثمانيته . ومن امثلة ذلك قوله من خطاب القاه على المصريين في باريس سنة ١٨٩٥[٣] .

« حقاً ان سياسة التقرب من الدولة العلية لاحكم السياسات وأرشدها . فضلاً عن الاسباب العظيمة الداعية لهذا التقرب فان العدوّ واحد . ولا يليق بنا ان نكون في فشل وشقاق في وقت يعمل فيه اعداؤنا على تجزئة دولتنا . ولا غرو ان كنا نتألم لآلام الدولة العلية فما نحن الا ابناؤها المستظلون بظلها الوريف المجتمعون حول رايتها » ... الى ان يقول « وقصارى القول ان الراية العثمانية هي الراية الوحيدة التي يجب ان نجتمع حولها . ولا تتحقق وحدتنا بغير الاتحاد والائتلاف فلنتحد قلباً ولساناً ولنكن يداً واحدةً في خدمة الاوطان واسعادها. ولنقل اليوم جميعاً من صميم افئدتنا ليحي جلالة السلطان عبدالحميد وليحي العباس ولتحي العثمانية ومصر » .

واننا نترك للتحقيق التاريخي البتّ في هل كان مصطفى كامل يستخدم الدعوة العثمانية مناوأةً للاحتلال الانكليزي في مصر او كان يستخدم مناوأة الاحتلال اداة لخدمة الخلافة . على ان الذي لا شبهة فيه ان كلتا العثمانية والمصرية بارزتان في حياته وادبه، وانه كان من اكبر الدعاة في مصر بل في الشرق لتوطيد دعائم الجامعة العثمانية

(١) راجع مقالاته المنشورة على نفقة المطبعة الجديدة (مصر) ولاسيما الثالثة والتاسعة
(٢) تراجم مشاهير الشرق ١ - ٢٩٧ و٢٩٩ (مصر ١٩٢٢)
(٣) راجعه في كتاب مصطفى كامل باشا (الطبعة الاولى مصر ١٩٠٨) ج ٣ - ١٩٧

في ظل الخلافة الاسلامية[١] .

وقد نشأ قبله اثنان كان لهما يد طولى في هذه الدعوة واحيائها في الادب العربي . الاول احمد فارس الشدياق ١٨٨٧ وهو لبناني الاصل لكنهُ اتمّ علومه في مصر وعمل فيها فتولى كتابة الوقائع المصرية . ثم جال في اوروبا وأقام فيها بضع عشرة سنة ، وبعد ذلك امّ تونس حيث اعتنق الاسلام ثم طلب الى الاستانة وهناك انشأ الجوائب وكانت واسعة الانتشار في العالم الاسلامي وفيها يجد الباحث كثيراً من القصائد والمقالات التي تدور على عظمة الدولة ومدح سلاطينها ورجالها . كقوله من قصيدة في عبدالعزيز[٢] .

للدولة العليا عُلىً ومآثر يشدو بها يوم الفخار الآثرُ
ساست ممالك ليس يعلم حدّها ولغاتها الا العليم القادر
سر حيث شئت من البلاد فلا ترى الا النعيم وما اشتهاه الناظرُ

والثاني جمال الدين الافغاني ١٣١٤ هـ ويتصل نسبه بآل البيت . كان زعيماً اسلامياً كبيراً . وقد اضطرتهُ الاحوال السياسية ان يفارق بلاد الافغان ويقصد الاستانة فاستقبل هناك بحفاوة واقام بها مدة . ثم امّ مصر وكان فيها محجة العلماء والمفكرين . ولجمال الدين خطط وتعاليم سياسيّة ويؤخذ منها « ان الغرض الذي كان يصوّب نحوه اعماله والمحور الذي كانت تدور عليه آماله توحيد كلمة الاسلام وجمع شتات المسلمين في حوزة دولة اسلاميّة تحت ظل الخلافة العظمى »[٣] .

***

ونحن إذا قلنا ان الادب المصري كان متشبعاً بروح التشيّع للخلافة والجامعة العثمانية فحكمنا يتناول المصريين الاصليين ولا سيما المسلمين منهم . اما نزلاء مصر من السوريين واللبنانيين والعراقيين فكانوا فئتين متطرفتين ، فئة تجاري المصريين في عثمانيتهم وفئة تنكر عليهم هذا الاندفاع نحو تركيا .

(١) راجع قول نجيب الحداد في منتخباته ٢١٦

(٢) منتخبات الجوائب (١٢٩٣) ٣ - ١٥٣

(٣) تراجم مشاهير الشرق (زيدان) (مصر ١٩١٠) ج ٢ - ٦١ . وراجع ايضاً للاستشهاد مجلة العروة الوثقى وخصوصاً ص ٢٢٢

ومن الفئة الاولى سليم تقلا مؤسس جريدة الاهرام . واليك بعض ما كتبه سنة ١٨٩٩ في « الوطنية العثمانية » قال —[١]

« انّ في ممالكها المحروسة عناصر عديدة بين تركية وعربية وارمنية ويونانية وغيرها وكذلك مذاهب مختلفة . ولكنها تجمعها كلها جامعة واحدة وطنية هي الجامعة العثمانية وهي دون استثناء تخضع لجلالة سلطانها وتصدع بامره وتنصاع لاحكامه . وهذه الجامعة كانت وتكون الحصن الحصين للرعية دون اطماع الدول ، وما وراءَ العبث بها الا الخسران والضياع . واذا تبيّن هذا ، وهو الحق الصّراح ، كان ابن مصر وابن الحجاز والعراق والشام اخوة ّلامٍ هي دولتهم ، وأبٍ هو جلالة السلطان»

وتتجلى هذه النزعة العثمانية ايضاً في شعر خليل مطران . وفي ادب مطران وسيرته ما يدل على مجاراته الوطنيين المصريين في آمالهم ونزعاتهم . فلا نستغرب ان نسمعهُ يقول في قصيدته « فتاة الجبل الاسود » وكان قد نظمها قبيل استقلال ذلك الجبل[٢] —

طغت امة الجبل الاسودِ على حكم فاتحها الأيّدِ
ومنها — وما الترك الا فحول الحروب رضيعو لظاها من المولد
اذا لقحوها الدماءَ فلا نتاج سوى الفخر والسؤدد
سواءٌ على المجد اياً تكن عواقب مسعاهم تُحمَد

وتظل هذه الحماسة العثمانية فيه الى زمن متأخر كما نرى في القصائد التي يذكر فيها حرب طرابلس الغرب وبعثات الهلال الاحمر[٣] ففي هذه وما عائلها يظهر ميله العثماني وتشيعه لوطنيي مصر .

ويمثل الفئة الثانية المناوئة للسياسة العثمانية او الحميدية سليم سركيس صاحب جريدة المشير فهو شديد التهجم على هذه السياسة وعلى دعاتها . ومما يبيّن لك ذلك مقالة له موضوعها « هل مصر عثمانية » قال فيها[٤] .

«لم اجد في حياتي ولا قرأت في مطالعاتي عن امة تريد الانتقال من نور الاستقلال الى ظلمات العبودية الا هـذا القسم من الامة المصرية الذين يريدون التمسك بأذيال العرش العثماني » ومن شعره قوله[٥] —

(١) مجاني الغرر ٧٣ (٢) ديوانه ص ١٥٦ (٣) راجعها في الشعراء الثلاثة للسندوبي (١٩٢٢) ص ٣١٦ و٣٢٦ والمورد الصافي ٣ – ١٨٣ (٤) راجعها في المشير عدد ١٠٣

(٥) المشير ٢١ ابريل ١٨٩٩

نرجو صلاح الترك قد خابت امانينا الكواذب
هي دولة ظلمت وليس العدلُ عن ظلم بذاهب
فانشدْ معي قولاً تردِّ ده المشارق والمغارب
ليس العجيبة فقدها بل عيشها احدى العجائب

ومثل سركيس كثيرون ممن بلغ بهم اليأس هذا الحد من كره الادارة التركية على ان بين هاتين الفئتين فئة ثالثة تتوسطهما وتتصل بكلتيهما . وهي فئة المعتدلين الذين لم يعمهم التغرض عن سيئات تركيا – ومنهم من هجرها طلباً لحرية الفكر – وكان مع ذلك كله يحرص على بقاء الجامعة العثمانية . نذكر منهم فرح انطون فقد اصدر في الاسكندرية سنة ١٨٩٧ مجلته (الجامعة العثمانية) . ومن اسمها يتضح مذهبه السياسي . وخلاصته[١] ان الامم الشرقية يجب ان تتحالف تحالفاً متيناً جداً حتى تستطيع ان تسير مع التيار الغربي فلا يدوسها ولا يستطيع ان يهضمها. فهو منذ بدء حياته القلمية يدعو الى جامعة شرقية واسعة . ومن اقواله في العدد الاول من مجلته مشيراً الى المدارس الاجنبية – « فلْننشأن ايها العثمانيون بازاء تلك المدارس مدارس جديدة يكون اساس تعليمها حب الوطن والامة وتعليم ما هو الوطن وما هي الامة. لنؤسس مدارس جديدة ندخل اليها طرق التعليم الحديثة ووسائل التربية الحديثة. وندخل اليها قبل ذلك عناصر الامة كلها فتربّيها فيها على مقاعد واحدة ونلقّنها دروساً واحدة ومبادىء واحدة حتى تكون بعد خروجها من حياة المدرسة الى حياة الرجولية بقلوب واحدة وأفكار واحدة فان هذا هو السبيل الى تقوية جدار الوطنية العثمانية ووقايته من الثلم والهدم »

وقد علق على ذلك الشيخ رشيد رضا صاحب المنار الاسلامي بقوله[٢] « فشكراً لك ايها الكاتب الفاضل ، ونجح الله تعالى الجامعة العثمانية بمبادئك الصحيحة » ومما لا ريب فيه ان الشيخ المذكور كان من دعاة العثمانية[٣] وكذلك الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد وغيرهما من رجال العلم والدين .

ومن المعتدلين الناظرين الى الامور بعين الروية جرجي زيدان منشىء الهلال فهو من طلاب الاصلاح السياسي ولكنه لم يكن مناوئاً للعثمانية . والذي يطالع اعداد مجلته ولاسيما في السنين الاولى يراه عطوفاً على الدولة ولعله كان يرى كما كان يرى اديب

(١) « فرح انطون » ملحق مجلة السيدات والرجال ١٩٢٣ ص ١٤ (٢) المنار مج ٢ - ٤٧
(٣) راجع رأيه في محمد علي الكبير وخروجه على الدولة العثمانية المنار ٥ – ١٥٩

اسحق واصحاب المقطم وامثالهم ان الرابطة العثمانيــة لازمة للشرقيين وان طلب الاصلاح لا يعني القضاء عليها او استبدال رابطة اخرى بها .

واذا صح ان نعدَّ ولي الدين يكن نزيلاً في مصر لنشأته في الاستانة واعتباره اياها وطنه الاصلي فهو من ابرز المنتمين الى هــذه الفئة الوسطى . بل هو يجمع في نفسه تطرّف الفئتين الاولين ــ شدة النقمة على السلطان عبد الحميد ، وشدة العصبية للوطن التركي. فلما كان في مصر ورأى بعض الجرائد الانكليزية والعربية تتحامل على العنصر التركي نسي نقمته على السلطان وحكومته وقام يدافع عن الاتراك غير مبالٍ بمعاداة كثير من خلانه الاحرار[1]. وهو القائل « لوطني مني حياتي وكل ما كان دونها على ان اعيش عثمانياً وأموت عثمانياً »[2] ومن اقوالهِ في وطنهِ العثماني

ويخلــد للّيالي فيــك حبي واخلاصي الذي في الناس شاعا

وفي مرثاته لادهم باشا بطل الحرب اليونانية يقول

وبلاد الفتى تعزّ عليهِ وعظام الآباء فيها عظام
وعهود الصبا عهودٌ غوالٍ وغرام الوفيّ ذاك الغرام

وكيف التفتّ الى ولي الدين تجده في ادبه ذلــك العثماني المخلص الذي يكره الاستبداد ولكنه يحبّ الوطن ، يمدح اللورد كرومر لحمايته الاحرار في مصر[3] ولكنه ينقضّ على مشايعي غلادستون المتحاملين على تركيا والاتراك[4]. حتى في ايام محنته ونفيه الى سيواس لا يذكر بلاده الا بالخير فيقول[5].

ايها الركب سرْ فانّ امامي لبعــاداً مرّاً وعيشاً امرّا
غربةٌ هذه وقد كنت ادري أن سأرمى بها لدنْ كنت حرّا
فالفحي يا رواسيَ الارض ناراً وأفيضي فدافــد الارض بحرا
وانفحي يا ريح الشمال سموماً واقذفي يا سوائر الافق صخرا
انا ارضى بــذا لحبّ بــلادي وارى في سبيلها الموتَ فخرا

واذا ذكر الخلافة العثمانية ومجدها الماضي وكيف اصبحت في ايام عبد الحميد قرن ذلك بدموع الاسى على الوطن فقال[6]ـ

(١) المعلوم والمجهول (١٩٠٩) ١ - ١٠٧ (٢) المعلوم والمجهول (١٩٠٩) ١ - ١٣٩
(٣) المعلوم والمجهول ١ - ١١٠ (٤) المعلوم والمجهول ١ - ١٠٧ (٥) المعلوم والمجهول ٢ - ٦٥ (٦) ديوانه ٦٣

خلافة قـد مضى عنها خلائفها من آل عثمان من سادوا ومن شادوا
ابقوا بها المجدَ للاخلاف بعدهمُ والمجد يبقيه للاخلاف امجادُ
حتى انتهت لامـيرٍ في تسلطه يخشى مظالمه عـادٌ وشدّادُ
يا ويلنا انمـا نبكي لنا وطناً يبكيه في الترب آباءٌ واجـدادُ

وفي ديوانه باب خاص بالسياسيات تجد فيه شواهد كثيرة على نزعته الحرة ونقمته على سوء الادارة واستبداد العرش. واولى وطنيّاته قصيدة «نشتاق حرية فيؤيسنا».(١) ومنها –

اياوطناً قد جرى الفساد به متى يرينا اصلاحك الزّمَنُ
دفنتَ حياً وما دنا اجلٌ ما ضرَّ لو دافنوك قد دُفنوا
دماء ابنائك الكرام جرت بحراً فاشلاؤهم لهـا سفن

ومثلها «الوطن يشكو اهله»(٢) «وزفرة من زفراتي»(٣) قالها عندما نفي الى سيواس ١٩٠٢ وفيها يقول :

عداة الحق قد ربحوا واهل الحق قد خسروا
ونحن امامنـا وطنٌ نراه اليوم يحتـضر
فيا افق التهب حزناً وجد بالدمع يا مطر

فولي الدين مهما يكن موقفه من الادارة الحميدية عثماني مخلص شديد التعلق بالجامعة العثمانية ولعله يفوق سائر الاصلاحيين في ذلك.

وما يصدق على المهاجرين العثمانيين في مصر يصدق عليهم في سائر المهاجر الا انه لما كان اكثرهم هناك من السوريين واللبنانيين النازحين من بلادهم اما رهبة من الاستبداد وإما رغبةً في طلب العلى ، ولما كانوا بعيدين عن تأثير الدعايات العثمانيـة خلافاً لحال اخوانهم في وادي النيل، فقلما ترى منهم من يعطف على الجامعة العثمانية او يهتم ببقائها. على انك قد تجد منهم من تهزّه العصبية الشرقية أحياناً فتظهر العثمانية في شعره او نثره ولكن ذلك قليل اذا قيس بسواه .

***

(١) ديوانه وجريدة المشير ٨ يناير ١٨٩٨ (٢) ديوانه وجريدة القانون الاساسي ١٨٩٨
(٣) ديوانه

واذا خرجنا من مصر الى سائر الاقطار العربية ولاسيما سوريا ولبنان والعراق فمن الطبيعي أن نجد معظم الادب السياسي فيها متلبساً بملابس المجاملة او التزلف الى السلطان ورجال دولته .

ولا ينكر ان من الشعراء في هذه الاقطار من كان صادق العقيدة العثمانية إما لتأثيرها الديني في نفسه وإما لاسباب اخرى . على ان الرهبة من الاستبداد او الرغبة في جرّ المغانم كانتا قبل العهد الدستوري من اهمّ الدواعي الى شيوع النزعة العثمانية في الادب العربي . وليس على طالب الحقيقة الا ان يراجع دواوين الشعراء في ذلك العهد كبطرس كرامه وعبد الباقي العمري ، وناصيف اليازجي ، وعبد الغفار الاخرس ، وفارس الشدياق ، ويوسف الاسير ، وابراهيم الاحدب . ثم محمد حسن الحموي ، ومحي الدين الخياط ، والباروني[1] ، وعبد الحميد الرافعي ، ومن عاصرهم . فانهُ يجد في جميعها ما يماثل قول اليازجي الكبير في السلطان عبد العزيز . —

خليفة الله ظلٌّ في خليقته ظلت بهِ تتّقى الدنيا وتستترُ
لا ترتضي غيره الدنيا لها ملكاً لو كان جبريل يأتيها او الخضِر
مقلّد فوق اثواب مضاعفة من خشية الله سيفاً صاغه القدر
إذا طلبنا من الباري لنا وطراً فليس الا بقاهُ عندنا وطر

أو قول عبدالحميد الرافعي من قصيدة في ابي الهدى الصيادي شيخ السلطان عبدالحميد[2]

سألوا يا سعدُ أين المبتغى قلتُ حيثُ الشمسُ في برج الاسدْ
حيث لي من آل طه سادة ملأوا الدنيا بأنوار المددْ
ودنوا من ملجأ الملك لدى مقعد الصدق ومرقى المعتمدْ
فرد ذا الدهر حميد الخُلقا دام في حفظٍ من الفرد الصمدْ

وباب مديح العظماء في ادب ذلك العهد واسع ، بل هو أوسع الابواب الشعرية . وكثير منهُ شخصي لا علاقة لهُ خاصة بالاحوال السياسية . على ان منهُ ما يتعلق بالسياسة الداخلية او الخارجية . فدراسته من هذا القبيل مفيدة للباحث . ومن أمثلة ذلك قصيدة رفعت سنة ١٩٠٢ الى مظفر باشا متصرّف لبنان عند توليهِ الحكم يحاول فيها الشاعر[3] ان يعبّر عن أماني اللبنانيين المهاجرين فيصف حال الجبل في ذلك الحين

(١) شاعر جزائري اقام حيناً بمصر وله ديوان مطبوع
(٢) راجعها في ديوانه الافلاذ الزبرجدية
(٣) قيصر المعلوف في تذكار المهاجر (١٩٠٤) ص ١٠١

وأحوال المهاجرين ثم يلتفت الى المتصرف الجديد فيحذّره من تدخـل القناصل في ادارته . ويطلب الى نواب الاقضية (اعضاء مجلس الادارة) ان ينشطوا الى ما فيه خير البلاد وان يمحوا سيئات الماضي في هذا العهد الجديد. ويختمها راجياً من المتصرف ألا تكون وعوده كوعود اسلافه كلاماً في كلام فيقول –

امظفر الجبل الذي ضمنت لنا اقوالهُ يمنـاً يعزّ مثـاله
كم حاكم ابدى لاول حكمه وعداً فكان وفـاءه اخلاله
حاشاك اخلاف الوعود فانت من شرف المبادىء والوفاء خلاله
تركوا لنا التاريخ مسوداً فكن ممن تخلد بالجميل فعـاله

ولو رجعنا قليلاً الى الوراء وراجعنا مثلاً مدائح ناصيف اليازجي وخليل الخوري في فؤاد باشا لقرأنا في خلال سطورها كثيراً عن حوادث السنة الستين في سوريا ولبنان وقس على ذلك كثيراً من شعر المديح المتعلق بحوادث سياسية اثارت خواطر الناس في مختلف الاقطار العربية .

« البوادر الثورية الاصلاحية » راينا فيما سبق ان « العثمانية » كانت قبـل الدستور بارزة في الشعر المصري عموماً . وفي كثير من الشعر العراقي والسوري واللبناني . على ان الشعر العربي لم يكن كله كذلك . فقـد كان في الشرق العربي كما اسلفنا احرار يهاجمون الفساد ويحملون على السياسة الغاشمة التي كانت تدفع البلاد الى هوّة الانحطاط . وابرز ما نرى ذلك في عهد مدحت باشا ابي الاحرار العثمانيين . فانهُ لمـا تولى ولاية سورية ظهر في بيروت ودمشق حركة ادبية ترمي الى احيـاء الشعور القومي والتظلم من ضغط الاستانة . ولا ندري تماماً سرّ تلك الحركة اكان مبعثها كما يقول البعض مدحت باشا نفسه طمعاً بجعل سوريا كمصر والجلوس عـلى اريكة الحكم فيها[1] . ام لان وجود ذلك الحاكم النزوع الى الاصلاح انشأ في سوريا (كما انشأ من قبـل في العراق) جواً ادبياً حراً استطاع به اباة الضيم ومرهفو الاحساس ان يبثوا بعض خوالجهم ويفرّجوا عن كربتهم . ذلك ما نتركه للتحقيق التاريخي .

واقتضت السياسة نقل مدحت سنة ١٨٨٠ الى ازمير ثم محاكمته بتهمة قتل السلطان عبدالعزيز فتخلّص عبد الحميد منهُ ، وبوقت قصير استطاع ان يبطش برجال الحرية

(١) كتاب سر مملكة لسليم سركيس ص ٦٣

والدستور وان يرجع بالبلاد الى عهد الاستبداد المطلق. فهو بعد ان بدأ حكمه ١٨٧٦ باعلان الدستور وبمجاراة والده عبدالمجيد في طلب الاصلاح نكص على عقبيه وعاد كما يقول «وحي الخالدي» الى سياسة جدّه السلطان محمود خان في استعمال الجبر والاستبداد معتقداً ان الشعوب التي وضعها الله تحت يدي جلالته لا يمكن تسييرها الا بالقوة»[١] فخمدت في ايامه الروح الاصلاحية داخل البلاد لكن بعض الاحرار من الترك والعرب حملوها الى الخارج وهناك نمت وترعرعت فكانت من العوامل الفعّالة في انقلاب الحكومة الحميدية. وفي هؤلاء الاحرار المهاجرين يقول المشير[٢] «هم اخواننا في الانسانية، ورفاقنا في الحرية. علموا ان المجد لا ينال الا على جسرٍ من التعب. فهم يتعبون في السعي وراءَ خدمة بلادهم وارجاع مجد مملكتهم الذي انحط الى دركات الخمول باهمال الامام الذي جار في احكامه والاعوان الذين صاروا بليّةً على الامة»... الى ان يقول.. «وقد انضمّ اليهم بعض ادباء سوريا ومصر وهرب البعض منهم من عالم الجور والظلم الى فضاء الحرية والامن فانتشروا في باريز وسويسرا وانكلترا وأميركا وأنشأوا الجرائد» الخ.

فظهر من هؤلاءِ المهاجرين طبقة من حاملي شعلة الادب وأكثرهم الآن في عالم الارواح منهم فتح الله مراش — رزق الله حسون — عبدالرحمن الكواكبي — خليل غانم — محمد قدري — لويس صابونجي — امين مجيد ارسلان — حبيب سلموني — خليل سعادة — سليم سركيس — نجيب الحداد — ولي الدين يكن. ولا يزال حياً من هذه الطبقة فارس نمر (الدكتور نمر باشا).

ومن أراد الاطلاع على بنات افكارهم فليرجع الى مؤلفاتهم (واكثرها معروف) او الى صحفهم كالمشير والمقطم ولسان العرب ومرآة الاحوال والمجلة وتركيا الفتاة والنحلة والشورى وضياء الخافقين ورجع الصدى وكشف النقاب وسواها[٣] وكلهم كما يصرح الدكتور يعقوب صرّوف قد اتحدوا على التنديد بالادارة السيئة الضاربة أطنابها في بلادهم[٤].

على انهم في ذلك متفاوتون. فمنهم المشدّد ومنهم المعتدل. ومنهم من بلغ بهِ

(١) الهلال ١٧ – ١٦٥ (٢) عدد ١١٣ (٣) في المعلوم والمجهول لولي الدين ص ٦٢ – ٧٤ وصف لبعض هذه الصحف وأصحابها فليراجع. (٤) المقتطف ٣٣ – ٨١٣

فرط التشاؤم حدّ اليأس بالاصلاح فصار لا يرى اصلاحاً الا بهدم كيان الدولة او وقوعها تحت مراقبة الاجانب. واقدم ما رأينا من هذا القبيل قصيدة لرزق الله حسون نظمها في الحرب الروسية العثمانية واستيلاء الروس على القرص ومنها :[1]

كم حروبٍ للروس دارت على التـرك رحاها فغادرتها طحينا
عَلَم الروس يخفق اليوم فوق القـرص وليّ الاتراك في الغابرينا
هكذا هكذا تدور على البـاغي الدوائر[2] ويهلك المجرمونا
مـا عليهم لو عاملونا بحسنى وتساوٍ او انهـم انصفونا

قال الدكتور فارس نمر باشا من خطبة له في النهضة الدستورية مشيراً الى فتح الله مرّاش ورزق الله حسّون[3] — « فهذان الحرّان الحلبيان اللذان فاقا الاقران بحب الحرية كما فاقا الاقران بمعانيهما السحرية ومبانيهما العسجدية قضيا ردحاً من الزمن يرسلان شعاع الحرّية الى ابناء سوريا من قلب اعظم عاصمتين اشتهرتا في اوروبا بالحرية والنظامات الدستورية (اي لندن وباريس) ولكنهما مزجا بلاغتهما بعلقم التفريق بين الترك والعرب فأصابا بايقاظ النفوس لطلب الحرية واخطآ بتمزيق الجامعة العثمانية »

ويستدل من شعر حسون انهُ لجأ الى روسيا حيناً . ومدح قيصرها بقصيدة جعل القسم الاول منها وصفاً لفساد الاحوال في تركيا فقال : —

جُلت الشآم وغسّاناً وعُجت على فينيقيا وكيليكيّا كمعتمر
واذرعاتٍ وبلقاءٍ وتَدْمُرَ في صحراءَ خاليةٍ كالبحر من شجر
اذ لم اجد غير امصارٍ مقلّبةٍ ورسم ابنيةٍ تبكي على الزُمَر
وقفت انعي خراب الملك من مُدُنٍ في الحصر والوصف يعيي المرءَ بالحَصَر

وهو يعزو ذلك الخراب الى سوء ادارة السلطان ورجال دولته ثم يقول بعد ابيات

لهفي ولهف بني الاحرار كلهم على التساوي بانصاف مدى العُمُر

ومنها : حتى دخلت بلاد الروس ملتجئاً بالمستجـار محبّ الله والبشر

ومن هنا يتقدم الى وصف ما وجده في روسيا من عدل وامن ويقابله بسوء الحال

(١) راجع القصيدة في المشير عدد ٣١ (وفي بعض أبياتها اضطراب في الوزن)
(٢) هكذا رواية المشير ولو استبدلنا الدوائر بالدواهي او الليالي — لاستقام الوزن
(٣) المقتطف ٣٦ — ٢٥٨

في تركيا فتؤلمهُ المقابلة ويصيح من قلبٍ متحسر[١].

وإن تذكرتُ اوطاني بكيت دماً   من مهجةٍ طفحت جرياً بمنهمرِ

ومثل حسّون في النقمة على الادارة التركية وحب التخلص منها عدد من الادباء (وجلهم من مسيحيي سوريا ولبنان) وقد سبقت الاشارة الى احدهم سليم سركيس. وهو من الذين برزوا في هذا المضمار وله في ذلك كثير من القصائد والمقالات. منها قصيدة موضوعها « ثلاث حبات » وضعها على لسان ارمني يموت جوعاً[٢] وقصيدة نفير سوريا التي مطلعها[٣].

يا اهل سوريا القساوِرْ   من كل مفخورٍ وفاخرْ
افترتضون صغارةً   لم يرضها في الناس صاغرْ

وله قصيدة اخرى مرّ ذكرها في كلامنا على موقف السوريين من الدعاية العثمانية في مصر وهي شديدة الوطأة وكذلك اكثر شعره ونثره. ويكفي ان نقول انهُ صاحب جريدة المشير التي اشتهرت بعدائها للدولة العثمانية ولاسيما لسياسة عبدالحميد.

والذي يراجع الجرائد الحرّة التي كانت في ذلك العهد تصدر خارج تركيا او في جوّ بعيد عن السيطرة التركية يجد ما لا يستطاع حصره هنا من نفثات الكتاب والشعراء الذين كانوا يحملون على عبدالحميد ويناوئون سياسته. وقد كان لتلك النفثات تأثير ملموس في النفسية العربية بل هو الخميرة التي خمّرتها وهيأتها للنهضة القومية التي تلت ذلك العهد.

واذا كان السوريون واللبنانيون قد اضطروا قبل الدستور الى هجر تركيا، ولم يستطيعوا الجهر برغائبهم الا خارجها. فمن الانصاف ان نذكر هنا ان الشعر الاصلاحي في العراق كان يسمع احياناً حتى في عُقر البلاد. وابرز دعاته هناك اثنان — جميل الزهاوي ومعروف الرصافي. فلكليهما ما يستوقف النظر من الحملات العنيفة على سوء الادارة. ولقد يستغرب الانسان هذا العنف وصبر اولي الامر عليهِ دون عقاب يميت. ولكنه الواقع كما يتبين لمن يطالع قصائدهما القديمة وهما في عنفوان الشباب والقوة. فمن ذلك قصيدة للزهاوي قالها في الاستانة (حوالي سنة ١٨٩٧) وهي كما

(١) راجع القصيدة في ديوانه النزثات ص ٧٦ (٢) راجعها في المشير ٥ ابريل ١٨٩٦
(٣) المشير ١١ مايو ١٨٩٥

ستری من اشدّ ما هوجمت به ادارة ذلك العهد وقد كان عقابه النفي من الاستانة الى وطنه بغداد . ومطلعها

ألا فانتبه للأمر حتّام تغفل — اما علّمتك الحال ما كنت تجهل
اغث بلداً منها نشأت فقد عدت — عليها عواد للدمار تعجّل
ومنها – وما رابني الا غرارة فتية — تؤمّل اصلاحاً ولا تتأمّل
تؤمل اصلاحاً وترجو سعادة — الا باطلٌ ما ترتجي وتؤمّل
وما هي الا دولة همجية — تسوس بما يقضي هواها وتعمل
فترفع بالاعزاز من كان جاهلا — وتخفض بالاذلال من كان يعقل
ومنها – لقد عبثت بالشعب اطماع ظالم — يحمّله من جوره ما يحمّل
فيا ويح قوم فوّضوا امر نفسهم — الى ملك عن فعله ليس يسأل

وهي طويلة واكثرها على هذا النسق[1] ومثلها قصيدته « الصارخة » وهي مخمسة يصف فيها حكومة عبدالحميد ونشرها يومئذ في المقتطف[2] ومن نفثاته قوله من قصيدة يخاطب السلطان[3] .

ان الرعيّة اغنامٌ يجدّد لهم — ولاتك المستبدون السكاكينا
يا عدلُ ان التفاتاً منك يسعدنا — يا عدلُ ان ابتساماً منك يكفينا
ما جاءنا الشرّ الا من تهاوننا — وعمّنا الظلم الا من تغاضينا
لا بدّ من فكّ ما قد شدّ من عُقد — كفّ الإسار بأيدينا بايدينا
إن الذين استحبّوا قتل انفسهم — فرّاً من الضيم ما كانوا مجانينا

وقوله يصف حال وطنه

ألا رعى الله اوطاناً لنا انتهكت — محبوبة السهل والوديان والكثب
قد أضرم الجورُ ناراً في جوانبها — واهلها بين نفّاخ ومحتطب

وعلى هذا المنوال ينسج في كثير من شعره السياسي القديم . وكجرأته جرأة زميله الرصافي ولاسيا قبل ان يؤمّ الاستانة ويشغل منصباً علمياً فيها . ومن قصائده الجريئة مخمّس طويل موضوعه « ايقاظ الرقود » جاء فيه : –

---

(١) راجع ديوانه (مصر ١٩٢٤) ٢٨٠ (٢) راجع ديوانه (مصر ١٩٢٤) ١٩٦
(٣) ديوانه اللباب (بغداد ١٩٢٨ ص ١٤)

حكومة شعبنا جارت وصارت علينا تستبدّ بما اشاوت
فلا احداً دعته ولا استشارت وكلّ حكومة ظلمت وجارت
فبشّرها بتمزيق الجلودِ
اقول وليس بعض القول جدّاً لسلطانٍ تجبّر واستبدّا
تعدّى في الامور وما استعدّا ألا يا ايها الملك المفدّى
ومن لولاه لم نكُ في الوجود
انمْ عن ان تسوسَ الملك طرفا الهُ ما تشتهي زَمْراً وعزفا
اطل نكر الرعية خلّ عرفا سُمِ البلدان مهما شئت خسفا
وارسل من تشاءُ الى اللحود

وتتجلى لنا هذه الجرأة ايضاً في قصيدته « رقية الصريع » التي مطلعها

ياعدلُ طال الانتظار فعجّل ياعدلُ ضاق الصبر عنك فأقبلِ
ومنها : كيف القرار على امور حكومةٍ حادت بهنّ عن الطريق الامثلِ

ومن هنا يأخذ بوصف فساد الادارة واستبداد الخليفة منادياً بسقوط الحكومة الفردية ووجوب استبدالها بنظام جمهوري او دستوري. ثم يقول غير هيَّاب

حتّامَ نبقى لعبةً لحكومة دامت تجرّعنا نقيع الحنظل
تنحو بنا طرق البوار تحيّفاً وتسومنا سوءُ العذاب الاهول
ما بالنا منها نخاف القتل إن قمنا أما سنموت ان لم نقتل ؟

وفي ديوانه الاول المطبوع سنة ١٩١٠ كثير من هذه الحملات العنيفة نظم بعضها في العهد الاستبدادي وبعضها في عهد الدستور . وقد صدق محي الدين الخياط اذ قال فيه[١] « من هؤلاءِ الافذاذ الذين فطروا على عدم الاستخذاء للضيم والتجافي عن مضاجع الذلّ وعدم الاستنامة للحوادث. وقد كان يقرع قومه في اشد ايام الاستبداد بمثل قوله » : —

عجيب لقوم يخضعون لدولة يسوسهم في الموبقات عميدها
واعجب من ذا انهم يرهبونها واموالها منهم ومنهم جنودها

(١) مقدمة الديوان الاول ص ١١

وهـذان البيتان من قصيدة موضوعها « تنبيه النيام » وهي خمسة وثلاثون بيتاً وكلها تنقد بمثل هذه النيران النفسية .

ومن الاحرار عبدالمحسن الكاظمي الذي اضطرّ الى هجر العراق وهو في العشرين من عمره هرباً من اضطهاد السلطات التركية[1]

وقـد كان في البلاد العربية العثمانية غير من ذكرنا من اصحاب الوجدان الحرّ والنزعة الثورية ولكنهم قلما كانوا يجرؤون على الجهر بما تكنّهُ صدورهم لحرص قلم المراقبة ان لا ينشر في الصحف او الكتب الا مـا يوافق مصلحة الحكومة ويشيد بذكر رجالها · فاجروا اقلامهم في غير الاصلاح السياسي وبلغوا في ذلـك كما سنرى بعد شأواً يذكر

***

« النعرة الشرقية في الادب الحـديث » ظهر لـنـا في العواطف الشعرية العربية السابقة لعهد الدستور بجريان رئيسيّان – المجرى العثماني (او الدعوة للعرش العثماني ورجاله) والمجرى الاصلاحي (او الحمل عـلى ذلك العرش ودعاته) . وظهر لنا ايضاً ان للاخير فرعين فرع المتطرّفين الداعين الى هـدم الكيان العثماني . وفرع المعتدلين القائلين بوجوب الانقلاب مع المحافظة على الجامعة العثمانية . والذي يلوح لنا ان هؤلاء هم الاكثرية بين الاصلاحيين وقـد كان هدفهم تجديد السلطنة ورفع مستواها لتكون وطناً حراً خليقاً بأن يحبّ ويفاخر بهِ . فالشرق والغرب عندهم لا يجتمعان ولا ينجي الشرقيين من براثن الاستعمار أو يحفظ كيانهم الشرقي الا العرش العثماني اذا قام عـلى اسس الحضارة الجديدة ومن الطبيعي ان يكون المسلمون عموماً أعطف على الدولة العثمانية وفيها خلافتهم ومجدهم . يدلـك على ذلك ما اظهروه في الحروب التي خاضتها قبـل الدستور وبعـده كحرب روسيا سنة ١٨٧٨ والحرب اليونانية ١٨٩٧ وحرب طرابلس ١٩١١ وحرب البلقان ١٩١٣ . بل وفي الحروب التي لم تخضها ولم يكن لهـا فيها مصلحة مباشرة كحرب روسيا واليابان (١٩٠٤ – ١٩٠٥)

ففي هذه الحرب كان العالم الاسلامي العربي بجانب اليابان لا لسبب الا لان اليابان دولة شرقية ثم هي تحارب روسيا عدوّة تركيا التاريخية . وقد اثارت هذه الحرب من العواطف الشعرية في ادبنا ما لا يجوز لباحث الاغضاء عنهُ . فمن ذلك قصيدة مشهورة

---

(١) راجع ديوانه ص ٦ و٢٩٩

لحافظ ابرهيم مطلعها : « لا تلم كفّي اذا السيف نبا » وفيها يقول مادحاً امبراطور اليابان (الميكادو) ووطنية شعبهِ

هكذا الميكادُ قد علّمنا ان نرى الاوطان اماً وأبا
ملكٌ يكفيكِ منهُ انه أنهض الشرق فهزّ المغربا

وكذلك قوله من قصيدة موضوعها « الانقسام آفة الشعب »

فانفضوا النوم وجدّوا للعلى فالعلى وقفٌ على من لم ينمْ
وانظروا اليابان في الشرق وقد ركزتْ اعلامها فوق الامم
حاربوا الجهلَ وكانوا قبلنا في دجى عميائهِ حتى انهزم
فاسألوا عنها الثريّا لا الثرى انها تحتلّ ابراج الهمم

وقولهُ من قصيدة « أساحةٌ للموت أم محشرُ » يشير الى ما نال الشرق من انتصار اليابان .

تسوءنا الحربُ وان أصبحت تدعو رجال الشرق أن يفخروا
أتى على الشرقيّ حينٌ اذا ما ذكر الاحياءُ لا يذكرُ
حتى أعاد الصّفر ايامهُ فانتصف الاسودُ والاسمر

ولعلّ قائلاً يقول ان شعر حافظ في الحرب الروسية اليابانية بل شعر مصر عموماً انما هو لما في نفوسهم من العطف على العثمانية لا لنعرة شرقية تستفزّهم الى تحدّي الغربيين . فنقول ان اليابان كانت يومئذٍ حليفة بريطانيا . وفي الاشادة بمحامدها نوع من الدعاية لبريطانيا . ومع كل ذلك لم يمتنع حافظ وزملاؤه[1] وهم من محاربي النفوذ البريطاني في مصر عن ان يستسلموا لعواطفهم الشرقية ويظهروا عطفهم على دولة شرقية برغم ما يربطها من الصداقة بمحتليّ مصر

واذا القينا نظرةً على غير مصر وجدنا ان الشعراء حتى الاحرار الناقمين على السلطة الحميدية يضربون على هذا الوتر الشرقي كما فعل الرصافي في قصيدته « معركة تسوشيا »[2] اذ قال :

سعروها في البحر حرباً ضروساً تأكل المال نارها والنفوسا

---

(١) كمصطفى الرافعي واحمد نسيم ومحمد عبد المطلب وسواهم
(٢) وهي معركة بحرية بين الاسطولين الروسي والياباني كانت نصراً باهراً لليابان

يوم طوغو[١] دهى بأسطوله الـــروسَ قتالاً وكان يوماً عبوسا
فحداها بوارجاً تملأ البحر وقـاراً طوراً وطـوراً بوســا
فكسوهم من الهوان لبوساً وسقوهم من المنون كؤوسا
هكذا شيدوا بناءَ المعالي هكـذا احسنوا لها التأسيسا

وللشاعر اللبناني امين ناصر الدين في الحرب الروسية اليابانية قصيدة[٢] موضوعها «الياباني ومعشوقته» جعل سداها ولحمتها شجاعة اليابان وحميتهم الوطنية وظفرهم الباهر ومن ذلك ما وضعه على لسان المجاهد الياباني : —

هجمنا على ميناء «ارثور» هجمةً تردّ ابن عام وهو بالخوف اشيبُ
ببيض يلوح النصر ابان جرّدت وسمر لها بين القلوب تقلّبُ
وكنا اذا انهلّ الرصاص كأننا من الغيد بالتفاح نرمى فنطربُ
وعدنا وهاتيك القلاع بأسرها مهدّمةٌ قد حلّ منها المركّبُ
ووقائعنا في البحر كانت عجيبةً ولكنها في لجة البحر اعجبُ

وهنا يصف معركة تسوشيا وانتصار طوغو ثم يقول : —

ورجّعت الاقطار صوت انتصارنا ففي الشرق هزّاج وفي الغرب ندّبُ

وقد اصاب الشاعر فان الشرق الادنى العربي او قل العثماني عرته هزة وطنية عامة على اثر انتصار اليابان وقد رددها الادب العربي عدة سنين بعد تلك الحرب . وكان كلما اراد انهاض الامم الشرقية ذكرها باليابان ونهضتها كقول كاتب هذه السطور سنة ١٩١١ من قصيدة موضوعها الحياة الجديدة في المشرقين[٣]

معاذ الله ان نبقى نياما يحيط بنا الظلام ولا ظلاما
ارى النيران تضطرم اضطراما وآسيّا تهبّ من الهجود

ونجم المجد في اليابان يسطعْ تخرّ لهم كواكبهم[٤] وتخضع
اضاء على الملا الشرقي اجمع وافهم جمعهم معنى الوجود

***

---

(١) اميرال الاسطول الياباني (٢) راجعها في صدى الخاطر (١٩١٣) ص ٣٤
(٣) راجعها في المورد الصافي م ٣ ص ١٧٣ (٤) الضمير في كواكبهم يرجع الى الغربيين

ولو اردنا تعداد القصائد والمقالات التي اثارتها هذه الحرب او ذكرياتها لضاقت بنا الصفحات الكثيرة[١]. وليس غرضنا من الاشارة اليها وضرب الامثلة عليها الا اثبات حقيقة قد تضيع في مطاوي الايام، او تذهب بذهاب الذين عرفوها بالاختبار وهي ان النهضة اليابانية التي بلغت اوجها في حرب ١٩٠٤ — ١٩٠٥ قد حركت عواطف الوطنيين في مصر والشام والعراق فظهر ذلك في ادبهم المنظوم والمنثور، وكان من الاسباب الممهدة لذلك الاتقاد الوطني الذي عقب اعلان الدستور العثماني فعزز الروح الشرقية في جميع الاقطار العربية[٢]

« عوامل اقليمية » بقي علينا في هذا المقام ان نوجّه النظر الى حوادث سياسية تركت في الادب صبغتها الخاصة. وهي كثيرة ومتفاوتة الاثر على ان اهمها اثنان وهما:

١ — حركة السنة الستين (١٨٦٠) في البلاد السورية وما عقبها من استقلال لبنان الداخلي[٣]. ولهذه الحركة في الادب العربي ظاهرتان كبيرتان — الاولى تأصيل الحزازات الدينية بين ابناء سوريا — تلك الحزازات التي كانت ولا تزال من اهم بواعث الشقاق في الشرق . والثانية انفصال لبنان عن السلطنة العثمانية بكيان سياسي خاص مضمون من الدول العظمى فصار اللبناني يشعر بكرامته الذاتية ويتذوق حلاوة الاستقلال

وفي تينك الظاهرتين تكوّن في نفسه ذلك الشعور الاقليمي المناوىء لحركة الوحدة العربية كما سيجيء.

ومن يراجع دواوين الادباء اللبنانيين في هذه الخمسين السنة الاخيرة يرى شيوع ذلك الشعور برغم جميع الوسائل التي كانت تستخدم لاضعافه . ولا ينكر ان بعض اللبنانيين قد اخذ بعد الحرب العالمية الاولى ينزع نزعة وطنية عامة ، إما تحت اسم القومية السورية وإما تحت اسم الوحدة العربية ، ولكن الشعور القديم الموروث عن آبائهم والمستمد من استقلال لبنان بعد السنة الستين لا يزال قوياً ، وسيظل الادب اللبناني مصطبغاً به مدة طويلة من الزمن

٢ — الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢ . وهو من الحوادث الاقليمية الكبرى

(١) من اهمها قصائد فارس الخوري في الحرب الروسية اليابانية وعنوانها «وقائع الحرب» وهي مطبوعة بمصر — المنار ١٠ — ٥٦ (٢) راجع ديوان مصطفى الرافعي ١ — ٢٦ وديوان احمد نسيم ١ — ١٣ (٣) راجع هنا قصيدة الخوري حنا رعد العاصي في مدح فرنسا — الآداب العربية في القرن التاسع عشر شيخو ١٠٦

التي تكاد لخطورتها ان توضع في مصاف العوامل العامة . ولا نتعرض هنا للبحث في اسباب الاحتلال او النظر في مساوئه وحسناته فذلك من خصائص التاريخ . ولكننا نقرر ان هذا الاحتلال كان مبعثاً لادب مصري عنيف ، وكان له صدى لا يزال يتردد في انحاء البلدان العربية

وبرغم تضارب الآراء فيه فاننا نرى ان اكثر الشعراء والخطباء في مصر كانوا ينظرون الى الاحتلال نظر العداء وينادون بالاستقلال والدستور. وقد ادّى ذلك الى احياء الشعور الوطني فيها ثم الى تدرجها في مراتب الاستقلال حتى بلغت ما بلغته في هذا العهد .

ولما كان هذا الادب المصري الوطني شديد الارتباط بما نشأ منه بعد الدستور فسنتركه الآن على ان نعود اليه مفصلاً في مقام آخر .

***

ومن هذه العوامل الاقليمية — حوادث ارمينية ، وحوران ، واليمن وكثير من حوادث العراق المحلية . ولما كانت غايتنا هنا وصف الاتجاهات العاطفية العامة فاننا نقف عند هذا الحدّ من الكلام على الشعر قبل الدستور تاركين العوامل المحلية لمن يحب التخصص فيها .

الشعلة الدستورية

سنة ١٩٠٨

وانقضاء العهد الحميدي

ذكرنا آنفاً ان عبدالحميد قد بدأ حكمه باعلان الدستور والحكم النيابي ولكن ذلك الدستور لم يلبث ان خنق في المهد. وعادت الدولة الى نظام الحكم الفردي فكان ما عرفناه من تفاقم الضغط السياسي والاضطراب الاجتماعي طيلة العهد الحميدي(١). ولعلّ الابيات التالية لولي الدين يكن ترسم لنا بوضوح صورة ذلك العهد. قال(٢)

يبكي بنوكَ ويضحك الزمن ... ماذا أصابك أيها الوطن
ما اوشكت ان تنتهي محنٌ ... الا وجاءَت بعدها محن
اما الرسوم فانها درست ... اما الرجال فانهم دفنوا
العصر راجت سوق باطله ... فالحقّ فيهِ ما له ثمن
يا قوم هبّوا من مضاجعكم ... طال المدى حتّام ذا الوسن

وما رآه ولي الدين في تركيا نفسها رآه جميل الزهاوي في العراق فقال من قصيدة موضوعها «نحن في غفلة»(٣)

نحن في غفلة نيامٌ وعنّا ... نائبات الزمان غير نيامِ
نحن في دولة تدار كما الله ... تبيح المحظور للحكّـامِ
وعدها بالاصلاح جمّ ولكن ... لا يجوز الاصلاح حدّ الكلامِ
نحن قوم قضت ارادة شخص ... واحد ان نعيش كالأنعامِ

---

(١) راجع وصف هذا الاضطراب في مقالات الانقلاب العثماني – الهلال م ١٧ ولاسيا ص ١٥٧ – ١٦٣ (٢) ديوانه (الطبعة الاولى) ٣٢ (٣) ديوان الزهاوي (مصر ١٩٢٤) ص ٢٩١.

ومن الطبيعي ان يصحب الاضطراب الاداري اشتداد العوامل الهدّامة من الخارج ومن الداخل. وقد صدق روحي الخالدي اذ قال[١] «فبسبب تشويش الادارة وتذبذبها لم يعد للحكومة قاعدة مطردة ولا أصول مرعية لا في سياستها الداخلية ولا الخارجية ولذا سقط اعتبارها عند الدول الاجنبية حتى تجرأوا على تهديدها في المسائل الطفيفة العادية وسقط اعتبارها أيضاً في نظر رعاياها وصار أكثر الموجودين منهم في الديار الاجنبية يأنفون من دخولهم في التابعية العثمانية». فلا عجب اذا رأينا ممتلكاتها البلقانية تنفصل عنها واحدة بعد واحدة فضلاً عن كريت وقبرص وسواها . وفي الشعر العربي اشارات كثيرة الى ذلك كقول الزهاوي[٢]

رعى الله شعباً أهملته رعاته   وملكاً كبيراً ركنه متزعزعُ
تقطّع منه كلَّ يوم مدينةٌ   وما الكفّ الا أصبع ثم اصبعُ

وكقصيدة في جريدة المشير مطلعها[٣]

ذهبت ويا للهول ارض كريد   بمصائبٍ هتكتْ ستار الغيد

وكلها طعن في عبد الحميد وسياسته التي ادّت — بزعم الشاعر — الى تجزئة المملكة وزعزعة اركانها . وكثيراً ما نرى هذه الاشارات الى ضعف السلطنة مقرونة بشعور الأسى والجزع كقول ولي الدين في منفاه الى سيواس[٤]

يقـــول احبتي صبراً   وهل في النار يصطبرُ
ونحـــن امامنا وطنٌ   نراهُ اليوم يحتضر
فمن يجزع فمعـــذورٌ   ولكن قلَّ من عذروا
فيا افق النهب حزناً   وجُـد بالدمع يا مطر

ففي مطلع القرن العشرين نرى السلطنة العثمانية بين المطامع الاوروبية والفساد الداخلي في موقف شديد الدقة . وكما تمكن الاحرار في مثل هذا الموقف سنة ١٨٧٦ من اعلان الدستور عادوا بعد اثنتين وثلاثين سنة تحت لواء «الاتحاد والترقي» فاضطروا عبدالحميد الى اعلانه والشروع في انتخاب نواب الامة . وهكذا كان يوم ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٠٨ يوماً عظيماً في تاريخ السلطنة العثمانية اذ تنادى زعماء الامة

(١) الهلال ١٧ - ١٦٣   (٢) اللباب ١٣   (٣) المشير ٢٧ فبراير ١٨٩٧ لاسعد حمادي   (٤) ديوانه ٥٦ . وراجع ايضاً قول الشبيبي ديوانه ٤

بالحرية والمساواة والاخاء فتجاوبت اصواتهم في انحاء البلاد وكان لها دويّ عظيم بين ابناء الشرق العربي .

« الاستبشار العام بالعهد الجديد » وباعلان الدستور سرت في نفوس العثمانيين عموماً وابناء العربية خصوصاً نشوة حبور لم يُعهد لها مثيل فعقدوا الحفلات الباهرة في الوطن وفي المهاجر . وانبرى خطباؤهم وشعراؤهم يشيدون بحسنات الانقلاب واعمال القائمين به[١]. ولا نبالغ اذا قلنا انه ما من حدث حرّك الاقلام العربية كهذا الحدث العظيم فقولنا قول من شهد بعينه تلك الحال وعرف باختباره شعور الناس وشاركهم في غبطتهم العامة وآمالهم الواسعة. خذ سوريا ولبنان مثلاً وراجع صحفها لذلك العهد فتدرك عمق ذلك الانفجار الادبي فيها . ويكفي ان نلمح هنـــا الى قصائد عبدالله البستاني ، ومحيي الدين الخياط ، وشكيب ارسلان ، والياس فياض ، ونقولا فياض ، وفارس الخوري ، وامين ناصر الدين ، وعبدالرحمن سلام ، ومصطفى الغلاييني ، وشبلي ملاط ، وبشارة الخوري ، وسواهم من شعراء الوطن ، وسعيد شقير ، واسعد رستم ، والشاعر القروي ، وشبل دموس ، ونعوم مكرزل وامثالهم في مصر والمهاجر الغربية. هذا فضلاً عن عشرات الاناشيد الوطنية والازجال العامية التي لبست من البيان مسحة لم نعهدها في عهود الاستبداد .

وما يصدق على سوريا ولبنان يصدق على العراق ايضاً. وهناك الزهاوي، والرصافي، والدجيلي ، والعبادي ، والشبيبي ، والهنداوي ، والازري ، والعُبيدي ممن شهدوا هذا الانقلاب وكان كلامهم معبراً عن عواطف الامة .

وقد رسم لنا الزهاوي يومئذٍ صورة لبغداد تُعدّ مثالاً صادقاً لجميع المدن العثمانية . قال[٢]

وقفت والعين تبكي من مسرتها ... امام شعبٍ من الافراح عجّاج
امام بحرٍ من الافكار مضطرب ... امام جيش من الاصوات رجراج
ان الشعوب اذا هاجت عواطفها ... كالبحر يضرب امواجاً بأمواج

ازاء هذه النعمة الدستورية نسي شاعرنا ما كان يثير اشجانه من مساوىء العهد

(١) قال المقتطف (٣٣ – ٩٠٥) كان لاعلان الدستور أعظم وقع في نفوس العثمانيين فعقدوا له حفلات باهرة في بلادهم وفي كل البلدان التي هاجروا اليها تلي فيها من الخطب والقصائد ما لو جمع لملأ مجلدات كثيرة

(٢) ديوانه (١٩٢٤) ٢٧٤

الماضي – عهد الظلم والجهل والفوضى – كما كان ينعته قبلاً، فقال والامل يملأ فؤاده[١]

البرق اهدى لنا بُشرى بها هدأتْ   ارواحنا بعد طول الخوف والرُّهبِ
بُشرى كما تبتغي الآمال صادقة   اجلّها الناس من قاصٍ ومقتربِ
لقد اقرّ لعمري اعيناً سخنتْ   ما ناله فئة الاحرار من اربِ

وقال آخر يصف شعوره وشعور الناس في احدى حفلات الدستور في بيروت[٢] «هذه اول مرة شعرت فيها بالوطنية التي يشعر بها كل من قدر الوطنية قدرها. يتزاور الناس من جميع الطبقات وهم فرحون منشرحو الصدور فاليوم شعر السوريون بطيب الحرية وادركوا سوء مغبّة الاستبداد والضغط وعرفوا ان التعصب الذي يفرق الكلمة يفرّق القلوب. اليوم دروا ان اوربا لم تستفحل صولتها الا بالاتحاد، ولا اتحاد مع التعصّب»

وليس في هذا الكلام شيء كبير ولكنه شعور الناس يومئذٍ. وقد كان ذلك الشعور يتدفق شعراً ونثراً على السنة كبار الادباء وعلى السنة صغارهم وكان للشعر العامي نصيب وافر منه ولاسيما في لبنان ومهاجره ومن امثلته قول احدهم ارتجالاً[٣]

يا اسلامْ ومسيحيّه   اسمعوا لي ها القضيّه
اهل الارضْ بطول وعرض   يقولوا تحيا الحريّه

***

اهل الارض بطول وعرض   يقولوا تحيا الحريه
فليحيا نيازي وانور   والجيوش الشاهانيه

***

اهل الارض بكاملها   من اولها لآخرها
توكيا الله يعمرها   بجاه رب البريه

***

بَطَل روح الاستبداد   نادوها بكل البلاد
زَمان الماضي ما بينعاد   الظلم نجومه مخفيه

وقد اشترك في هذا التهليل اشهر قوالي ذلك الحين كخليل الفغالي الشحروري

---

(١) ديوانه (١٩٣٦) ٢٧٥   (٢) جريدة لسان الحال ١ آب ١٩٠٨
(٣) الآداب في القرن التاسع عشر (شيخو) ٢ – ١٦٢

والياس الفران وسواهما . وللاول مخمس دعاه صوت الحرية ومطلعه :

صوت البري من قاع بوسفور العميق   لما وصل لله من اقوم طريق
المجد ظلل حزب توكيا الفتاة   وانتصر عهد الجديد على العتيق

* * *

المجد ظلل حزب توكيا الفتاة   والروح لبستها بعد ذاك الممات
والرب اوهبها علا ونصر وحياة   من بعد ما كانت حزينة بائسه
والمظالم راح بتخنقها خنيق

وقد ذكره الاب شيخو في منتخباته الدستورية. وكذلك ذكر « قرادية » للفران مطلعها :

كنت بأكبر بليه   بسجن العبوديه

وبعض اقوال المهاجرين فلتراجع[1]

ولم تقصر مصر في مشاركة سائر الاقطار العثمانية بهذا الابتهاج العام . على انه لا مناص للناظر المتعمق في الخوالج الشعرية يومئذ من ان يلمح هنا كما لمح من قبل شيئاً من التفاوت بين النزعة المصرية الصميمة وغير الصميمة . فبينا ترى الاخيرة تقرن الغبطة الدستورية بذكريات العهد البائد ومآثر رجال الاتحاد، وتحوم دائماً حول ما كان يقاسيه الناس من ظلم واضطهاد . ترى الاولى هزجة بالعرش العثماني داعية الى توثيق عرى الاخلاص له وقلما ترى فيها ما يشير الى اضطرابه او فساده، وحال الرعية في ابان استبداده . وهذه قصيدة شوقي في الدستور العثماني[2] ومطلعها .

بشرى البرية قاصيها ودانيها   حاط الخلافة بالدستور حاميها

فهي فيض من الحبور ، وبشرى وضاءة بمستقبل زاهر ستقر له عيون العثمانيين ولكنها عند التحقيق قلادة يضعها في عنق السلطان - اثنان وخمسون بيتاً اكثرها يدور على السلطان وعمله العظيم في اعلان الدستور من مثل قوله -

اسدى الينا امير المؤمنين يدا   جلَّت كما جل في الاملاك مسديها
وليس مستعظماً فضل ولا كرم   من صاحب السكة الكبرى[3] ومنشيها

(١) الآداب في القرن التاسع عشر (شيخو) ٢ - ١٦٠ - ١٦٣   (٢) الشوقيات ١ - ٢٥٨
(٣) اشارة الى السكة الحديدية الحجازية

إن الندى والرضى فيه واسرته | والله للخير هاديه وهاديها
خلافة الله في احضان دولتهم | شاب الزمان وما شابت نواصيها

بل هو يعزو الى عبدالحميد قبول الدستور راضياً مرضياً وانه لو أراد لرفضه وأحدث حرباً أهليّة عظيمة —

حقنت عند مناداة الجيوش بها | دم البريّة ارضاءً لباريها

وهكذا يجري في مدحه وتبيان فضله ولا يشير الا ببيت واحد فيها الى رجال الدستور. وفي نهايتها يهنىء العثمانيين ويشير الى حال مصر والى أماني المصريين فيقول —

ياشعب عثمان من تُرك ومن عربٍ | حيّاك من يبعث الموتى ويحييها
صبرت للحقّ حين النفس جازعة | والله بالصبر عند الحق موصيها
ما بين آمالك اللائي ظفرت بها | وبين مصر معانٍ أنت تدريها

ومثل شوقي حافظ ابراهيم في قصيدته «تحية الاخلاص»(١) للامة العثمانية الدستورية ففيها يمدح السلطان عبدالحميد لاعلانهِ الدستور ومدّه سكة الحجاز . ويستهلها بقوله —

انى الحجيج عليك والحرَمانِ | وأجلّ عيد جلوسك الثقلانِ
أرضيتَ ربّك إذ جعلت طريقه | أمناً وفزت بنعمة الرضوانِ
وجمعت بالدستور حولك أمّة | شتى المذاهب جمّة الاضغانِ

ومنها مشيراً الى سرور الناس بالحريّة —

ثلجت صدورهمُ وقرّ قرارهم | لما حلفت باوثق الأيمانِ
يا يومَ عاد النازحون لارضهم | يتسابقون لرؤية الاوطانِ
لله كم اطفأتَ من نارٍ ذكت | دهراً وكم هدّأت من اشجانِ
هذا يطير الى «فروق» ومن بها | شوقاً وذاك الى رُبى لبنانِ
خلعوا الشباب على البشير وأخلقوا | باللثم عهد خليفة الرحمن

وينحي باللائمة على شريف مكة ويحمل عليهِ وعلى أعوانهِ حملة شعواء . وفي القصيدة وصف للحرية معشوقة الجميع وذكر خاص لشهر تموز (يوليو) شهر الدستور وتمنّ أن يكون لمصر نصيب منه —

(١) راجعها في ديوانه (١٩٢٢) ج ٣ - ٢١

تموز أنت أبو الشهور جلالةً تموز أنت مُنى الاسير العاني
هلاّ جعلتَ لنا نصيباً علّنا نجري مع الاحياءِ في ميدان
ايعود منك الآملون بما رجوا ونعود نحن بذلك الحرمان

وهي تدعو الى الوئام والاتحاد في ظل الهلال

وعلى غرار شوقي وحافظ أكثر نفثات المصريين الدستورية[1]. ومثلها ما نراه في الادب الجزائري والتونسي. ويقابلها من الجهة الاخرى نفثات الذين ذاقوا مرارة العهد الحميدي: ففيها كما أسلفنا يقترن الحبور بذكر الماضي، كما ترى في شعر ولي الدين يكن ومنهُ قصيدة في افتتاح البرلمان العثماني يقول فيها[2]

بالامس كنا معشراً تبكي لحالتنا المعاشرْ
تقتادنا الايدي الاثيمةُ للسجون وللمقابرْ
ويصول انصار المليك على الاكابر والاصاغرْ

ومنها مشيراً الى المجلس النيابي: —

لله قصرٌ شامخٌ مدّ النواظر عنهُ قاصرْ
قصرٌ بهِ يعلو التسا وي راس مأمورٍ وآمرْ

وتجيش عاطفة الشكر في نفسهِ فيقول

يا دهر شكرك واجبٌ يا دهرُ ما في الناس كافرْ
لم يبقَ ظلمٌ يتّقى دارت على الظلم الدوائرْ

هذا الميل الى مقابلة العهد الحاضر بالعهد البائد — الى ذكر المساوىء التي كانت تزعج الناس وتؤلمهم تعظيماً لحسنات الدستور وبثّاً لما كانت تكظمهُ الصدور تراه شائعاً في المنظومات الدستورية خارج الحلقات المصرية. وقد ذهب الشعراء في ذلك كل مذهب وهاموا في كل واد. ولا بدع فهم يعبّرون عن شعور امة كانت ترسف بقيود الذل فجاءَها فجأة من حطّم تلك القيود، واطلقها حرّة تنعم بسعادة الوجود. ولو اردنا ضرب الامثلة على هذه الظاهرة الروحية لملأنا صفحات عديدة من قصائد

(١) راجع خطبة الشيخ علي يوسف (المطبعة الادبية بيروت ١٩٠٨)
(٢) ديوانه (١٩٢٦) ٥٦

الشعراء وخطب الخطباء ولكننا نكتفي هنا بأنموذج منها . وهو ابيات من قصيدة لسعيد باشا شقير قال فيها يخاطب الجند الذين تمّ على ايديهم اعلان الدستور

اليوم نمرحُ احراراً بفضلكمُ   نغدو ونمسي ولا همٌّ ولا نَصَبُ
قد اطلق الحرّ من سجن اهين به   وعاد للوطن المحبوب مغتربُ
فلا جواسيس نخشى من وشايتهم   ولا جرائد تأتينا فترتعبُ
ننام في الليل لا الاحلام تقلقنا   وننهض الصبح لا خوفٌ ولا رعبُ
كم بين حال اتتنا كلها طربٌ   وبين حالٍ عدتنا كلها رَهَبُ

ومثلها قول نقولا رزق الله من قصيدة مطلعها[1]

يا ايّها الناس حيّوا ذلك العلما   وسبّحوا مانح الحريّة الأمما

وفيها يطلب من الناس مناصرة عصبة الاحرار الذين احيوا البلاد ، وحرّروا العباد والدعاء لهم بالبقاء حتى تدوم للوطن هذه الآلاء. ثم يلتفت الى العهد الماضي فيقول

سوّاكمُ العدل اخواناً سواسيةً   فليس يُظلم فيكم غير من ظلما
وليس يقصى اديبٌ عن مواطنه   ولا يضام عليم قال ما علما
ولا يكافأ ذو مالٍ لثروته   ولا يجازى فقير فقره اثما
ولا يقوم على الذلّ العزيزُ كمن   قد شفّه الداء حتى عاشر السقما
لا يعبثنّ بحقٍّ من حقوقكم   ذو سلطةٍ جائرٌ مهما علا وسما

ومثل هذه الروح تظهر في الحفلات التي اقيمت لعيد الحرية سنة ١٩٠٩[2]

* * *

وسواء اكان الشعر العربي ممالئاً للعرش العثماني ام غير ممالىء فان الدستور القى عليه عموماً مسحة ظاهرة من الزهو والاستبشار اذ فتح للناس ابواب الرجاء فأصبحوا ينظرون الى المستقبل نظر الوثوق والتفاؤل . وكان الدستور عندهم شعار السعادة الفردية والقومية ومفتاح الرقيّ الاقتصادي والاجتماعي . شعور لذيذ هزّ القلوب حيناً ولكنهُ لم يطل

(١) الهلال ١٧ - ١٧٢
(٢) راجع من ذلك « عيد الحرية » لامين ناصر الدين في صدى الخاطر ٩٢

« خلع عبدالحميد » والذي يلاحظ من دراسة الشعر ان هذا الحبور العام الذي عقب اعلان الدستور كان في اول الامر مقروناً بالثناء على عبدالحميد . ذلك لان الذين احدثوا الانقلاب لم يمسّوا بادىء ذي بدءٍ عرشهُ فظلّ حيناً يتمتّع بنفوذ عظيم . على انهُ لما حدثت الفتنة الرجعية سنة ١٩٠٩ رأى الدستوريون ان في بقاء ذلك السلطان خطراً على نظامهم فخلعوه في ٢٧ نيسان من تلك السنة واجلسوا على العرش اخاه محمد رشاد . وبخلعهِ مرّت هزة شعرية لا تقلّ عن هزّة الدستور : فتفجرت القلوب بما كانت تكنّهُ لشخصهِ ولعهده ، واخذ الشعراء في سوريا والعراق والمهاجر يتبارون في تعداد مساوئهِ . ومن امثلة ذلك قصيدة لفارس بك الخوري[١] مطلعها

الله اكبر فالظلامّ قد علموا لايّ منقَلَبٍ يُفضي الاولى ظلموا
لقد هوى اليوم صرح الظلم وانقضت اركانهُ وتولّت اهلهُ النِّقَمُ

ومنها يخاطب عبدالحميد ساخراً بهِ ذاكراً مجد اسلافه

شادوا لك العزّة القعساء من قدمٍ فجئت تهدم ما شادوا وما رسموا
كانت لهم دولةٌ بالسيف ناهضةٌ وفي زمانك لا سيفٌ ولا قلمُ
حصدت ما زرعوا فرّقت ما جمعوا هدمتَ ما رفعوا بعثرت ما نظموا

وهي طويلة وكلها من هذا النفس البليغ . واشد منها تشفياً قول احد شعراء المهجر من قصيدة نشرتها جريدة مرآة الغرب[٢]

مضى عبد الحميد الى مكان رمتْ فيهِ أم قشعمٍ الرحالا
مضى وله بفعل الشر ذكر محا ذكر الالى كانوا مثالا
مليكٌ قد تسربل بالمخازي وعمّ الارض غدراً واحتيالا
امير المؤمنين دعوه زوراً فكان الذنب لم يعرف حلالا
عدوّ الدين والاسلام هلاّ علمت بانّ في الدنيا زوالا

وللمعروف الرصافي في ديوانه قصيدة معروفة يصف فيها زحف الجيش من سلانيك على الاستانة وخلعهم عبدالحميد تأييداً للحرية وحفظاً للدستور . ومطلعها —

لقد سمعوا من الوطن الانينا فضجّوا بالبكاء له حنينا

(١) راجع القصيدة في المقتبس ٦-١٣٧ (٢) الآداب العربية في القرن التاسع عشر (شيخو) ١٨٥

ونادام لنصرته فقاموا جميعاً للدفاع مُسلّحينا

ومنها مشيراً الى زحف الجيش وارغامهم أنوف الرجعيين —

أتينا دار قسطنطين صبحاً وقد فتحت لهم فتحاً مبينا
وظلّ الجيش جيش الله يشفي بحدّ سيوفه الداء الدفينا
فأرهق انفس الطاغين حتى سقاهم من عدالته المنونا
وحطوا قصر يلدز عن سماءٍ له فانحطّ أسفل سافلينا
هوى عبد الحميد به هويّاً الى درك الملوك الظالمينا

وفي ختامها — واسقط ذلك الجبّار قهراً وأنبأه بصارمه اليقينا
فقرّت أعين الدستور أمناً وشاهت أوجه المتمرّدينا

وله في ذلك قصيدة اخرى اسمها « وقفة عند يلدز » وهي لا تقلّ عن اختها مضاءً. وفيها يخاطب الشاعر قصر يلدز بعد ان سقط صاحبه (عبد الحميد) وارسل سجيناً الى سلانيك ، فيذكر ما كان له من مساوىء ومظالم ويختم القصيدة بنفثة فخريّة حماسيّة فيقول —

إنما نحن امةٌ تدرأ الضيم ولا تستكين لوالِ
امّة سادت الانام وطابت عنصراً من اواخرٍ واوالِ
فاذا ما علا الغشوم نهضنا فقذفناه سافلاً من عالِ
نحن من شعلة الجحيم خلقنا لأولي الجور لا من الصلصالِ

وهنا تحمله الحماسة الى اقصى مدى فيهدد طغاة الانام جميعاً منذراً إياهم بسوء المصير فيقول —

يا ملوك الانام هلاّ اعتبرتمُ بملوكٍ تجور في الافعالِ
فاتركوا الناس مطلقين والا عشتم موثقين بالاوجالِ

وعلى هذا الغرار كثير من ادب ذلك العهد[1]

***

تلك كانت عواطف الشعر العربي في العراق والاقطار السورية والمهاجر . اما في

(١) راجع الكاظمي في كتاب آداب العصر لسعد ١٨٣ والقروي في ديوانه الرشيديات ٩١ ووديع عقل في ديوانه ٨٥ . وبشاره الخوري — في الآداب العربية لشيخو باب الحماسة الدستورية

مصر او في الاوساط المصرية الاصيلة فمن الطبيعي ان لا نتوقع هذا الاندفاع في الحمل على عبدالحميد والتهليل لسقوطه . فالمصريون او بكلمة اصح فالشعر المصري قد قابل خلعه برعشة مقرونة بالعطف والشفقة . وذلك على ما يظهر لسببين رئيسيين . (١) لما ذكرناه سالفاً من ان المصريين الحديثين لم يذوقوا من الادارة الحميدية ما ذاقه اخوانهم في الاقطار الاخرى . (٢) لانهم كانوا ازاء احتلال اجنبي قد اثار حفائظهم الدينية والجنسية فليس من الوفاء الوطني وقد جاهروا مراراً بودتهم للعثمانية ان ينقلبوا على الخليفة الآن ويحطوا من شأنه امام الاجانب وقد كانوا الى الامس يعظمونه ويدعون له. فليس غريباً اذن ان تظل علاقتهم بعرش الخلافة حية فعّالة ، وان يكونوا اعطف على الهاوي عنه واقرب الى الصفح عن سيئاته. وعلى ذلك نرى شوقي يقول في قصيدته « سل يلدزا ذات القصور »[١]

خطبُ الإمام على العظيم يعزّ شرحاً والنثيرِ
شيخ الملوك وان تضعضع في الفؤاد وفي الضمير
نستغفر الله لهُ والله يعفو عن كثير
ونراه عند مصابه اولى ببباكٍ او عذير

وانظر الى روح العطف كيف يظهر في قوله مخاطباً عبدالحميد

عبدالحميد حساب مثلك في يد الملك الغفورِ
ماذا دهاك من الامور وانت داهية الامورِ
دخلوا السرير عليك يحتكمون في ربِّ السرير
اعظِم بهم من آسرين وبالخليفة من اسيرِ

وكما كان طبيعياً ان يتلبس شعر شوقي بثوب الوفاء للسلطان والعطف عليه كان طبيعياً ايضاً ان نرى شاعراً كولي الدين ذاق ما ذاق من اهوال الاستبداد يعارض قصيدة شوقي فينظم قصيدة[٢] على وزنها ورويّها منددًا بعبد الحميد معدّداً سيئات حكمه كقوله : —

ان الثلاثين التي مرّت بنا مرّ العصور
وهبتك تجربة الامور فعشت في جهل الامور

(١) الشوقيات ١ - ١٣٦ (٢) ديوانه ٣٠

من كان يدعوك الخبيرَ فلست عندي بالخبيرِ

ويقول مشيراً الى شوقي وطبقته متألماً من عطفهم ومسيئاً الظن بعواطفهم

لما اديل عن السرير بكاه عبّاد السريرِ
أسفوا عليهِ وانمــا أسفوا على المال الدريرِ
طلبوا لهُ عفو الغفور وشذّ عن عفو الغفورِ

وما نراهُ في شعر شوقي نراهُ في شعر حافظ واسماعيل صبري واحمد نسيم وسواهم ويشارك مصر في هذا العطف سائر الاقطار الافريقية[1] ونود ان نشير هنا اشارة خاصة الى قصيدتين لحافظ[2] فالاولى مطلعها

لا رعى الله عهدها من جدود كيف امسيت يا ابن عبد المجيدِ
ومنها – شمت المسلمون قبل النصارى فيك قبل الدروز قبل اليهودِ
شمتوا كلهم وليس من الهمّة ان يشمت الورى في طريدِ
انت عبد الحميد والتاج معقودٌ وعبد الحميـد رهن القيودِ
خالدٌ انت رغم انف الليالي في كبار الرجال اهل الخلودِ

وهذه القصيدة ، برغم ما يتخللها من ذكر بعض المساوىء الحميدية ، مرتبطة بشعور واحد هو شعور العطف والوفاء لخليفة

ولي الامر ثلثَ قرنٍ ينادي باسمهِ كلّ مسلمٍ في الوجود

على انّ هـذا العطف اخذ يخفّ في شعر حافظ وها نحن نراه في العيد الدستوري الاول ينشد قصيدته التي مطلعها «اجل هذه اعلامه ومواكبهُ» فيذكر محامد الدستور ومآتي محمود شوكت ونيازي وانور . ويقف على يلدز واصفاً ما اصابهُ ، معدداً اوهام صاحبه واخطاءه ثم يقول

سلوه أأغنتْ عنهُ في يوم خلعهِ عجائبهُ او احرزتهُ رغائبه
واخرجهُ من يلدزٍ ربّ يلدزٍ وجرّده من سيف عثمان واهبه
واصبح في منفاه والجيش دونهُ يغالبُ ذكرى ملكه وتغالبه
يناديهِ صوت الحقّ ذق ما اذقتهم فكلّ امرىءٍ رهن بما هو كاسبه

(١) راجع ديوان مصطفى آغا ٨٣ (٢) راجعها في ديوانه (١٩٢٢) ٢ ص ٣٠-٤٦

مضى عهد الاستبداد واندكّ صرحهُ وولّتْ افاعيهِ وماتت عقاربه

واذا تابعنا حافظاً في قصيدته هذه التي نظمها بعد خلع عبد الحميد بنحو ثلاثة اشهر وجدنا ان تحوّل عطفه عن ذلك السلطان لم يخفف من ولائهِ للعرش العثماني والخلافة الاسلامية فهذا العيد يستخفهُ لمدح السلطان الجديد محمد رشاد وتعظيم عرشه فيقول —

لتهني امير المؤمنين محمداً خلافتهُ فالعرش سعدٌ كواكبه
ستملك امواج البحار سفينه كما ملكت شمّ الجبال كتائبه
ممالكه محروسة وثغورهُ ركائبه منصورةٌ ومراكبه

الدستور

والروح الوطنية

مما ذكرناه آنفاً يتضح ان ما تدفق به الشعر الدستوري من عواطف الحبور والتهليل راجع بالاكثر الى ما نشأ في نفوس العثمانيين عموماً والعرب خصوصاً من ايمان ثابت باخلاص الدستوريين ورجاء حيّ بحسن المصير . فكنت تراهم على شبه يقين من انهم اصبحوا ابناء لدولة عظيمة تحبهم وترغب في تقدمهم

ذلك الايمان وذلك الرجاء بعثا في الشرق العربي روحاً جديدة ايقظت القلوب واضرمت فيها الشعور بالفخر والكرامة الذاتية فألبست الادب حللاً قشيبة من الجمال . وقد ظهر ذلك في مظهرين رئيسيين هما الاعتزاز بالوطنية، والدعوة الى الاتحاد القومي . واليك البيان مما اختبرناه بأنفسنا وعرفناه من اختبار الآخرين

« الاعتزاز بالوطنية » اشرنا في فصل سابق الى ما كان للحرب الروسية اليابانية ١٩٠٥ من اثر في تخمير الشرق العربي بروح الكرامة الشرقية . وقلنا ان ذلك لم يكن الا سبباً تمهيدياً لحركة اعمق واوسع نطاقاً . وقد بدات هذه الحركة فعلاً عقب اعلان الدستور . وسنرى كيف تطورت مع الزمان . وكيف تغيرت اشكالها في شتى البلدان .

ولا يخفى ما كان للاجانب في السلطنة العثمانية من نفوذ سياسي واقتصادي وفكري . فهم اصحاب الامتيازات وفي معاهدهم نشأ سواد المتعلمين ، فلا بدع ان يتولد في نفس الشرقيّ ازاءهم ما يسميه علماء النفس بمركب النقص او بالصغار الذاتي[1]، حتى صار عند الجمهور كل شيء غربي افضل من كل شيء شرقي ، تاجرهم اصدق ، وعالمهم اعلم ، وصانعهم احذق ، بل وعنصرهم اشرف وارقى . وجرى ذلك بين الناس في الشرق العربي والفوه حتى صار جزءاً من كيانهم النفسي . على ان النهضة العلمية اخذت منذ

---

(١) مقابلة للتعبير الانكليزي Inferiority Complex

القرن الماضي تعمل على اضعاف هذا الشعور، فنشأ بين المفكرين من اثار على «الصغار الذاتي» حرباً شعواء داعياً الناس الى احترام النفس واكرام الوطن. كقول احدهم[١] «كيف نؤمل نجاح صناعتنا وتأخر صناعتهم في بلادنا حال كون كل عربي يمدح صناعتهم ويطعن في صناعة بلاده، ويفضل ما كان افرنجياً مهما كان». وقد نظر الكاتب هنا الى الوجهة الاقتصادية وهاله ان يرى تأخر الوطني لتأصل فكرة سقيمة فيه. ومنهم من نظر الى الوجهة الاجتماعية او الروحية فآلمه ان يرى ما يسود الناس من اعتقاد بأفضلية الغربي وتفوّقه الفطري على الشرقي. فقال[٢] «ام لا ترى انك لو عنيت بأمر قومك عنايتك بالاجنبي تقوم بأمره وتولع بشكره، لما لبثت ان ترى منهم من يبلغ شأوه وان كان رفيعاً، ومن يدرك سعيه وإن كان سريعاً»

وعرف الغربيون ذلك الشعور في الشرقيين فاستغلوه بل تمادوا في استغلاله حتى صاروا لا يتورّعون عن التشامخ على بني الشرق وامتهانهم في عقر دارهم. فمن الطبيعي ان يولد ذلك في نفوس الأباة من الشعراء والكتبة «ردّ فعل» يظهر في منظومهم ومنثورهم كما ترى في قصيدة للزهاوي قالها قبل الدستور ومنها[٣]

كفى الغرب فخراً انه متقدّم وان له مالاً به يتنعم
وانّ له في البرّ جيشاً عرمرماً يماثله في البحر جيش عرمرم
ترقّى فلما اشتدّ ساعده عتا وبات يغيظ الشرق والشرق يكظم
يطيل على اجحافه بحقوقه سكوتاً كأنّ الشرق ليس له فم
فيا أيها الغرب المدلّ بنفسه رويدك ما هذا الغرور المذمّم
أتزعم ان الشرق يلبث صاغراً أمامك مغصوباً وأنت المكرّم
وتبقى عليه هكذا متسيطراً تمصّ دم الاموال منه وتهضم

والقصيدة حوالي ثلاثين بيتاً وكلها على هذا النسق من التبرّم بهذه الحال ويتخلّلها فخر بالماضي وأمل بالمستقبل. وعلى هذا النسق اقوال كثيرة[٤]

وظلّ الامر كذلك الى اوائل القرن الحالي حين أخذت الحضارة الجديدة تعمّ البلاد وحين توفّر الشرقيون على دراسة العلوم الحرّة، فعرفوا ما لهم وما عليهم.

(١) سليم البستاني. مجاني الغرر (١٩٠٦) ١٠٠ (٢) أديب اسحق في الدرر ١٢٨
(٣) ديوانه (١٩٢٤) ٢٩٣ (٤) راجع ديوان احمد نسيم ١ - ١٣ و٧١ وديوان مصطفى الرافعي ١ - ٢٦ ومتفرّقات في ديوان محمد عبد المطّلب

وكبرت نفوسهم فصارت الطبقة المثقفة منهم تشعر بوجودها، فيسوؤها ما تراه في الوطن من اثرة أجنبية وتحاول القضاء عليها بشتى الوسائل ولاسيما باحياء الروح الوطنية . على انها كانت تصطدم بالامتيازات الاوربية . ويفتّ في عضدها خنوع الدولة للاجانب وجهل العامة معنى احترام النفس والوطن. وقد زاد الطين بلّة تلك النعرات الطائفية وما ولدته من ضغائن ومخاوف ، مما فتح الباب لتدخل الاوربيين بحجة حماية الاقليات، وبالتالي لازدياد نفوذهم الروحي والسياسي وشيوعه في جميع انحاء الشرق

فلما اعلن الدستور وارتفع الضغط المضني عن الالسن والصدور ، اتّقد الشعور الوطني اتقاداً لم يعهــد من قبل واخذ الادب العربيّ يتغنّى بالقومية تغنيــاً غريباً اشتركت فيه جميع العناصر والطوائف . وقلما كانوا لا يفرقون يومئذ بين الكرامة الشرقية والكرامة العثمانية ،بل ذهبوا الى ابعد من ذلك في حماستهم الدستورية فقلبوا للاجانب ظهر المجنّ ورفعوا الهلال العثماني الى اوج التعظيم .

وقد كان شيء من ذلك قبل الدستور ولكنه لا يقاس بما وصل اليه بعده والذين ادركوا ذلك العهد لا ينسون قط تلك الهبّة القومية التي كان لها في نفوس الشبيبة فعل المسكرات فأثملتهم حتى نسوا مساوىء العهد السابق ، واطلقوا لاقلامهم والسنتهم العنان فجرت في هذا المضمار جري السوابق. فلا تستغرب اليوم اذا قرأت لاحد ادباء بيروت المسيحيين الاصلاحيين قوله من خطاب القاه في الاسكندرية[1]: —

« ليبتهج العثمانيون فقد نشر الدستور ، وجاءَ اليوم الذي التمّ فيه شعث الامة العثمانية وتآلفت اعضاؤها ، وتآخت اجزاؤهــا . فكلنا بنعمة الدستور عثمانيون — عثمانيون لا نعرف غير هذا اللقب لقباً ، ولا نتخذ سواه نعتاً . عثمانيون قبل كل شيء. عثمانيون طول الحياة . عثمانيون مذهبنا الحرية وشعارنا الوطنية وفخرنا الراية الهلالية وملجأنا الدولة العلية »

ومثله ما جاءَ في لسان الحال من افتتاحية[2]: ـقال الكاتب يصف حالتنا الاجتماعية والروحية قبل الدستور ويقابلها بما صارت عليه بعده — « لم يكن حالنا حال المريض فقط . بل لا نجازف اذا قلنا اننا كنا قد بلغنا حال المحتضَر . وطال هذا الدور (اي دور الاحتضار) الى ان اتانا الدرياق فنشطنا من عقال الخمول ووثبنا وثبة الاسد من العرين » وبعد ان يصف هذه النهضة يشير الى علاقة الوطنيين بالاجانب فيقول (وهو

(١) خليل زينيه جريدة الثبات ١ عدد ٦ (٢) عدد ٣٦ تشرين اول : اكتوبر ١٩٠٨

من المعروفين باعتدال المنهج) — « وسيرى الغريب من الفرنجة وغيرهم كيف يعاد مجد الامم وتتجدّد حياتها بقوة افراد رجالها »

وقال احد الكتبة المسلمين[١] واصفاً ما كانت تقاسيه الدولة من السياسة الاوربية — « ان الدول كانوا يواصلون الضغط على جسم المملكة العثمانية ويضاعفون السعي لايقاع الشلل في عروقها الكثيرة التشعب . ولكن قضى ربك ان يردّ كيد اولئك المتسابقين الى نهش هذا الجسم المتضعضع الى نحرهم ، وتعود العثمانية بفضل الدستور قوية الشكيمة تقف في وجوههم وقفة الرئبال لا جزعة ولا فزعة »

وعلى هذا المنوال نسج كثير من المقالات والخطب وكلها تشير الى ما كان يملأ النفوس من النقمة على الاجانب او على الاقلّ من الامل بنهوض الدولة فيسترد ابناؤها (الترك والعرب على السواء) مجدهم الغابر ولا يضطرون بعد ان يقفوا امام الاجنبي وقفة الضعيف امام القادر .

اما الشعر فحدّث عن انقياده الوطنيّ ولا حرج . فيهِ اشتركت جميع الاقطار العربية والمهاجر حتى لبنان فانه برغم استقلاله الذاتي ورغم اتجاهه نحو الغرب علقت بهِ شرارة من ذلك اللهيب فكان من ابنائهِ في الوطن والمهجر شعراء يزجون بتعظيم الانقلاب والاستبشار بهِ ، ويهللون للعرش العثماني وابطال الحرية . ومن اراد الاطلاع على ما قيل في هذا الباب فليرجع الى الصحف العربية في العامين ١٩٠٨ و١٩٠٩[٢]

ومما لا ريب فيهِ ان الشعر الدستوري في السنتين المذكورتين مفعم بروح التفاؤل شديد الحماسة للكرامة الشرقية والجامعة العثمانية . سواء في ذلك المسيحيّ والمسلم ، الناقم على سياسة عبد الحميد او غير الناقم . ومن امثلته هذان البيتان لسعيد شقير من قصيدته المار ذكرها —

لازلتَ يا جيشنا فخراً لامتنا وحظّ اعلامك الامجاد والغلبُ
نرقى المعالي وتركيا لنا وطنٌ للعزّ والمجد فيها ترفع القببُ

والابيات التالية من قصيدة للدكتور نقولا فياض[٣]

يا بني عثمان إنا امةٌ اصبحت موضوع اعجاب الامم

(١) طه المدور في لسان الحال ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٠٩

(٢) راجع خصوصاً المشرق (بيروت) (٣) راجعها في مجلة الهلال ١٧ — ٨٧

سيعيد العدل تاريخاً لكم طبع المجد به منذ القدم
في حمى جيش عزيز باسلٍ واسع النعمة كشاف الغمم

وبعد ان يصف حماة الدستور الاحرار وافعالهم المجيدة وخوالج الامة يلتفت الى الغرب وعلاقته بتركيا فيقول : —

قل لاهل الغرب عنا حسبكم ان للاتراك بأساً وكرم
حرّروا الشرق وذي افعالهم جدّدتْ صبوته بعد الهرم

وكأنه يرى ما كان يراه كثيرون من انّ الاجانب سبب التفريق بين الشرقيين فيقول :

ولمن يطمع في تفريقنا كان للتفريق عهدٌ وانصرمْ
غير دين الحب لا دين لنا نحن في البؤس سواءٌ والنعمْ

ولعل الابيات التالية تمثل نزوات الشباب الوطنية عهدئذٍ وعصبيتهم الشرقية الثائرة . وهي من قصيدة تليت يوم افتتاح « المبعوثان » (البرلمان العثماني)[1] وتصف تألم الشرقيين من غطرسة الغربيين وشعورهم ان العهد الجديد سيضمن للشرقي حقوقه وكرامته . تبدأ بذكر ما كانت عليه مصر وسوريا وما كان يعانيه اباة الضيم فيهما وفي سائر الاقطار العربية من صلف الاجانب حتى يحمل الناظم شعوره الى قولهِ : —

أترتضي الذلَّ من أيدٍ نقبّلها كأنها للهدى والدين معتصَمُ
ونحن نحقر في القطرين سيدنا ونكرم الزعنف الصعلوك بينهمُ
داءٌ سرى في دم ابن الشرق فانقلبت أهلوه لا همٌ فيهم ولا شيَمُ

ويتقدّم من هنا الى ذكر الانقلاب الدستوري وانبثاق النور الجديد من العرش العثماني وان هذا النور سيجلو ظلمات الهوان عن البلاد وسيربطهم معاً برابطة الوطنية الحقة والولاء لصاحب العرش . ثم يلتفت الى الغرب فيقول متحمساً

لظًى من النيل للدانوب متقدٌ الى العراق الى البحرين ملتهمُ
ان يكرمونا فان الشرق يكرمهم او يحقرونا فان الشرق منتقمُ

ومما يلاحظ ان هذه الحماسة كانت شديدة الاتقاد في شعراء المهاجر . كقول احدهم[2]

(١) للمؤلف سنة ١٩٠٨ (٢) اداب القرن التاسع عشر شيخو ٢ — ١٢٣ (١)

حسب الغرب هبّة الشرق نوماً ورماها بأنهـــا وهميّـــه
كذب الغرب ان في الشرق قوماً بشفار الصمصام شقّوا الدجيّه

وليس ما قدّمناهُ الا نماذج قليلة من الشعر الوطني الذي انشأه الامل الدستوري في الاوساط الادبية المسيحية، فما قولك بالاوساط الاسلامية وما نشأ فيهـا من حماسة شعرية وما اثارتهُ من عواطف قومية والمسلمون عموماً اكثر ميـلاً الى العثمانية واشدّ نفوراً من السيطرة الاجنبية

ومن الخطأ الفادح ان يُساء الظن بتلك العواطف الوطنية وان يقال انها لم تكن الا من قبيل التزلف او المداهنة . قـد تكون عواطف مغترّ او سكران ولكنها كانت يومئذ تخرج من قلوبٍ كان كثير منها طافحاً بالامل والاخلاص. واليك تزكية لذلك قول استاذ عرف ببعد نظره وتروّيهِ في الامور . فقـد نشر لهُ المقتطف خطبةً اختارها من بين كثيرٍ من خطب ذلك العهد اذ رآها من ادلّ ما انشىء في وصف تلك الحالة(١). وقد جاءَ فيها وصف دقيق لحالة العثمانيين قبيل الدستور كقولهِ — « كنا منذ بضعة اسابيع والصدور ضائقة بمـا فيها والنفوس واجمة من هول ما ترى من موقفها ، والعقلاء النزهاء لا يدرون ماذا يصنعون ولا ماذا يقولون . وكأنما اطبقت عليهم السماء او سدّت عليهم منها منافذ الرحمة . وبينما نحن في هذه الظلمة المدلهمة وفي حالٍ من اليأس والقنوط ما شهدنا مثلها ولا آباؤنا الاولون سطع علينا بغتة نور القانون الاساسي فأشرقت على آثاره شمس الحرية الشخصية والحرية القومية والحرية الفكرية الادبية » ثم يتقدّم الى شرح معنى الدستور وتأثيره حتى يصل الى قولهِ — « ترون مما ذكرته في بيان حقيقة الدستور اني لا ارى ان افراحنا بهِ صبيانيّات تافهـــة ولا احتفالاتنا ومظاهراتنا الخارجية تكرمةً له وحماته تهوّسات ضارة . بل هي مهما بلغت مع القصـد والحكمة قليلة في جنب اهميته ومقدار قيمته . وايّ قيمة اعظم من قيمة الحياة — حياة الفكر والقول والعمل المشروع للفرد ، وحياة العزة والقوة والتوازر والاستقلال والاستبسال للامة . فمن اراد الحياة فليقل ليحي الدستور العثماني والقائمون بهِ ومن اراد الموت موت الذلّ والصغار والاستعباد فلا رحمه الله . وليمت هـــذا الشخص من بين جماعة العثمانيين الحرّة »

(١) المقتطف ٣٣ — ١٩٠٥ للاستاذ جبر ضومط

وقد شعر الاستاذ كما شعر اكثر العقلاء يومئذ بطغيان ذلك التيار الوطني وخشي كما خشوا ان يقود الى الغرور والتهوّر او ان يستغله اهل المآرب فناشد الناس قائلاً « دعوا التسرّع فان تسرّعكم لا يفيدنا الآن وان كنتم اخلص المخلصين واغير اهل الغيرة الحقة على شرف العثمانية ومصلحة العثمانيين . انّا في حاجة الى المخلصين اصحاب العلم والخبرة الذين قبل ان يقولوا يفكرون ويتروون وبعد ان يقولوا يفعلون كما يقولون . مثل هؤلاء تطمئن اليهم نفوسنا ونسلم اليهم قيادنا وتدبيرنا »

ومن ظواهر الاعتزاز بالوطنية في ذلك الحين تلك الغارات الشعواء التي شنّتها الشعراء على بعض الدول الاوروبية لتعديها على بعض الممتلكات العثمانية وضمها نهائياً الى املاكها . كما فعلت النمسا بالبوسنة والهرسك ، واليونان بكريت . ثم ما فعلته ايطاليا بطرابلس الغرب : فكان شعراء العربية على اختلاف نحلهم ومنازعهم يداً واحدة على المعتدين . وكان شعرهم غالباً كالبحر الثائر يرمي صخور الشاطىء بالزبد الصاخب . كقول شبلي ملاط من قصيدة وطنية[1]

الا من يبلغ النمسا كلاماً   نسجّله ونورثه البنينا
بان عهودها كانت سراباً   وكان ودادها (بلفاً) مبينا
فلا تجد السنون الى التصافي   سبيلاً ما تعاقبت السنونا
او النمسا تكفّر عن ذنوب   جنتها فاعتدت عاراً وهونا
اتحسب جارة الدانوب انّا   نذلّ لمثلها ابداً جبينا

ولا ريب ان الشاعر كان في هذه الابيات يعبّر عن الشعور العام في المملكة العثمانية ، وقلّما خطر يومئذ بباله ان «جارة الدانوب» ستصبح عن قريب حليفة الدولة العثمانية في الحرب العالمية . وفي حادثة كريت كان من تحمس العثمانيين عموماً ما حمل شاعراً لبنانياً آخر على نظم قصيدة بدوية النزعة ومنها[2] :—

اظنّ بنو اليونان ان سيوفنا   تثلّمن ام اخنى علينا التأخرُ
الم يذكروا بالامس ما كان بيننا   على حين خضنا الموت والموت يزخرُ

لعله يشير بذلك الى الحرب اليونانية العثمانية سنة ١٨٩٧ .

---

(١) راجع شيخو ١٧٢ (٢) لامين ناصر الدين راجعها في ديوانه صدى الخاطر تحت موضوع غادة كريت ص ٣٥ وكذلك في شيخو ١٩١ على ان في الروايتين بعض الاختلاف

صدمناهم تحت العجاجة صدمةً كما راع اسراب الظباء غضنفر
وكان لنا معهم وقائع لم تزل احاديثها في الخافقين تكرّرُ

ومنها يخاطب اليونان : —

تحيّنتم وقتاً توالت خطوبه لادراكِ امرٍ نيلهُ متعذِّرِ
وخلتم توالي الظلم اورث شعبنا خمولاً واصبحنا على الهون نصبر
قهرناكم والملك قد كان ذاوياً فكيف وروض الملك فينان اخضرُ

أي قهرناكم أيام عبدالحميد والدولة في حال البؤس فكيف الآن وهي زاهية بعهدها الدستوري الجديد

فما ضمّ إكريتٍ بسهلٍ فدونهُ صدام الرزايا والهلاكُ المقرَّرُ[1]

ولشاعرنا اللبناني نفثات كهذه في حوادث البلغار وأدرنه وحرب طرابلس الغرب وغيرها من الوقائع السياسية التي كانت مثاراً للخواطر قبل الحرب الكبرى

ومثل ذلك تجده في الشعر العراقي . فالرصافي مثلاً ، وقد عرفنا انهُ كان قبل الدستور من الاحرار أو الناقمين على سياسة الحكومة الحميدية ، اصبح بعده من المغالين في نصرتها ، المتحمسين في مقارعة أعدائها . وله قصائد رائعة يستنهض فيها المسلمين الى الجهاد ذوداً عن الوطن العثماني كقوله من قصيدة في الحرب الطرابلسية موضوعها « الى الحرب »[2]

ألا انهضْ وشمّر ايها الشرق للحربِ وقبّل غرار السيف واسلُ هوى الكتبِ
ولا تغترر ان قيلَ عصرُ تمدّنٍ فان الذي قالوه من اكذب الكذبِ
السْ تراهم بين مصرٍ وتونسٍ اباحوا حمى الاسلام بالقتل والنّهبِ
وما يؤخذ الطليان بالذنب وحدهم ولكن جميع الغرب يؤخذ بالذنبِ

وله اشدّ من ذلك في هذه الحرب وفي ادرنه والبلقان وسواها . والظاهر ان اقامته في الاستانة قد اثرت كلّ التأثير في الناحية القومية الدينية من نفسه . فلما نشبت الحرب العالمية وخاضت غمارها تركيا الى جانب المانيا والنمسا اخذته الحميّة الدينية كما اخذت كثيرين سواهُ فنظم قصيدة موضوعها « الوطن والجهاد » يدعو فيها المسلمين

(١) والظاهر ان هذا البيت حذف من القصيدة في صدى الخاطر (٢) راجعها وراجع امثالها في باب الحريات من ديوانه (بيروت ١٩٣١)

الى قتال اعداء الوطن والدين (اي الحلفاء). ولكي يدرك القارىء ما كان يسود بعض الاوساط العربية في ذلك العهد (اي قبل ان تتبدّل الحال بظهور الدعوة العربية والثورة الحجازية ،) ننقل له منها بعض ابياتها الاولى – قال :–

يا قومُ إن العدى قد هاجموا الوطنا فانضوا الصوارم واحموا الاهل والسكنا
واستنفروا لعدوّ الله كلّ فتى ممن نأى في اقاصي ارضكم ودنا
واستنهضوا من بني الاسلام قاطبةً من يسكن البدو والارياف والمدنا
واستقتلوا في سبيل الذود عن وطنٍ بـهِ تقيمون دين الله والسّننا

وبعد ان يجري شوطاً في هذا المضمار يلتفت الى مصر فيندّد بحكومتها (او قل بسلطانها يومئذٍ ووزارته) لمجاراتهم الانكليز والانقياد لسياستهم . ويعود بعد ذلك الى الوطن والدّعاء له فيقول

لا زلتَ يا وطن الاسلام منتصراً بالجيش يزحف من ابنائك الأمنا
إنّا نحبّك حباً لا انتهاءَ لهُ يستغرق الارض والاكوان والزمنا

ويخصّ العراق بالقسم الاخير من القصيدة وما اشيع عن اقتراب العدوّ منه ، فيحضّ العراقيين على الاستبسال في صدّه –

إن العراق لعمر الله مسبعةٌ توائب الأُسْدُ فيها من هنا وهنا
هم المغاوير ان صالوا بملحمةٍ فلا يرون لهم غير المنون منى

ويجري مجرى الرصافي من شعراء العراق رضا الشبيبي ومحمد حبيب العبيدي ، وخيري الهنداوي ، ومحمد الحسين كاشف الغطاء ، وعبد العزيز الجواهري وسواهم ممن نفخ فيهم الدستور روحاً جديدة فحملهم على مناصرة الخلافة والتهجّم على اعدائها في اوروبا، واضرم فيهم النعرات الشرقية والدينية، حتى قال احدهم من قصيدة موضوعها « بعد حرب الطليان والبلقان » .[1]

اظهر الغرب ما اجنّ من الغدر – وابدى كوامن الاضغانِ
واحاطت بالمسلمين علوج البغي – من كل جانبٍ او مكانِ
ايها المسلمون هبّوا فليس الموت – الا حياتكم بهوانِ

(١) محمد كاشف الغطاء . راجعها في كتاب الادب العصري في العراق لروفائيل بطي الطبعة الاولى ج ٢ – ٨٧

قد دهاكم ويلٌ فماذا التمادي   وأتاكم سيلٌ فماذا التواني
جاءكم جارف من الغرب تيارٌ   يهدّ البنا وأسّ المباني

ولحبيب العبيدي قصيدة اسمها « ألواح الحقائق » القاها في المنتدى الادبي العربي في الاستانة بعد خطاب له في الحرب الطرابلسية وهي تقرب من خمسمائة بيت وقد ضمّنها أهمّ الحوادث التاريخية من عهد الرسالة الى زمن انشادها[1]. ومما نقل الينا منها يصح ان نحكم انها تعبر تعبيراً جلياً عن هذه الهبّة المغنوية في نفوس الشرقيين وعن أمانيهم في ارجاع مجدهم الغابر ونفض ما كان قد لحق بهم من عار التأخر — كقوله —

كيف ترضى يا شرق ان يمشيَ الـغرب اماماً وانت تمشي وراءُ
أفلم يأنُ ان تجدد عهداً   شهد الصُبح فضله والمساءُ
أتسام الهوان دون المنايا   انما الموت والهوان سواءُ

وهو يصل هذه النهضة الشرقية بمجد العرب الاقدمين ويختمها بذكر مفاخرهم التاريخية . ويدعو بني الشرق عموماً الى النهوض والجري في سبل العلى والتقدّم . ومثل ذلك خيري الهنداوي في قصيدته « ايها الشرق »[2]، وقصيدته « فتاة سلانيك »[3] ومن هذه الاخيرة قوله متألماً —

أمّ البلاد أضاعك الاقوامُ   فبكى مرابع مجدك الاسلامُ
يا أيها الشرق الذي قد عمّهُ   للغرب من بعد الشروق ظلامُ
ما الغرب اوّل ظالم لك بالذي   يأتيه بل ابناؤك الظلاّمُ
قد أهملوكَ وانت معقل عزّهم   فاستهونتك بوطئها الاقدامُ

ولقد يجوز ان نتّهم بعض شعراء ذلك العهد بمداهنة الاتراك وان شعرهم لذلك لا يعكس لنا الشعور العربي الحقيقي . وهنا نكرّر قولنا اننا انما نؤرخ العواطف العربية كما تظهر في نفثات أدباء العرب الشعرية ، ومهما تكن الاغراض النفسية وراءها فذلك لا ينفي حقيقتها وانها ناشئة عن الحوادث متصلة بالشعور العام . والحقّ يقال ان ما اختبرناه بأنفسنا ، وما عرفناه من اختبار الآخرين يدفعنا الى تنزيه كثير من الشعراء يومئذٍ عن المداهنة المقصودة ، ويميل بنا الى ان نعزو عثمانيتهم الى ما أثارتهُ الاحداث

(١) راجعها في الادب العصري لبطي ١ – ١٦٨   (٢) الادب العصري ١-١٦٦
(٣) الادب العصري ١ – ١٧١

السياسية من شتى النعرات في نفوسهم[1]

ففي أوائل العهد الدستوري كان الشعر العربي في سوريا ومصر والعراق مجلىً لالوانٍ من الوطنية غير واضحة الحدود. ولكن كما ان ألوان الطيف اذا مزجت معاً كوّنت شيئاً واحداً هو النور. كذلك تلك الالوان العاطفية من دينية او قومية مرجعها واحد هو الاحساس الحادّ بكرامة شرقية لم يعهدها الشرقيون او العرب منهم قبل ذلك العهد. وقد كان لنشوة الدستور يدٌ في تعميم ذلك الاحساس والباسه حيناً لباس الجامعة العثمانية. وكانت تلك النشوة على اشدها في السنة الاولى من اعلان الدستور ايام كان الناس لا يزالون يطفرون فرحاً بزوال الاستبداد، وينظرون الى المستقبل بعيون التفاؤل والاستبشار، ثم اخذت بالتراخي تدريجياً

على ان النزعة الشرقية المصطبغة بالصبغة العثمانية ظلت بارزة في الادب العربي الى اوائل الحرب العالمية. ومما يزكي ذلك ما نظمه الشعراء سنة ١٩١٣ في حادثة الطيارين التركيين فتحي وصادق وهما أول طيارين شرقيين ظهرا في سماء الشرق العربي. فلما وصلا سوريا ولبنان قابلهما الادب العربي بهبّة وطنية هزّت اعصاب الناس وأثارت نخوتهم الشرقية او قل العثمانية. كقول الشيخ مصطفى الغلاييني من قصيدة حماسية:-[2]

خيمتما فوق الرؤوس فأشرقت ... منا الوجوه وأزهرت انوارها
وفتحت يا فتحي القلوب بزمرة ... احيا موات رجائنا تذكارها
ونزعت منا اليأسَ وهو بليةٌ ... شنعاء عمّت قومنا اضرارها

ومثل هذه الحماسة الوطنية تتجلى في اقوال اكثر الشعراء لذلك العهد. ثم طار الطياران بقصدان مصر، ولكن القدر المحتوم لم يمهلهما فسقطا قرب طبريا وكان لمصرعهما رنة اسف عمت جميع الاقطار العربية. وقد جعلهما الشعر العربي مثال الوطنية الشرقية المتحفزة لمباراة الغرب. وفي ذلك يقول الياس فياض –[3]

فتحي أطلّ من العلاءِ مكذِّباً ... من قال إنا امة لن تقدما
من قال ان الشرق شعبٌ خاملٌ ... لا يستطيع مع الشعوب تقدّما
اليوم قد جددتما لشبابه ... عهداً ينسّي عهده المتصرّما

(١) راجع ايضاً ديوان عبد المطلب ٢٨٠ والباروني ٥١ والرافعي ٢ – ٢٩٤ والكاظمي ٩٩١ والمطران في الهلال ٢٠ – ١٨٢ وعبد الحليم المصري في آداب العصر لسعد ١٨٨

(٢) الورد الصافي ٥ – ٢٦٣ (٣) الورد الصافي ٥ – ٣٠١

أهرقتما للعلم افضل مهجة كانت تراق على المظالم قبلما
هذا هو الدرس المفيد وهذه عظة الزمان فهل لنا ان نعلما
من ليس يعرف ان يموت مكرّماً هيهات يعرف ان يعيش مكرّما

ويتجلى شعور المصريين يومئذٍ في قول شاعرهم حافظ من قصيدة[1]

اخت الكواكب ما رماكِ وانتِ رامية النسورِ
ماذا دهاكِ وفوق ظهركِ مربض الاسد المصور

ومنها مخاطباً فتحي: حاولتَ ان ترِد المجرّة والورودُ من العسير
فوردتَ يا فتحي الحِمامَ وأنت منقطعُ النظير
وهويت من كبد السماء وهكذا مهوى البدور
ان كان اعياك الصعود بذلك الجسد الطهور
فاسبح بروحك وحدها واصعد الى الملك الكبير

ومثلها قصيدة لعبد المطّلب مطلعها : « وقفت لك الدنيا فسيري[2] » وقصيدة شوقي : « انظر الى الاقمار كيف تزول »

وعلى هذا النمط نظم كثير من الشعر الوطني في بيروت ودمشق وبغداد والقاهرة وسواها من حواضر العالم العربي

واذا قيل كيف ذلك والعرب يومئذٍ كانوا قد بدأوا يستنكرون سياسة الاتحاديين الاتراك ويتشوّفون الى حياة قومية وكيان مستقل بدليل ما نراهُ من جمعياتهم السياسية في مصر وغير مصر قلنا ان تلك الجمعيات لم تكن تملك من وسائل الدعاية ما يشيع في جميع الانحاء مبادئها او ما يجمع القلوب على نصرتها . فظلّ السواد الاعظم من ابناء العربية متعلقين بآمالهم الدستورية لا يرون لهم من رابطة غير الخلافة العثمانية . ثم ان الحركة العربية الاستقلالية لم تكن قد نضجت نضجاً كافياً لتأصيل فكرة الانفصال عن الجامعة العثمانية . ويخيل الينا من دراسة عواطف الناس في ذلك الحين ان الزعماء الذين كانوا يعملون في سبيل الفكرة العربية لم يكونوا على بينة من هذا الامر . ولو راجعت الرسائل التي كان يتبادلها سراً امثال عبد الحميد الزهراوي ، ومختار بيهم ، ومحمد المحمصاني ، وسليم الجزائري ، ورشيد رضا ، واخوانهم من اعضاء

---

(١) المورد الصافي ٥-٣٠٢ (٢) ديوانه ٩٥

المؤتمر العربي او الجمعية الاصلاحية ، لوجدت ما يزكي قولنـا ان الاصلاح الذي كانوا ينشدونه لم يكن يراد به اولاً القضاء عـلى الرابطة العثمانية والاستهداف لمطامع الاستعمار[1]. ولو عرفت تركيا يومئذ كيف تستغل شعور الناس لائتلفت من الكتلتين التركية والعربية جامعة عزيزة الجانب صادقة الوطنية لكن السياسة العنصرية الحادة حالت دون ذلك ، فكانت من الاسباب المعجلة لنجاح الدعايات الاوروبية في الشرق العربي ، ثم لاشتعال الثورة العربية في اثناء الحرب الكبرى (سنة ١٩١٦)

وسواء أصح استنادنا الى تلك الرسائل أم لم يصح فالواقع المشاهد ان الشعر العربي كان في أوائل العهد الدستوري أسرع الى الصفح عن مساوىء العهد الماضي والى تعزيز الرابطة العثمانية . ثم حدث الاحتكاك بين العنصرين التركي والعربي وأخذ البعض يلهجون بحقوق العرب في السلطنة وقد ظهر ذلك في الشعر العربي (كما سنرى) . على ان الشعر لم يقطع صلته بغتة بآماله الدستورية التي كان يشيد بذكرها . وقد ظلّ طيلة العهد الدستوري أميل الى التوفيق بين الأماني القومية والجامعة العثمانية ولو تأملنا لرأينا انه لم يصبح عدواً لهذه الجامعة الا بعد الثورة العربية والحرب العالمية

فليس من الغريب ان نراه من حين الى آخر يتأجج بالشعور العثماني إزاء بعض الحوادث الوطنية كالتي مرّ ذكرها من حوادث التعدي على الدولة في البلقان وطرابلس او من حادثة الطيران التي اضرمت القلوب في مختلف الاقطار حتى قال فيها شاهد عدل هو الدكتور هورد بلس رئيس جامعة بيروت الاميركية سابقاً وكان يوم الحادثة في مصر - « ان ما آنسته من حماسة اخواننا المصريين وشدّة استعدادهم لاستقبال الطيارين واقامة المآدب والاحتفالات اللائقة بهما جعلني اتصوّر شيئاً مما سمعته عن عظمة الاستقبال الذي جرى لهما في بيروت وعن الابتهاج الذي شمل الاهلين لمشاهدتهم الطيارين العثمانيين لاول مرة »[2]

---

(١) راجع هذه الرسائل في كتاب ثورة العرب (لاحد أعضاء الجمعيات العربية) مطبعة المقطم ١٩١٦ ص ١٢٧ - ١٣٨ (٢) مجلة الكلية ٥ - ١٣٨

الدستور

والنعرات المذهبية

إن من يعرف الشرق العربي قبيل الدستور يعرف ما بلغه من الاختلال الاجتماعي والاقتصادي . فسياسة الحكومة الخرقاء والدعايات الاجنبية المختلفة كانت من افعل الوسائل لتوسيع شقة الخلاف بين ابناء البلاد حتى اصبحت البغضاء الطائفية مستحكمة الحلقات و كثيراً ما كان ذلك يفضي الى « حوادث » دامية وشرّ مستطير[١]. ومهما نحاول تخفيف الامر فلا سبيل الى انكار ما كان في العهد الحميدي من حزازات بين الاكثرية والاقلية ، بل بين الفروع التي تنتمي الى كلّ منهما . وفي ذلك يقول سليمان البستاني وهو عثماني صميم ومن الذين خدموا الدولة نائباً ووزيراً « لم يكن من مصلحة ظلمة الاستبداد في الحكومة الغابرة ان يؤلفوا بين القلوب اذ كانوا يعتقدون لجهلهم ان وفاق الامة يدك معاقل صولتهم »[٢] والى هذه الحال يشير بطل الانقلاب نيازي بقوله من خطبة القاها في جمعية الاتحاد والترقي وذلك قبيل اعلان الدستور[٣] « تعلمون ان سفالة الحكومة وجبنها وهونها صيّرتنا سخرية بين الناس والذي يجب ان نقوم بهِ لقاءَ الحكومة ولقاء مؤامرة اوربا على تقسيمنا هو ان نثبت فعلاً في ثورتنا هذه اننا نحب المسيحيين كاخواننا ونساوي بينهم وبيننا. فليست ثورتنا ضد الاشخاص والعناصر بل هي نهضة ضد اصول الادارة التي اوقعت العداوة بيننا وبين اخواننا في الوطن » . فنيازي هنا يصرّح بهذه الحقيقة المؤلمة ويعزو اللوم في ذلك الى سوء الادارة من جهة والى سياسة المستعمرين من جهة اخرى . ولقد يصحّ ان نستثني مصر لما كانت تتمتع بهِ من حرية اجتماعية بعد الاحتلال . على ان سائر البلدان العربية ولاسيا سوريا كانت

---

(١) راجع وصف هذه البغضاء الطائفية في كتاب حوادث الشام ولبنان لمخايل الدمشقي (المطبعة الكاثوليكية ١٩١٢) ص ١١ و ٣٠ و ٤٨ و ٤٩ وايضاً كتاب حسر اللثام عن نكبات الشام مصر ١٨٩٥ ص ٣٦ (٢) كتابه عبرة وذكرى (١٩٠٨) ص ١٠١

(٣) من تأملات نيازي راجع المورد الصافي ١ — ٦٦

– كما هو معروف – تتخبط في دياجير التعصب وتقاسي منه الاهوال . فلا عجب اذا رأينا السوريين واللبنانيين يهاجرون الى وادي النيل او يضربون في آفاق الارض سعياً وراء الرزق والحرية. وقد اصاب حافظ ابرهيم اذ قال في وصف هؤلاء المهاجرين[1]

لم يحمهم عَلَمٌ فيها ولا عددٌ　　سوى مضاءٍ تحامى ورده النُوَبُ
لهم بكلّ خضمّ مسرب نهج　　وفي ذرى كل طودٍ مسلك عجبُ
ما عابهم انهم في الارض قد نُثروا　　فالشهب منثورةٌ مذ كانت الشهبُ

ولا ينكر ان كثيرين من العقلاء كانوا يرغبون في الحسنى وفي القضاء على هذا الاختلال الاجتماعي المؤذي ، لكن السياسة على ما يظهر لم تمكّنهم من ذلك

فلما أعلن الدستور ونودي في الناس بالحرية والمساواة والاخاء زال الضغط فجأةً عن الصدور حتى رأينا من غريب المشاهد ما كان له اثر عميق في ادب ذلك العهد. زعماء الطوائف يتعانقون في الساحات العمومية ويتعاهدون على المودّة الاخوية . قال الدكتور هورد بلس من خطبة له القاها في الجمعية الجغرافية الوطنية باميركا (في ١٨ دسمبر ١٩٠٨) ذاكراً تلك الحال في بيروت –[2] « فأطلقت حينئذٍ الحرية في المدينة ولم يعد الناس يتمالكون ضبط نفوسهم عن اظهار بهجتهم - والناس الذين قضوا السنين الغابرة والعداوة بينهم مستحكمة صاروا الآن اصدقاء اعزّاء في الحفلات والمجتمعات وصار رؤساءُ الدين من المسيحيين والمسلمين يتضامون ويتعانقون . قطعت الاغصان من الاشجار وأتي بالبسط من المنازل واكتظت الشوارع بالناس فكانوا يضيفون اخوانهم الذين فقدوا صداقتهم زماناً طويلاً . وكانت امارات المودّة والالفة ظاهرة في كل مكان حتى بين الرعاع وذوي الجرائم »

ولنترك لاديب بيروتي معروف وصف مشهد من هذه المشاهد وهو انموذج لما حدث في اهم الحواضر العربية قال –[3] « من ابهج ما رايت من هذا الوفاق ان نفراً من شبان حيّ السراي (حي اسلامي) ركبوا العربات فسارت الى محلة الجميزة (حي مسيحي) فجدّدوا عهود الاخاء مع اخوانهم المسيحيين بعد ان ابلاها الجهل ورجال السوء . هناك تآخى الفريقان وتحابّ القبيلان وعلموا ان العثمانيين جسم واحد تديره روح واحدة »

(١) من قصيدته الشهيرة (لمصر ام لربوع الشام تنتسب)　(٢) راجعها في المقتطف ٣٦ ٣٥٠
(٣) مصطفى الغلاييني في لسان الحال ١ آب ١٩٠٨

ويزكي هذه الشهادة ما ذكرته مجلة الهلال عن بيروت اذ قالت[١] — « اظهر اهل بيروت بعد اعلان الدستور ما ادهش العثمانيين من الاتحاد والحرية الشخصية وصحة المبدإ . فقد كان اهلها اول من تصافح فيهم الشيخ والقسيس . واظهروا في اثناء انتخاب النواب لمجلس الامة استقلالاً في الفكر واتحاداً في الكلمة . ولما وثب بقية حزب التقهقر بجمعية الاتحاد والترقي بالاستانة كانوا في مقدّمة الناقمين على الواثبين . وقاموا يؤيدون الدستور بخطبهم ورسائلهم . وعثروا على بعض الجواسيس يسعون في التفريق بينهم فقبضوا عليهم . وجدّدوا الوفاق بين طوائفهم . وقالوا اذا تباغضت الطوائف في كل المملكة فنحن متفقون في نصرة الدستور الى آخر نسمة من الحياة »

وللشعراء في هذا الوفاق وفي الحضّ على نبذ التعصب الذميم قصائد كثيرة نجتزىء منها ببعض مقطعات على سبيل التمثيل . فمن ذلك هذه الابيات[٢]

قد صرتمُ امةً في الارض واحدةً ... من آل عثمان لا عُرباً ولا عجما
فلا تفرّقكمُ اجيالكم فرقاً ... ولا تقسّمكمُ اديانكم قِسما
كم قيدوكم بها اسرى وكم سفكوا ... دماءَكم او احلوا فيكم النقما
واليوم جرّد سيف الحق صاحبه ... وهاجم الظلمَ حتى فرّ منهزما
تعانق الشيخ والقسيس واصطحبا ... من بعدما افترقا ضدين واختصما
تآخيا في حمى الدستور واتّحدا ... ورفرفت راية التوحيد فوقهما

وهذه النغمة تسمعها في بيروت كما تسمعها في دمشق وبغداد وسواهما . فمن دمشق مثلاً قول احد ادبائها[٣] من قصيدة : —

ايها الشرقيّ قد بلغتَ ما ... كنت ترجوه فهل ثمّ خلل
فانبذ البغضاء والحقد ودع ... كلّ ما فيه فسادٌ وزغل
كلّ من في الشرق اخوانٌ فلا ... فرق بين الخلق من كلّ النحل

ومن العراق قول الرصافي[٤]

اكرم بعصرٍ حبانا بالمساواة ... وخصنا بالتهاني والمسرات

---

(١) الهلال مج ١٧ – ٦٩٦ (٢) الهلال ١٧ – ١٧٢ (٣) محمد شاكر ياسين : شيخو ٢ – ١٦٥ (٤) من قصيدة : راجع شيخو ٢ – ١٦٦ (ولم نجدها في ديوان الشاعر)

عصرٌ بهِ قد تآخينا فليس ترى بعد الأخاء طريقاً للعـداوات

ومن مصر نقولا رزق الله[١] وغيره من الادباء

والذي يظهر من مراجعة النفثات الدستورية ان هذا الشعور المتألم من مساوي التعصب الديني كان أبرز في الشعر السوري اللبناني منهُ في سائر الاقطار العربية. ولعلّ من أسباب ذلك أن مسألة « الاكثرية والأقلية » لم تبلغ في مكان ما بلغتهُ في الاقطار السوريّة. فمصر كما ذكرنا كانت تحت نفوذ الاحتلال، والعراق قطر اسلامي لا قـوة للاقليّـة فيه وبالتالي لا تنافس طائفي موجب للبغضاء. وان كان شيء من ذلك في ذلك الحين فبين المسلمين أنفسهم من سنيّـة وشيعـة. ولم يظهر في الشعر العراقي من اشارة الى احتكاك المسلمين بالمسيحيين الاّ في عهد الانتداب، كما ترى في قصيدة وجهها الرصافي الى المسيحيين ومطلعها[٢]:—

أما آن ان تُنسى من القوم اضغان فيبنى على اسّ المساواة بنيان

عـلامَ التعادي لاختلاف ديانةٍ وإن التعادي في الديانة عدوان

إذا جمعتنا وحـــدةٌ وطنيّـةٌ فماذا علينا ان تُعدّد اديان

وهي طويلة وتشفّ عن خوف العراقيين من السياسة العاملة على هدم الكيان القومي بالتفريق بين طوائفه. وسنرجع الى ذلك بعد

اما سوريا وبنوع خاص منطقتها الساحليّـة التي تشرف عليها جبال لبنان فقد كان التنافس الطائفي فيها على اشدّه، وكانت دائماً اكثر تعرّضاً للدعايات الاجنبية واكثر اختلاطاً بالحضارة الغربيّـة. فنشأ عن ذلك ضغائن ووقائع دموية كان لها اثر عميق في النفوس. فلا بدع ان ترى الشعر السوري واللبناني في ذلك العهد اشدّ تهجماً عـلى التعصّب الديني واكثر ترحيباً ورجاءً بالعهد الجديد. وقـد حملت النشوة الدستورية بعضهم على الخروج عن جادّة الاعتدال. فلم يقفوا عند حدّ التهليل بالاخاء والدعوة الى نبذ الاحقاد، بل تجاوزوه الى درجة التطرف فصاروا يعزون الى الدين ورجاله كلّ اسباب التعصب والشقاق، ويرجعون اليهم كلّ ما اصاب الشرق من البلايا الاجتماعية، كقول احد شعراء المهجر[٣]

(١) المقتطف ٤٠ – ٣٨٩ (٢) ديوانه (١٩٣١) ١٥٠

(٣) ابو الفضل الوليد في « أغاريد وعواصف » ٦٠

وإني ليوهبني تقسّم امتي بأديانها والشرّ بين المذاهب
متى ينتهي كهّاننا وشيوخنا فنخلص من حيّاتهم والعقارب
شقينا لنعماهم وراحتهم فهم يسوقوننا كالعيس نحو المعاطب
فما الدين إلاّ نسخة بعد نسخة يزخرفها للناس اهواءُ كاذب

وفي الشعر الدستوري كثير من مثل هـذا التطرّف (ومعظمهُ في الاوساط المسيحية) . فلا عجب اذا رأينا رجال الدين ينكرون ذلك ويقاومونهُ كما فعل الاب لويس شيخو في كلامه عـلى الحماسة الدستورية اذ قال[1]. « واسوأ من هؤلاء (اي المبالغين والمتهوسين) اولئك الذين توسّلوا بالدستور فاستباحوا في شعرهم ذمار الدين وانتهكوا حماه وبخسوا حق ممثّليه . فترى هذا ينسب الى الدين كلّ الشرور واسباب النفور، والدين كما لايخفى يأمر بالاخاء والتحاب: وغيره يدّعي ان الدين لا دخل لهُ في العمران وانهُ من المسائل العرضية (كقوله)

خلِّ قسّي وشيخكم في جدالٍ واحكِ لي في المسائل الجوهرية

واذا ذكر الذين حُكم عليهم بالظلم وقت الاستبداد تعجّب انهم لم يكرموا كآلهة مثل السيد المسيح

مات عيسى فألّهته الوف والوف ماتوا وراحوا ضحيّه

« ويجعل آخرُ كلّ الاديان متساوية وكلها صحيحة »... الى ان يقول .. «فننشدكم الله ايها الشعراء صونوا قرائحكم من كل امتهان ولا تبتذلوا موهبة جاد بها عليكم المنان»

***

ولا بدّ لنا من القول ان هذه الحرب التي اثارها الشعر الدستوري عـلى التعصب الديني قـد احدثت شيئاً من التقارب المنشود ، لكنهُ لم يكن ثابت الاركان . فظلت الطائفية اساس الاجتماع والسياسة في البلدان العربية .وظلت مسألة الاكثرية والاقلية عقدة من العقـد المستعصية ، حتى في مصر حيث كانت السلطة الاحتلالية تقوم بدور الحماية لحقوق الاقليات . ففي سنة ١٩١١ عقد الاقباط في اسيوط مؤتمراً عاماً للمطالبة بامور تتعلق بطائفتهم[2] وازاء ذلك عقد المسلمون مؤتمراً في عين شمس[3]. ومن بواعث

(١) آدب القرن التاسع عشر ٢ – ١٦٨ (٢) الهلال ١٩ – ٥٠٦ وكان كاتب هـذه السطور ممن أتيح له حضور هذا المؤتمر (٣) الهلال ١٩ – ٥٠٧

الرضى ان جوّ المؤتمرين كان مشبعاً بروح الوئام . الا ان المدقق في البواعث على انعقادهما لا يسعهُ الا ان يرى شبح الطائفية فيهما ماثلاً للعيان . وكذلك كان هذا الشبح في سائر الاقطار العربية

فالدستور ارهف الشعور الاخوي بين الطوائف حيناً، وفتح للاحرار باب التهجم على التعصب، حتى ظنّ كثيرون ان اسباب الجفاء الديني قد زالت من الشرق العربي، وان ابناء الشرق ، على اختلاف نحلهم ، سينعمون في ظل العثمانية الجديدة بعهد جديد تتغلب فيهِ روح الوطنية الحرّة على النعرات الدينية الهدّامة . والحق يقال ان الشعر العربي لم يقصّر في الدعوة لهذا العهد الجديد ، ولم يأل جهداً في اثارة النفوس للتخلص من قيود الاوهام ومما ورثتهُ من سخائف القرون المعروفة بقرون الظلام . لكن تلك النعرات على ما يظهر كانت ارسخ من ان تستأصلها الثورات الكلامية ، فعادت الى الظهور ولا تزال الى الآن تعمل عملها في حياة الشرق الاجتماعية والسياسية وسنرى انه قد ظهر بعد هبّة الدستور هبّات اخرى هي ايضاً ارهفت الشعور القومي واهابت بالشرقيين الى الاخاء والوئام . على ان عوامل التفريق لا تزال تعمل في الشرق عملها المعيب ، ولا يزال الشرق برغم الجهود المبذولة بعيداً عن هدفه الوطني المنشود

بعد النشوة الدستورية

حاولنا فيما سبق ان نؤرخ العواطف العربية بوصفنا الاثر الذي أحدثه الدستور لاول وهلة في نفوس العثمانيين ولاسيما ابناء الشرق العربي . وقد رأينا كيف برز الشعر في مفتتح العهد الدستوري بحلل قشيبة من الحماسة سداها الامل ولحمتها الاستبشار . على انه لم يظل كذلك طويلاً . فلم تكد تمر سنة على اعلان الدستور حتى رأينا كثيراً من النفثات الشعرية مصطبغة بألوان قاتمة من الاشفاق والحذر . ولو تحرينا الاسباب لوجدناها متباينة الاصول . فمنها نفسي ومنشاه ذلك التراخي الذي يعقب عادة شدة الانفعال او الثوران العصبي . خذ الغضب مثلاً فهو يثير النفس ويشعرها موقتاً بشيء من القوة ، لكنه لا يلبث ان يزول ويعقبه « رد فعل » مقترن بالضعف والهبوط . ومثله الاغراق في الحبور او الحزن والامل وما الى ذلك من الظواهر النفسية. وذلك ماحدث في الهبة الدستورية . فقد كان الشعر على اثرها متوتراً شديد الحماسة ثملاً يترنح بخمرة الاغتباط فهزج ورقص وصخب ما شاء . ثم عراه في بعض الاوساط هبوط تدريجي ألقى عليه مسحة من التشاؤم

ومن اسباب هذا التشاؤم خيبة الامل في النظام الدستوري . كان الناس يرجون من الدستور المستحيل . يرجون منه ان يقلب الاحوال ويغير الطباع وان يهيء لهم فجأة اسباب التقدم والسعادة . على ان النظام وحده غير كافٍ ، ولا بد من اتحاد الزمن والعلم والاخلاق للوصول الى الغاية المنشودة . وكما ان الشجرة لا تنمو الا اذا تهيأت لها اسباب النمو ولا تثمر الا متى حان الاوان ، كذلك كل دستور . وما على القائمين بهِ الا تعهده بحنكة واخلاص، وتدريب الناس تدريباً منظماً على السير بموجبه والعمل بمقتضياته . ولا شك في ان العثمانيين عموماً لم يكونوا على استعداد كافٍ للحياة الدستورية. وقد ظهر في تطبيقه نقائص لم يكونوا يتوقعونها مما أثار في النفوس احساسات معكوسة ظهرت في الادب بمظهر الخيبة والفشل

واذا عرفنا ذلك عرفنا الدافع الى قول جرجي زيدان بعد زيارتهِ لسوريا ولبنان عام ١٩١٠ مشيراً الى التشاؤم المستحوذ على بعض النفوس . ومحذراً من التمادي في

ذلــك[١]« وطائفة تعجّلت استثمار الدستور فهي تريد ان تصير المملكة العثمانية التي قضت قرنين في حال الاحتضار وقـد نضبت ماليتها وأجدبت أرضها واظلمت مدنها وتخرّبت طرقها وشوارعها وفسد كل شيء فيهـا حتى اخلاق اهلها واختلّ نظام اجتماعها وفرّق التعصب بين طوائفها ومذاهبها—تريد هذه الفئة من المنتقدين ان تصير هذه المملكة في سنتين مثل ارقى ممالك اوربا وهذا مستحيل »

فقـد ادرك زيدان يومئذٍ ما كان يشعر بهِ الناس عموماً من سوء الظن بالحكومة الدستورية وخيبة الامل بما اعلنتهُ من الاصلاح فلم يجارهم في النقـد بل راى التريّث والصبر اولى واضمن للوصول الى الغرض المقصود . وقد شاركه في ذلك كثير من المفكرين . الا ان بعض الشعراء لم يستطع الصبر عـلى هذه الحال فاندفعوا في سبيل التهكم والانتقاد ، كقول الرصافي من قصيدته شكوى الى الدستور[٢]

فهل ايها الدستور تسمع شاكياً بك اليوم يرجو ان يرى نهضة الشرقِ
لقد جئت من افق الصوارم طالعاً علينا طلوع الشمس من منتهى الافقِ
فصادفت منا امةً قـد تعشقت لقاءك حتى جاوزت مبلغ العشقِ
وظلنا نرجّي منك للخرق راقعاً ولكن تراخي الامر متّسع الخرقِ

وقول الشاعر القروي في البرازيل[٣]

جاءَت فكبّرنا وشقّ هتافنا قلبَ العنان تيمّناً بالجائي
ودعا الفقير لها وسماها أخو البـؤس الشديد بأعذب الاسماء
حتى اذا فتر التحمّس وانجلى صبح الحقيقة عن دجى الضوضاءِ
نادى فلم يجد النداء ودعا فما لبّاهُ غير تجاوب الاصداءِ

ولولي الدين يكن قصيدة موضوعها (الاسترقاق في ايام الحرية) صدّر بها احد فصول كتابه الصحائف السود سنة ١٩١٠ . وفيها يقول عن الحرية

تشتاق في عزها ذويها وحصنها دونهم حصين
حتامَ هذي القيود تبقى يا رب قد كلّت المتون

وقد عبر عن عواطف كثير من الناس حين قال على طريقتهِ الشعرية النثرية[٤]

(١) راجع الهلال ١٩ — ٣٩ (٢) ديوانه (١٩٣١) ٣٧٥ (٣) الرشيديات (سان باولو ١٩١٦) ٧١ (٤) راجع كتاب التجاريب (١٩١٣) ٣٤ و٣٥

« قلت حين نبذوا لنا جيفة الدستور : نؤازر هؤلاءِ القوم القائمين فينا بالامر . ربما اصابوا من حيث لا يشعرون — وكم رمية من غير رام . وقلت اطمئني ايتها القلوب واسكني يا ثائرات النفوس . ووقف اخواني العثمانيون يتفرجون فما راعنا الا مذابح وفتن ، وغارات تتلوها غارات ، وصخب وضجيج ، بينا نواب الامة يتجاذبون اطراف الفوائد كلٌ يريد ان يسمن كبشه » ثم يقول « اخواننا الذين يظلهم الدستور العثماني لا قبل لهم بمعارضة الحكام وهم معذورون . ثم شفارٌ ارهفت ، وسيوف سلت تقتطف الرقاب كما تقتطف الثمار »

ويبلغ بهِ التشاؤم مبلغه في هذين البيتين[1] مخاطباً رجال الدولة

« افلا يزال السوط حاكمكم — وأبو السياط بيلدزٍ ذهبا[2]
وتقول أحرار فنمدحكم — لا حرٌ فيكم . كلنا كذبا

على ان أهم ما يذكر لهُ في هذا الباب قصيدة موضوعها « بين أنقاض الوطن » قالها يصف حال الدولة وما وصلت اليهِ على يد الدستوريين وهي تنيف على الستين بيتاً[3]

« حلمنا بشيء وانتبهنا بضده — وما يجتني من كاذب الحلم حالمُ ؟
أقيم بناءٌ بالعراء على شفا — ولم تقوَ آساس لهُ ودعائمُ
فما ظُنَّ منه قائماً فهو مائل — ومن ظُنَّ منهم بانياً فهو هادمُ
وأربعة[4] مرت ولم تحلُ لامرىءٍ — تهادت على الاقطار وهي سمائمُ
تعوّض يأساً من غدا وهو آملٌ — وشام يقيناً من سرى وهو واهمُ

ومثلها تشاؤماً وسخطاً قصيدة موضوعها «التعصب يخرج الحرية من ديارها». قالها حين نفى الحكام جميل الزهاوي من بغداد . ومطلعها «اسيرٌ بدار الظلم اعياه آسره» وفيها يندد بالجور والتعصب ويلوم اولي الامر على انتهاك حرمة الدستور . وهي تبلغ ثلاثين بيتاً ويتجلى لك روحها في قوله[5]

أحين هوى عبد الحميد بعرشه — وغبّره بالذم في الناس غابره

(١) راجع كتاب التجاريب (١٩١٣) ٤٢
(٢) اشارة الى انقضاء العهد الحميدي
(٣) راجعها في التجاريب ١٠٨
(٤) أربعة اعوام مرت على اعلان الدستور
(٥) راجعها في التجاريب ١٩

يقوم اناس يستعيدون عهده وفينا نيازي قائم وعساكره
ألا لا نرجّي العدل والعدل دوننا موارده محمية ومصادره
تجلى زماناً ثم لم تبتسم لنا اوائله حتى استسرّت اواخره

فولي الدين ينسب الى الاتحاديين الاستبداد بالامر والضغط على الحريات مما يجعل الدستور نظاماً أجوف لا خير منه . وقد يقال ان هذا الشاعر عصبي المزاج يميل الى سوء الظن فيبالغ في نقده سيئات الدستوريين . على أنه لم ينفرد بذلك . والذي يراجع ادب ذلك العهد يجده مشبعاً باليأس والمرارة ، او على الاقل مصطبغاً بصبغة عدم الرضا كما ترى في مقـال لرفيق العظم موضوعه الاحزاب في الامة[1] ينتقد فيه الاتحاديين واستئثارهم بالسلطة النيابية فيقول — « ان الاحزاب في البلاد الدستورية كالقواعد التي يشاد عليها بناء الدستور . ولا يمكن لقاعدة واحدة ان ترفع ذلك البناء . فهل لاخواننا الاتحاديين ان ينعموا في هذا الامر قليلاً ليعلموا ان القوة لا تبلغ بحزب واحد يحمل ذلك البناء الثقيل بازاء امة جامدة مثل هذا الجمود المخيف . فهي في حاجة الى من يسوقها الى ميدان السياسة ويرشدها الى فضيلة الحكم الدولي ألا وهي الاحزاب فانها هي التي تتولى تمرين الشعب عـلى ذلك الحكم وتشويقه اليه لتكون يداً واحدة في المحافظة على الحرية والدستور » . وهذا الكلام كلام عارف بأحوال البلاد مطلع على دخائل الامور . نعم ليس فيه لذع ولي الدين ولكن فيه ما يشير الى الاسباب التي اثارت كوامن نفسه الحساسة . وقريب من هذا المعنى قصيدة لرضا الشبيبي يشير فيها الى خيبة الآمال التي عُقدت على الدستور[2]

ومن المنتقدين من رأى الخلل في الشعب نفسه لا في القائمين باصلاحه او المتولين لشؤونه فمن الاجحاف عندهم ان تلقى كل التبعة او معظمها على عاتق الذين احدثوا الانقلاب وتولوا الاحكام وان يعزى اليهم وحدهم هـذا الفشل في تطبيق النظـام . وعلى ذلك يقول الاستاذ الدكتور فيليب حتي من خطبة له موضوعها من الملوم[3] — « ما لنا قائمة قيامتنا ابداً على حكومتنا ورجال الحكم فينا ولا لوم على هؤلاء ولا تثريب . انمـا اللوم كل اللوم علينا نحن كامة اذ ان الحكام ليسوا الا بعض افرادها يرتقون بارتقائها وينحطون بانحطاطها . يقولون الداء اختلاف العناصر والدواء ائتلافها

(١) المورد الصافي ٢ – ٢٦٢ (٢) ديوانه ١٩٦٠ ص ٦
(٣) راجعها في المورد الصافي ٣ – ٢٠٥

وامتزاجها - يقولون الداء « المركزية » والدواء توسيع المأذونية والسلطة الادارية - يقولون ويقولون والواقع غيرما يقولون . الداء الحقيقي هو جهلنا حقائق الامور وانحطاطنا علمياً وأدبياً كأفراد وبالتالي كمجموع ، والدواء التهذيب الحقيقي . وما الضعف القومي سوى عبارة عن مجموع الضعف الافرادي . اننا في حاجة الى تهذيب عام يشمل الفتيان والفتيات -حاجتنا الى مبادىء قوية الى آداب حصينة-الى رجال» . وتصف لنا الشعور نفسه قصيدة للمؤلف موضوعها « العامة في الشرق » وقد نظمت على اثر بعض الحوادث المؤسفة عام ١٩٠٩ ومنها[1]-

سلانيك[2] حيّي الجند عنا وسلمي ... عليهم سلام المستهام المتيّم
وهبت لنا الدستور منك تكرماً ... وما نحن اهل للعطا والتكرّم
« ضجيجٌ وأوهام هو الشرق كله ... فهل من فعول في الشدائد مقدمِ
« يقولون ان الشعب في الشرق حاكم ... وربّك ما السلطان منهُ بأظلم
« أنيروا أنيروا الجاهلين فاننا ... بني الشرق نسري في الظلام المخيّم
« انيروا انيروا الجاهلين وبشروا ... بدستوركم في عالم الشرق ينعمِ
« فما الشعب بالرأي العمومي ناهض ... الى ذروات المجد من غير سُلّم

ومما زاد الحالة تفاقماً والنفوس تشاؤماً ما نشأ بعد خمود الثائرة الدستورية من مشادّات عنصرية بين العرب والاتراك . فبعد تلك الهبة المتفائلة التي نراها في الادب ما بين سنتي ١٩٠٨ - ١٩٠٩ ، والتي كانت تميل الى تعزيز الجامعة العثمانية والتباهي بها أمام الاجانب أخذ التشاؤم يتسرّب الى بعض الاوساط العربية . فتنبّه العرب الى المطالبة بحقوقهم وصاروا يلهجون بقوميتهم ومقامهم في السلطنة وتلك هي الشرارة الاولى من النار التي تأججت بعدئذ في الثورة الحجازية ثم في الحركة القومية العربية بعد الحرب الكبرى وسنفرد بعد لهذه الحركة فصولاً خاصة . فلنتقدم الآن الى كلمة في الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) واثرها الادبي

(١) راجعها في المورد الصافي مجلد ١ جزء ٣
(٢) سلانيك كانت يومئذ المركز الرئيسي للانقلاب الدستوري

الحرب العالمية الاولى

وأثرها في الادب

والمتأمل في الشعر العربي السياسي اثناء هذه الحرب يراه على نوعين — حكومي وعمومي . فالاول مقرون بالسلطة القائمة واعمالها الادارية والسياسية ، وهو أدب كان يوحيه الى الاقلام احد العوامل التالية : —

(١) رهبة تدفع الى الممالأة والتقية

(٢) طمعٌ يبعث على التزلّف والمداهنة

(٣) تهوّس ديني يثير في النفوس التعصّب والحماسة

ولو التفتنا الى سوريا ولبنان وفلسطين والعراق لرأينا ذلك ظاهراً للعيان . فقد دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا فخبا بغتةً ذلـك التوتر العنصري وكُمّت الافواه والاقلام الا عن حمد الدولة وتحبيذ سياستها . على ان تركيا لم تكن غافلةً عن النزعات اللاتركية الناشئة في الاقطار العربية وعن تنشيط الحلفاء لها . فكان اول ما عملتهُ بعد دخولها الحرب انها ألغت الامتيازات الاجنبية فأصبحت المسيطرة المطلقةعلى مقدّرات البلاد ، ثم قسمت الجبهة العربية الى منطقتين حربيتين الاولى منطقة الجيش الرابع ويدخل فيهاسوريا ولبنانوفلسطين والحجاز—والثانية منطقة الجيش السادس وهي بلاد ما بين النهرين وأقليم شطّ العرب . وقد رأت ان تنظّم الاولى اولاً وان ترعاها رعاية خاصة فعهدت بها الى احمد جمال باشا الذي عرف الجميع ما جرى على يديهِ من بطش وارهاب وما قاساهُ العرب في عهده من شدّة وضيق

فمن الطبيعي في مثل تلك الاحوال ان لا يكون في البلاد العربية العثمانية أدب سياسي حرّ وان تكبت العواطف الحقيقية في اعماق الصدور . واذا أضفت الى ذلك ان الخلافة الاسلامية كان لا يزال لها تأثير عميق في نفوس المتدينين ، وان المآرب الذاتية كانت تعشّش في صدور الكثيرين فلا تستغرب ان ترى الادب العربي يومئذٍ

يلبس اثواب التعصب للسيف التركي او الخلافة التركية . خذ بيروت مثلاً فقد كانت اهم مركز ادبي في الشرق العربي (خارج مصر) ومستنبتاً خصباً للدعايات الاصلاحية . كان فيها عشرات الصحف والمطابع والمعاهد العلمية . والذي يُلاحظ ان كثيراً من الصحف العربية كانت قبل دخول تركيا الحرب تجاهر بميلها الى الحلفاء ، فلما دخلت اضطرّت امّا الى التوقّف وإما الى ممالأة السلطة . فلم يبقَ في تلك المدينة اكثر من ست جرائد . وبالطبع لم تكن اخبارها الا بلاغات تركية المانية ، ولم تكن مقالاتها الا اناشيد مدح لاعمال الدولة العلية . وانهُ لمن المدهش بل المضحك ان تقابل بين ما كانت تكتبهُ طائفة من تلك الجرائد خلال الحرب وما كانت تكتبهُ بعدها ، ولا سيما فيما له علاقة بنهضة العرب ومطالبهم القومية

ومن افضل الامثلة على الادب السياسي الحكومي في تلك الاثناء مجموعة من الخطب والمقالات والقصائد صدرت في بيروت في كتاب خاص بعنوان «البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية »[1] ففي ايلول (سبتمبر) سنة ١٩١٥ نظّمت قيادة الجيش الرابع وفداً من اكثر من ٣٠ رجلاً يمثلون سوريا ولبنان وفلسطين وشمال الجزيرة العراقية وارسلتهم الى عاصمة السلطنة للاغراض التالية[2]

١ – لعرض اخلاص السوريين وشعورهم على سدّة الخلافة الاسلامية

٢ – لمشاهدة عظمة الدولة واستعدادها الحربي

٣ – بث عواطف اهل البلاد الى اخوانهم الغزاة المجاهدين

وبعد ان قضوا نحو شهرين هناك بين مآدب تكريمية ومشاهد حربية ، وحفلات خطابية ومواقف شعرية عادوا الى اوطانهم يقصّون على الملإ ما شاهدوا وسمعوا وقد دوّنوا لنا اقوالهم ومشاهداتهم في الكتاب المذكور واليك بعض النماذج منها –

فقرات من خطب القيت في حضرة وزير الداخلية –[3] يا صاحب الدولة والفضل :–

« ان الانقلابات التي وقعت منذ نشرتم واخوانكم احرار العثمانيين القانون الاساسي في السلطنة قد علّمت الناس وولاة امورها تعاليم كثيرة . فتعلمنا بالحرب البلقانية والحرب الطرابلسية كيف نجمع شملنا ونسير في داخليتنا وخارجيتنا . حتى اذا نشبت الحرب العامة اثبتنا اننا امة لا تزال حية »

---

(١) المطبعة العلمية ١٩١٦ (٢) البعثة العلمية ص ٣٥٢

(٣) راجع الكتاب المذكور ص ٤٥ – ٥١

« كان اناس قليلون في ديار الشام يهمسون في سرهم في اوائل النفير العام بقولهم : ما لنا وللحرب ؟ ان الحياد ابقى علينا وأسلم لكياننا . ولم تكن الا مدة قليلة حتى عرف الخاص والعام بان الحرب مع دول الاستعمار كانت مقرونة لحياتنا السياسية والملية »

« كانوا يقولون ان في الحرب خراب البلاد ولكن حربنا الحاضرة والحمد لله قد عمرت بلادنا ومحصت الناس فتبين الخائن المائن من الوطني المخلص ، والخامل من العامل ، والجاهل من العالم . ولو لم توفق الحكومة الى انتداب امثال جمال باشا واخوانه الولاة لسياسة سورية اثناء هذه الازمة لتم فيها المضحك المبكي ». ومن الثاني:-

« يا صاحب الدولة - ان قدوم هذا الوفد العلمي المنتخب من خيرة علماء الدين الى دار الخلافة الاسلامية الكبرى والامامة العظمى لاداء فروض العبودية وواجب الاخلاص لعرش الخلافة الاسلامية المقدّس واهداء سلام الشعب السوري الى الابطال المجاهدين في جناق قلعة وساحات القتال واظهار ما يكنّه الشعب من عظيم الشكر لاولئك الابطال الذين دافعوا عن حوزة الخلافة وحياض الدين دفاعاً مجيداً خلّده لهم التاريخ بأحرف من نور ... لهو أنصع برهان على السعي وراء تلك الغاية الشريفة ، وتمكين عرى الرابطة المحمدية والاتحاد الاسلامي ، وتوطيد دعائم الجامعة العثمانية تحت ظلال الهلال المظفر الذي سيخفق ان شاءَ الله بفضل جهادكم المشكور عن قريب في ربوع ققفاسيا وفوق وادي النيل »

ومما قيل في حضرة ولي عهد السلطنة : -(١)« بيت عثمان ياذا الايادي البيضاء على هذه الامة انك جمعت شمل المسلمين تحت لواء الهلال المنصور قروناً وستكون كذلك ابد الدهر ، فكيف لا تتأصل محبة اركانك في قلب كل وليد »

وبعد ان يعرض الخطيب للعلاقات المتينة بين العرب والترك ولفضل العثمانيين في هذه الاخوة المقدّسة يقول - « فكنا امام العادين من دول الغرب في كل وقت نحارب معاً ونعود ظافرين ببركة هذه الاخوة ونحن اليوم كذلك في هذه الحرب الحاضرة وسنكون غداً وبعد غد والتوفيق حليف عَلَمنا الذي يظلّنا بفضلكم يا بني عثمان وحَفَظة بيضة الدين والايمان » . وعلى هذا النسق اكثر الادب السياسي المنثور او كله في ذلك العهد . ولم يختلف عنه الادب المنظوم ، ففي مجموعة « البعثة العلمية » نحو من سبع عشرة قصيدة لبضعة شعراء كعلي الرماوي وعبد الكريم عويضة ، وحسين

(١) راجع البعثة العلمية ص ٦٦

الجبّال ، وبدر الدين النعساني وسواهم وكلها ترمي الى نفس الغرض – واليك أمثلة منها . قال أحدهم من قصيدة : –[١]

يا رجالَ الملك إنا أمةٌ لا ترى عن آل عثمان بديلْ
حبّها يا وفدُ حيِّ جندها قاهر الاعداءِ بالسيف الصقيلْ
نصرَ الدينَ واعلى شأنه فغدا الاسلام في ظلٍّ ظليلْ

ومنها مشيراً الى تراجع اسطول الحلفاءِ امام قلاع الدردنيل

حيِّ قوماً ادهشوا كل الورى بثبات العزم والصبر الجميلْ
قهروا الاسطول في البحر فما ابحر الاسطول ان عاد ذليلْ
دافعوا عن حوزة الملك بما يحفظ التاريخ جيلاً بعد جيلْ
وبنو الشرق الى مصر انبروا « وجمال الدين » للفتح كفيلْ

وينوّه بذلك الى الحملة التي كان يعدّها جمال باشا لعبور ترعة السويس ودخول مصر وللشيخ الرماوي قصيدة خاطب بها جمال باشا عند عودة الوفد وهي نحو ٤٥ بيتاً وفيها يصف ما رآهُ الوفد في الاستانة ومقابلتهم لاركان الدولة هناك فيقول[٢]

فجئنا الى دار السعادة والمنى محطِّ رحال العزّ والعزّ يُقصدُ
وزرنا عميد الملك يسمو عماده وزرنا وليّ العهد بالفضل يُعهدُ
تحفّ بنا القوّاد من كل جانبٍ واقطاب دار الملك تحفى وتحفدُ
ومنها – خطبنا لهم جماً وقد خطبوا لنا وانشد منا القائلون وانشدوا
مجالس كانت كالربيع بواسماً ذكرناك فيها والحقيقة تشهدُ

***

ومنها – رجعنا وما بالقول شيء ليعربٍ ولا يعربٌ ينسى الجميل ويجحدُ
على اننا ابناء دين محمدٍ يحكّم هذا الحبّ فينا ويعقدُ

ولهُ قصيدة اخرى مطلعها

تيقظتم حزماً فأيقظتم الدهرا واعملتمُ عزماً فأدهشتم العصرا

وفيها يقول[٣] –

(١) البعثة العلمية ٦٨ (٢) البعثة العلمية ٢٦٠ – ٢٦٥ (٣) البعثة العلمية ٣٠٨

سلامٌ عليكم ما اجلَّ فعالكم — وأعظم في الايام آياتها الكبرى
سلامٌ على الدستور حلواً مذاقه — وان كان بعض الناس قد ذاقه مُرّا
حماةَ الهدى والملك لله درّكم — على الخصم قد طبّقتم البرّ والبحرا
ومنها — سعيتم فقرّبتم بني العُرب منكم — وقلتم همُ الاخوان في الضُرّ والسرّا
فكانوا لكم أزراً على كل خارجٍ — عدوٍّ وما كانوا وحقِّكم وزرا
يعدّون هذا الملك فيهم ومنهمُ — ولا ينقمون الترك سرّاً ولا جهرا
فكنتم نجاد الملك والعُرْب سيفه — وكنتم يمين الملك والعرْب اليسرى

ونختم هذه الامثلة ببعض ابيات من قصيدة لبدر الدين النعساني في احمد جمال باشا. قال :[1]

لئن أكثر المدّاح فيك القصائدا — فما بلغوا في الالف من ذاك واحدا
ومنها : رمى الله منك الانكليزَ بصارمٍ — صقيل يقدّ الهندوانيَّ غامدا
عتَوا وأبوا الا لقاءَك في الوغى — اراهم بما راموه منك حصائدا
اقاموا على شط القنال معاقلا — ستبقى لهم يوم اللقاءِ مصايدا
قطعتَ اليهم بالجيوش مفاوزاً — بها الصرصر النكباء تشكو الجلامدا
لقد عزَّ جيشٌ كنت فيهِ رئيسهُ — وعزّت جموعٌ كنت فيهنَّ رائدا
فلم ارَ مثل اليوم ارفع همةً — واعظم آثاراً واكثر حاشدا
واطهر اخلاقاً واصفى سريرةً — وانجب مولوداً واكرم والدا
وقفت على علياك فيضَ يراعتي — ونفسي وفكري والقوافي الشواردا

هذا هو الادب الحكومي الذي كان ينشر في سوريا والعراق. وهو ولئن لا يجوز اعتباره وصفاً صادقاً لحوادث ذلك العهد ورجالهِ فانه بلا شك صورة غير كاذبة لما كانت تثيره الحالة السياسية في الصدور من رهبة ورغبة او هوَس ديني . واذا عرفنا زمانه ومكانه واستطعنا ان نقرا ما بين السطور تجلى لنا فيه من المشاهد ما قد يساعدنا على فهم كثير من الحقائق

وما يصدق على سوريا والعراق قد يصدق على مصر ايضاً. الا ان المشهدين يختلفان. فمصر كانت عاطفتها كما وصفها الدكتور محمد حسين هيكل بقوله[2] — «تتجه حتى العصور

(١) البعثة العلمية ٢٨٥ (٢) مقدمة الشوقيات ج ١ (بتصرف)

الاخيرة الى جهتين — تتجه صوب مكة ومكة في بلاد العرب والنبي عربي والقرآن عربي. وهي تتجه او كانت تتجه صوب الاستانة مقر الخلافة الاسلامية والاستانة عاصمة الترك . فكل مسلم تعنيه وحدة المسلمين كان يتجه ببصره — الى حين الغيت الخلافة — نحو مكة والاستانة: يستمد من الاولى المدد الروحي ومن الثانية مدد السيف والمدفع»

ومع كل ذلك لم تحرك مصر ساكناً حين اعلن وزير الخارجية البريطاني في ١٨ ديسمبر ١٩١٤ « انه بالنظر الى حالة الحرب التي سببها عمل تركيا قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته واصبحت من الآن فصاعداً من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية . وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر الخ[1]» وما ذلك الا لان السلطة البريطانية اصبحت يومئذ الكل وفي الكل . وصار المصريون يشعرون انهم انما يعيشون في ظل سيفها المصلت . فلم يكن من الغريب ان نرى الشعراء يتبارون في التقرب من السلطان حسين كامل — كاسماعيل صبري واحمد شوقي وحافظ ابراهيم وولي الدين يكن وسواهم . وهذه قصائدهم فيه تشهد بانقلاب الحال او بالتقية حتى ان حافظاً الوطني الصميم وصاحب المواقف المشهورة قبل الحرب لم يتورع عن ان يقول في الانكليز مخاطباً السلطان[2]

فعش للنيل سلطاناً ابياً ... له في ملكه عقد وحلّ
ووالِ القوم انهم كرامٌ ... ميامين النقيبة اين حلوا
لهم مُلكٌ على التاميز[3] اضحت ... ذراه على المعالي تستهلّ
وليس كقومهم في الغرب قومٌ ... من الاخلاق قد نهلوا وعلوا
فان صادقتهم صدقوك ودّاً ... وليس لهم اذا فتشت مِثل

اما شوقي شاعر الخديو عباس (خصم الانكليز) فقد كانت قصيدته في السلطان حسين كامل « لعبة » فنية حاول فيها الجمع بين وفائه لاميره السابق والواجب عليه للسلطان الجديد وتجنب سخط الانكليز . وقد توفق الى حدّ يذكر له . اذ قال مشيراً الى عباس :

الله يعلم ما كفرتُ صنيعةً ... في ذا المقام ولا جحدت جميلا

---

(١) الهلال ٢٣ — ٣٢٦ راجع أيضاً فيه بلاغات الوكالة البريطانية

(٢) الهلال ٢٣ — ٣٣٧ (٣) نهر لندن

ثم في اعتذاره عن مدح الامير الذي حل محله

الخون اسماعيل في ابنائه ولقد وُلدت بباب اسماعيلا

ولم يستطع الا ان يقول كلمة في الانكليز فقال :

حلفاؤنا الاحـــرار الا انهم ارقى الشعوب عواطفاً وميولا
اعلى من الرومان ذكراً في الورى واعز سلطاناً وامنع غيـــلا
لما خلا وجه البلاد لسيفهم ساروا سماحاً في البلاد عُدولا
واتوا بكابرها[١] وشيخ ملوكها مَلِكاً عليها صالحاً مأمولا

على انهُ لا بد من القول ان الشعر المصري الحكومي برغم اضطراره الى مجاراة السلطة لم يبلغ في تلك المجاراة مبلغ الشعر السوري والعراقي ، بل ظل اكثر تحفظاً واقل تطرفاً[٢]. واذا كان في مصر يومئذ من غارات ادبية عنيفة على الاتراك فمنشؤها في الاكثر الاوساط اللامصرية تشهد بذلك جرائدهم ونفثات اقلامهم . ولم يكن على ما يظهر مبعثها التملق او التعصب بل الاقتناع (خطأ او صواباً) ان الخلاص من تركيا سيكون فاتحة عصر جديد يحمل الى الاقطار العربية انوار المجد والسعادة

***

اما الادب السياسي العمومي (اي ما كان خارج دوائر السلطة) فمتشابه في جميع الاقطار اذ هو منبعث عن شعور الناس بوطأة الحرب . ومن الطبيعي ان يكون اثره في مختلف البيئات بالنسبة الى شدة تلك الوطأة او خفتها ، كما يتضح لنا اذا قابلنا ما نظم منهُ في مصر بما نظم في العراق وسوريا ولاسيما بيروت ولبنان حيث بلغت المحنة اشدها . ومن شواهده تلك القصائد التي قيلت في اهوال الحرب وفظائعها كقصيدة الزهاوي « مشهد من الحرب الكبرى » ومنها[٣]

في كل ارضٍ وصقعٍ مدافعٌ ثائراتُ
يقتلنَ كلَّ فتىً قد تفيد منهُ الحيـــاةُ
وليس يبقيـــن الا اراملاً ويتامى

***

(١) اي بالسلطان حسين كامل (٢) بل كان بعضه جريئاً على السلطة المحتلة . راجع قصيدة عبد المطلب في الحرب العظمى ديوانه ١٥٩ (٣) ديوانه (١٩٢٤) ١٨٦

هناك بحرٌ خضمٌ يجري ليغمر بحرا
هناك بركان نارٍ تسعى لتأكل اخرى
هناك جيش لهامٌ يؤمّ جيشاً لُهاما

***

من قارعاتٍ صباحاً يهتزّ منها المكانُ
وبارقاتٍ مساءً يحمرّ منها الدخان
وناسفاتٍ بليلٍ يبعثنَ موتاً زؤاما

***

القتل قتلٌ ذريع والخطب خطبٌ جسام
فوق الرغام دماءٌ يحمرّ منها الرّغام
والارض تشرب منها ولا تبلّ أواما

وكقصيدة أنشدت في بيروت سنة ١٩١٥ موضوعها «متى تضع الحرب اوزارها» ومنها:[١]

ربوعُ الحضارة امست محطّ النسور ومنتجعَ الاضبعِ
وإنّ ابن آدم شرّ الضواري اذا هاجهُ هائج المطمعِ
ففي الحرب سل عنهُ نيرانها وحُمر الدماء على اليرمعِ
واشلاءَ قتلى ابادهمُ مبيدٌ من السيف والمدفعِ

ولو اردنا ان نحلّل القصائد التي تضمنت وصفاً للحرب وبلاياها لضاق بنا المقام ويكثر فيها وصف محن الناس من بؤس وجوع وخوف وترمل نساء وتيتم أطفال وما الى ذلك مما يدخل اكثره في باب العوامل الاجتماعية. ونحيل القارىء الآن الى القصائد التالية – وهي حرية بالمراجعة : من ويلات الحرب للرصافي ديوانه (١٩٣١) ٢٢٣–قطع شتى لوديع عقل ديوانه ٨٨–٩٢–بيروت في الحرب لطانيوس عبده (ديوانه ٤١)–الحرب العظمى لكاظم الدجيلي (الهلال ٢٧–٧٤٨) –المجزرة العظمى لمحمد باقر الشبيبي (المقتطف ٥٠–٥٨٦)– الحرب والمؤاساة لمحمد الهراوي (المقتطف ٥٣–٩١) – الحرب لعلي الجارم ديوانه ٢–١١٨

(١) راجعها في جريدة الحقيقة (بيروت) ٢ – ٥٩٨

النهضة العربية القومية

وأثرها الادبي

« توطئة » للعرب في تاريخهم القديم ثلاث نهضات بارزة . الاولى دينية مهدها الحجاز وقد بلغت اوجها بظهور الاسلام وانتشاره في قسم كبير من المعمور. والثانية قومية . وليس بالهيّن فصلها عن الاولى، على انها تبرز بشكل خاص في العهد الأموي ففيهِ كان للعرب سلطنة عظيمة الشأن تمتد من حدود الهند الى الاندلس . وكان العرب فيها اهل الادارة والسلطان، بسيوفهم تحاط الدولة والى خزائنهم تجبى الاموال . واما النهضة الثالثة فعلمية لغوية، وقد بدأت بالنموّ منذ ظهور الاسلام وما زالت حتى بلغت عصرها الذهبي في بغداد وبعض الحواضر الاخرى . ويراد بها ما قامت بهِ اللغة العربية يومئذٍ من نقل العلوم القديمة والتوسع فيها وما عُرف من ازدهار معارفها وآدابها

ومن المعلوم ان العرب فقدوا بعد الامويين مقامهم السياسي الممتاز في الشرق واخذوا بعد العصر العباسي الاول بالتراجع امام سائر العناصر . ولم يلبثوا في الشرق عقب انحلال الخلافتين العباسية والفاطمية ، ان دخلوا في حكم الدول الاعجمية وآخر هذه الدول السلطنة العثمانية التي يمتد حكمها عليهم من سنة ١٥١٦ م الى نهاية الحرب العالمية الاولى ١٩١٨

ولا نرى قبل القرن التاسع عشر ما يشير الى يقظة قومية للعرب ، فقـــد كانت قوميتهم في سبات عميق. واول من حاول ايقاظها على ما يظهر لاغراض سياسية محمد علي الكبير (مؤسس البيت المالك المصري) او قل ابنه ابرهيم باشا، وكان ينوي انشاء دولة عربية مركزها القاهرة[١] لكن مشروعه لم يتمّ . ولا يظهر ان البلدان العربية التي نؤرخ ادبها الحديث (مصر وسوريا والعراق) تأثرت يومئذٍ تأثراً جدّياً بهذا المشروع

(١) راجع ما ذكرناه في مستهل الفصل الاول (مقتطف فبراير الماضي) وكذلك تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعي (طبع ١٩٣٠) ص ٢٣٣ و ٢٦١

او سعت لتحقيقه ، على ان البذرة وضعت في الارض وترك للزمان إنباتها

بقي الحال كذلك الى الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ، وكانت مصر قد استقلّت بشؤونها الداخلية عن الدولة العثمانية ، والنهضة العلمية قد بدأت في سوريا ولبنان بتنشيط بعض اعلام الحكّام كراشد باشا ومدحت باشا[١] واضرابهما ، فتهيأ من كل ذلك بواعث لحركة ادبية تعبّر عن احلام العرب وخوالجهم القومية. ومن هذا القبيل جملة من القصائد والخطب الوطنية التي كان لها اثر يذكر في تخمير الافكار واذكاء الروح القومية وسنذكر شيئاً منها بعد

ومن ظواهر تلك اليقظة القومية الاتجاه نحو انشاء جمعيات تطالب بحقوق العرب في السلطنة العثمانية والحضّ على إنهاضهم ، كالجمعية التي تأسست سنة ١٨٨١ باسم « جمعية حفظ حقوق الملة العربية » وقد نشرت نداءً الى العرب من مسلمين ومسيحيين تحت عنوان « بيانامه الامة العربية » تدعوهم فيه الى الاتحاد والمطالبة بالحقوق القومية[٢] ويبدأ هذا النداء بمخاطبة المسلمين فيلفت نظرهم الى ظلم تركيا ويختم ذلك بقوله —

« فأين انتم واين هم ؟ من منكم اليوم امير ومن منكم اليوم وزير ومن فيكم اليوم مدير؟ بل كل واحد منكم فقير ، وكبيركم مثل صغيركم حقير ، والمال والآمال بأيدي الترك الخ » ثم يلتفت الى المسيحيين فيقول لهم —

« اتحدوا مع المسلمين واستعدوا لنوال حريتكم من المعتدين فان الترك يخشون بأسكم فلا يمسّونكم ولا ينتهكون حرمتكم خوفاً من القناصل . فاتحدوا بقلب مع اخوانكم المسلمين فان مرجع مصالحكم الى واحد »

ويظهر ان بعض ذوي المصالح او ذوي العطف الانساني من الاتراك كانوا يظاهرون العرب في اتجاههم القومي ، فقد ذكرت جريدة المشير ان جماعة من شبان العرب والاتراك اجتمعوا في باريس لتأسيس جمعية عربية وغاياتها[٣]

١ — ان يدافعوا عن حقوق العرب جميعاً مهما تباينت مذاهبهم

٢ — حفظ الامة العربية تحت ظلّ الراية العثمانية في وضع قانون اساسي للخلافة

٣ — ان يساوى بين العرب والترك في كل شيء

٤ — اجراء الاصلاحات الواجبة بالطريقة الواقعة (اي بالفعل)

(١) راشد باشا كان واليا على سوريا سنة ١٨٦٣ — ٦٨ ومدحت بعده بقليل

(٢) جريدة المشير ٢٩ مايو ١٨٩٥ (٣) المشير ١٩ ديسمبر ١٨٩٦

٥ – استقلال كل ولاية من الولايات (العربية) بماليتها وتخصيص ولايتها بوالٍ عربي او معاون عربي . (وهو كالنظام اللامركزي الذي كان يسعى اليه الاصلاحيون قبيل الحرب الكبرى كما سنرى بعد)

ويلوح لنا ان هذه الجمعية هي نفس الجمعية التي يذكرها سيميونسكو في جريدة الجورنال الفرنسية اذ يقول[١] « في العام ١٨٩٥ بدأت حمّى الاسلام بالارتفاع عند ما تأسست في باريس عصبة الوطن العربي وكان لهذه العصبة قاعدتان جوهريتان هما التحرر من الاجانب واتحاد البلدان العربية تحت سلطة موحّدة وزمنية »

ولعلّ عصبة الوطن العربي هي الجمعية الوطنية العربية التي يذكرها الاعظمي في كتابه « القضية العربية »[٢]. وسواءٌ صح ذلك ام لم يصح فالواقع ان العرب اخذوا منذ ايام السلطان عبد العزيز يتنبهون الى حقوقهم ويطالب احرارهم بها ، وقد تركوا لنا من آثارهم الادبية في العهد السابق لدستور ١٩٠٨ ما لا يترك مجالاً للشك في ذلك

بيد ان هـذا التنبه لم يبلغ بهم يومئذٍ مبلغ الرغبة الجدّية في الانفصال عن تركيا وجل ما كانوا يطلبونه ان ينالوا حقوقهم في الدولة . وعلى ذلك يقول المقطم سنة ١٨٩٤ بعد ان يذكر النسبة العددية بين العرب والاتراك[٣] – « ان العرب مظلومون من حيث الادارة والمناصب وان جلالة السلطان لو علم الحقيقة لانصف العرب ونحن لا نشك بحسن نية السلطان ولكننا نشك في ان هذه الحقائق تصل اليه » . وأوضح من هذا القول تصريح خليل غانم ، مبعوث سوريا في المجلس العثماني الاول (ايام مدحت) وأحد مؤسسي جمعية تركيا الفتاة في باريس ، اذ قال[٤] – « ولا نطلب انفصال العرب عن الاتراك لان ذلك يؤول الى الخراب والاندثار . بل نطلب ونتمنى من صميم الفؤاد انضمام الملتين بل ادغامهما الواحدة بالاخرى بحيث تكونان امة واحدة ، ولكن على شرط المساواة في الحقوق والواجبات »

هذه الروح المسالمة تتجلى في اقوال جمهرة العرب العثمانيين على ان العصبيّة العربية التي رأينـــا تباشيرها تلوح منذ اصيل القرن الماضي لم تقف دائماً عند حدّ المسالمة بل كثيراً ما كانت تفور في نفوس طبقة من الاصلاحيين ساخطةً على الاتراك مهيبةً

(١) عن صوت الاحرار (بيروت) ٣٠ سبتمبر (ايلول) ١٩٣٧ (٢) طبع ١٩٣١ ص ٤٨
(٣) المقطم عدد ١٧٢٨ (٤) المشير ٢٥ يناير (ك٢) ١٨٩٥ (راجع سيرته في تاريخ الصحافة لطرازي ج٣)

بالعرب الى استرجاع مجدهم التاريخي ويمثّل هــذه الطبقة اثنان همـا ابرهيم اليازجي (١٨٤٧ – ١٩٠٦) وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ – ١٩٠٢) فلننظر في الدور الذي قام به كلٌ منهما –

« اليازجي » ولقـد يعجب البعض لزجّنا ابراهيم اليازجي في هـذا المقام وهو المعروف بالتنقيب اللغوي والبعد عن تيار السياسة . على ان الذي يطالع شعره في ابان شبابه يرى فيه عربياً شديد النزعة القومية . ودليلنا على ذلك بعض قصائده التي نظمها (وهو في نحو العشرين او بعدها بقليل) فأحدثت في نفوس الناس هزة لا يزال اثرها الى الآن . ومنها ثلاث قصائد أولاها قصيدة انشدها سنة ١٨٦٨ في الجمعية السورية ومطلعها[1] –

سلامٌ ايها العربُ الكرام   وجاد ربوع قطركم الغمامُ
لقد ذكر الزمان لكم عهوداً   مضتْ قدماً فلم يضع الذمام

ويتقدم الى وصف مجالس العلم وأربابها ثم يعود الى ذكر العرب فيقول مفاخراً:–

وما العرب الكرام سوى نصال   لها في أجفن العَليا مقامُ
لعمرك نحن مصدر كل فضل   وعـن آثارنا أخـذ الانامُ
ونحن اولو المآثر من قـديم   وإن جحدت مآثرنا اللئامُ

ويأخـذ من هنا بتعداد امجاد العرب الأول في العراق والشام والحجاز واليمن والاندلس ويختم ذلك بقوله –

ولسنا القانعين بكل هذا   وليس لنا بعروته اعتصامُ
ولكنا سنجهد للمعالي   الى ان يستقيم لنا قوامُ

والقصيدة الثانية بائية وهي تلتهب حماسة ومطلعها[2] –

تنبهوا واستفيقوا ايها العربُ   فقد طمى السيل حتى غاصت الركبُ
فيمَ التعلّل بالآمال تخدعكم   وانتمُ بين راحات القنا سُلُبُ

---

(١) راجع الآداب العربية في القرن التاسع عشر لشيخو ٢ – ٣٧ (٢) راجع نصها في المشير ٢٥ ابريل ١٨٩٦ وفي مجلة الاصلاح (بونس ايرس) ٤ – ٦ وفي القضية العربية للاعظمي ١ – ٦٣ ، ولا يذكر المشير اسم ناظمها . وتعزى في سر مملكة ٧٣ الى أحد مشائخ المسلمين . أما سائر المصادر ومنها زيدان في تراجم مشاهير الشرق ٢ – ١١٩ فتتفق على ان صاحبها اليازجي

كم تظلمون ولستم تشتكون وكم — تستغضبون فلا يبدو لكم غضب

ومنها

فشمروا وانهضوا للامر وابتدروا — من دهركم فرصة ضنت بها الحقب

لأنتم الفئة الكبرى وكم فئة — قليلة تم إذ تمت لها الغلب

ثم يشير الى الاتراك فيقول :—

سلاحهم في وجوه القوم مكرهم — وخير جندهم التدليس والكذب

لا يستقيم لهم عهد اذا عقدوا — ولا يصح لهم وعد اذا ضربوا

وتأخذه الحماسة القومية فيصيح :

بالله يا قومنا هبوا لشأنكم — فكم تناديكم الاسفار والخطب

ألستم من سطوا في الارض واقتحموا — شرقاً وغرباً وعزوا أينما ذهبوا

فما لكم ويحكم أصبحتم همْلاً — ووجه عزكم بالهون منتقب

لا دولة لكم يشتد أزركم — بها ولا ناصر للخطب ينتدب

أقداركم في عيون الترك نازلة — وحقكم بين أيدي الترك مغتصب

وكلها على هذا النمط من اثارة الحفائظ والعصبية الجنسية

أما الثالثة فهي السينية المشهورة . قال سليم سركيس : « ان الذي تولى نشرها في دمشق جمعية نظمت ايام مدحت باشا . وقد كان لنشرها رنة في البلاد فارسلت التلغرافات الى الاستانة وازداد عدد البوليس السري والقت الحكومة القبض على كثيرين »[1] . ولما كانت قد نشرت كأختها البائية غفلاً من التوقيع فقد اختلف في ناظمها على ان أكثر المصادر[2] تعزوها الى اليازجي وهي قصيدة طويلة قد تزيد على الستين بيتاً وهاك بعضها[3]

دع مجلس الغيد الاوانس — وهوى لواحظها النواعس

ومنها

أي النعيم لمن يبيت على بساط الذل جالس

ولمن تراه بائساً — ابداً لذيل الترك « بائس »

ولمن ازمته بكف عداه يظلم وهو آيس

ولمن تباع حقوقه — ودماؤه بيع الخسائس

---

(١) سر مملكة ٦٧ (٢) ومنها زيدان راجع الهلال ١٧ – ٥٧٤

(٣) راجع نصها في سر مملكة ٦٤

ولمن يرى اوطانه خرباً كاطلال دوارسْ

وهنا يقف الشاعر على طول البلاد ويعدّد امجادها الغابرة ثم يقول : —

فالتركُ قومٌ لا يفوز لديهم الا المُشاكسْ
او لستم العرب الكرام ومن هم الشمّ المعاطِسْ
فاستوقدوا لقتالهم ناراً تروّع كل قابسْ

ويدعو العرب الى الاتحاد منددًا بالشقاق والتعصب الديني ومثيريه في نفوس العامة ثم يقول :

ساد الفساد بهم فسادّ الترك فيه بلا معاكسْ
كم تأملون صلاحهم ولهم فساد الطبع مائسْ
ويغركم برق المنى جهلاً وليل اليأس دامسْ
عمّت قبائحهم فأضحت لا تحيق بها الفهارسْ
حالٌ بها طاب التبسم للوغى والموتُ عابسْ
وحلا بها سفك الدماء فسفكها للجور حابسْ

ولم تكن هذه النفثات الشعرية نسيج وحدها في تلك العهود بل ظهر مثلها كثير في البلاد العثمانية والمهاجر . وكلها تنم على تخمير قومي احدثته الاحوال الجديدة في نفوس الشبيبة لذلك العهد

« عبدالرحمن الكواكبي ١٨٤٩ — ١٩٠٢ » كان هذا الاديب الحلبي اصلاحياً حرّاً . وقد اوصلته نزعته الحرة الى السجن . ثم الى هجرة توكيا والطواف في افريقيا وبلاد العرب والهند[١] . وله كتابان معروفان هما « طبائع الاستبداد » و « ام القرى » والاول دعوة جريئة الى الحرية والتخلص من قيود العادات الاجتماعية المضرة . اما الثاني ، وهو الذي يهمنا هنا ، فمن العوامل الفعالة في ايقاظ الشعور القومي بين العرب ، اذ هو يدعو الى خلافة عربية مركزها الجزيرة العربية[٢] ويسرد لذلك اسباباً كثيرة نذكر منها ما يلي[٣] : —

(١) راجع سيرته في الجزء الاول من تراجم مشاهير الشرق لزيدان — وفي اعلام النبلاء للطباخ ج ٧ . ومجلتي المقتطف والمنار (سنة ١٩٠٣) (٢) ام القرى ١٧٣
(٣) ام القرى ١٦٠

(١) عرب الجزيرة هم مؤسسو الجامعة الاسلامية لظهور الدين فيهم
(٢) عرب الجزيرة اقوى المسلمين عصبية واشدهم انفة لما فيهم من الخصائص البدوية
(٣) لغتهم اغنى لغات المسلمين في المعارف ومصونة بالقرآن الكريم من ان تموت وهي اللغة العمومية بين كافة المسلمين
(٤) والعرب اعرف الامم في أصول الشورى وفي الشؤون العمومية

وليس من شأننا في هذا المقام ان نشرّح نظرياته اثباتاً او تجريحاً وانما نحن نعرضها تدليلاً على ما كان يختلج في بعض النفوس يومئذٍ واشارة الى تلك الحوافز القومية التي تركت اثرها في الادب العربي

وقد اجمع العلماء والادباء على وصفه بمكارم الاخلاق والشغف بالحرية والاصلاح والجراة على الجهر بما يراه مفيداً لبلاده . وذهب بعضهم الى نقد عنفه ومرارة لهجته قال الطباخ[١] «ولعلّ غليان دم الشباب في فؤاده وقتئذٍ ، وتلك النفس المفطورة على الإباء المتعشقة منذ الطفولية لمحاسن الاصلاح المتطلعة اليه تطلّع الاسد الى فريسته هي التي اهابت به ان يطلق لجواد قلمه العنان في هذا الميدان ، وحال حبّه الشديد لاوطانه وشغفه العظيم بانتظام احوال بلاده بينه وبين التطلع الى امامه ، والالتفات الى ما كان حوله فكبا يراعه ، ولكل جواد كبوة وكان ما كان ، والامور مرهونة باوقاتها»

وكيفما كان الامر فان الكواكبي كما قال المقتطف[٢] «من كبار رجال النهضة الحديثة في هذه الديار الا ان المحيط لم يساعده والاجل لم يمهله حتى يتمم مقاصده السياسية والدينية .على ان النغمة التي ضرب عليها قد اسمعت بعض الناس . ولو لم يهبط مصر لكان دفن مع من دفن في تلك البلاد (اي العثمانية) ولم يُعرف عقله ولا فضله»

فالكواكبي ، كما يتبين لنا من اقواله واعماله ومن آراء اهل الثقافة فيه ، عامل قويّ من تلك العوامل التي حرّكت نفوس الناطقين بالعربية وخمّرت قلوبهم بروح الغيرة العنصرية

ومن الخطأ ان نحصر هذا العمل التخميري في هذين الاديبين فقد كان مثلهم جماعة من ذوي الاثر البيّن في النهضة القومية — منهم اديب اسحق (١٨٥٦ — ١٨٨٥) ولم

(١) اعلام النبلاء (حلب ١٩٢٦) ٧ ص ٥٢٤ (٢) مج ٢٧ — ٦٢٥

يكن اديب من المناوئين للعثمانية، وليس في ادبه ما يشتمّ منهُ روح الثورة على نظامهم السياسي. على ان فيهِ تلك الجرائيم القومية المخمّرة التي تغلب على ادب الاحرار لذلك العهد. واذا كان لا يهاجم الحكومة العثمانية كاليازجي والكواكبي فهو يجاريهما في الدعوة للقومية العربية والكرامة الوطنية. والذي يبرز في ادبهِ دأبه على تحريك الروح الشرقية وتعزيزها. فهو يناضل عنها في مصر وسوريا، وهو في طليعة المناصرين للاحزاب الوطنية الرافعين للواء الحرية. ومن الطبيعي ان يكون في رسالته الشرقية ما يهيب بمواطنيه الى احترام انفسهم باحترام لغتهم وتاريخهم. ومن أمثلة ذلك قوله من خطاب مشهور موضوعه دولة العرب[1]

«شعلةٌ سرتْ من الحجاز فأنارت الشام والعراقين ومصر والمغرب والهند واتصلت بأطراف الفرنجة فملأتها نوراً وناراً. فهي بنورها تستضيء ومن نارها تقتبس» وبعد ان يذكر فتوح العرب يقول على طريقته الخطابية: —

«فسارت اسود رجالها على طيور خيولها تطوي الصحارى وتقطع الفدافد، حتى نطحت برَوقيَ عزمها شرفات الايوان، ونسرت من الشرق نسر الرومان، ونشرت على مصر اعلامها وضربت في الاندلس خيامها»

ويأخذ من هنا بمقابلة العرب الأوَل بعرب اليوم مهيباً بهؤلاءِ الى الاتحاد، داعياً اياهم الى تلافي حالهم قبل فوات الاوان. ويقترح لهذه الغاية اجتماعاً عربياً يتذاكرون فيهِ شؤونهم ويطالبون بحقوقهم. وكأنهُ شعر بتشاؤم البعض او حذرهم من مثل هذا الاجتماع فقال منشطاً ومثيراً للهمم

«أيحسبون ذلك الصوت لا يكون له من صدى، أم يحسبون أن يذهب ذلك الاجتماع سدى. أوَلا يعلمون ان مثل هذا الاجتماع منزّهاً عن المقاصد الدينية، منحصراً في العصبية الجنسية والوطنية، مؤلفاً من اكثر النِحل العربية، يزلزل الدنيا اضطراباً ويستميل الدول جذباً وارهاباً، فتعود للعرب الضالة التي ينشدون والحقوق التي يطلبون»

وليس هذا الكلام اول ما اداه من الرسالة العربية وآخره بل في تضاعيف اقواله كثير مما يوقظ النفوس ويثير النخوة القومية

---

(١) راجعه في مجموعته (الدرر) ص ٢٠٠ — ٢٠٣

ومن هذه الطبقة الشيخ يوسف النبهاني ، ونجيب العازوري اللبناني ، وقد اصدر هذا الاخير سنة ١٩٠٥ كتاباً سماه يقظة الامة العربية استحث فيه العرب على استرداد حقوقهم المهضومة[١] والشاعر المشهور الشيخ نجيب الحداد وهو القائل من قصيدة[٢] —

آن الاوان لان اخاطر بالدم ... من لم يخاطر بالدما لم يسلمِ
أجزيرة العرب التي احببتها ... كم من اكفّ قد رمتك بأسهم
لعبت أكف الترك فيك فغادروا ... في كل قطر فيك نهراً من دم
قتلوا رجالك واستذلوا من بقي ... فبقيت صرعى لليدين وللفم
وغدا العراق مع الحجاز غنيمة ... وبلاد نجدَ سبيّة المتقسّم
فلينقذ الله العلي جنوده ... وليحفظ العرب التي لم تأثم

وقد ادرك هذه الطبقة طبقة متأخرة كان لها يد كبيرة في ايقاظ الروح القومية وسيرد ذكرهم في غير هذا المقام

بمثل هؤلاء الرواد القوميين من كتبة وشعراء اخذت النفسية العربية تستيقظ من سباتها العميق . فلم يكد فجر القرن العشرين ينبثق حتى كانت العاطفة القومية قد اخذت تحرك القلوب والاقلام . وكان لها في الادب اتجاهات ظاهرة اظهرها تلك المفاخرة بالامجاد السالفة . وتلك الغيرة الملتهبة على اللغة الوطنية والتشكي من اهمالها . كقصيدة حافظ ابراهيم « رجعتُ لنفسي فاتهمت حصاتي » . ومنها ما جاء على لسان اللغة شاكية مما المّ بها —

انا البحر في احشائه الدر كامنٌ ... فهل ساءلوا الغوّاص عن صدفاتي
ارى لرجال الغرب عزّاً ومنعةً ... وكم عزّ اقوام بعزّ لغات
سقى الله في بطن الجزيرة اعظماً ... يعز عليها ان تلين قناتي
حفظنَ ودادي في البلى وحفظتهُ ... لهنّ بقلبٍ دائم الحسرات
وفاخرت اهل الغرب والشرق مطرق ... حياءً بتلك الاعظم النخرات
ارى كل يوم بالجرائد مزلقاً ... من القبر يدنيني بغير اناة

(١) القضية العربية للاعظمي ١ – ٦٨ (٢) اوردها الاعظمي في كتابه ١ – ٤٣ ولم نجدها في ديوانه ولعلها من جملة ما كان ضائعاً من آثاره يوم نشر الديوان . وله مقالة في استنهاض الشرق تجدها في الهلال ٣٠ – ٢٣٠

ايهجرني قومي عفا الله عنهمُ الى لغـــة لم تتصل بـرواةِ
سرت لوثة الأعجام فيها كما سرى لعاب الافاعي في مسيل فراتِ

والقصيدة كلها على هذا المنوال من تعظيم العربية وذمّ المعرضين عنها الراغبين في اللغات الافرنجية[1]

ومثلها قصيدة لمصطفى صادق الرافعي موضوعها اللغة العربية والشرق وفيها يقول[2]

امٌ يكيد لها من نسلها العقبُ ولا نقيصة الا ما جنى النَّسبُ
كانت لهم سبباً في كل مكرمةٍ وهم لنكبتها من دهرها سببُ

ومنها في تقلّب الايام على هذه اللغة :

أتى عليها طوال الدهر ناصعة كطلعة الشمس لم تعلق بها الرِّيبُ
ثمّ استفاضت دياجٍ في جوانبها كالبدر قد طمست من نوره السّحبُ
ثمّ استضاءت فقالوا الفجر يعقبهُ صبحٌ فكان ولكن فجرها كذِبُ
ثمّ اختفت وعلينا الشمس شاهدةٌ كانها لعنة في الجوّ تلتهبُ
كان الزمان لنا واللّسن جامعة فقد غدونا له والامر ينقلبُ

ثم يلتفت الى طلاب الادب الاجنبي فيقول مؤنباً

انترك الغرب يلهونا بزخرفه ومشرق الشمس يبكينا وينتحبُ
وعندنا نَهَرٌ عذبٌ لشاربهِ فكيف نتركه في البحر ينسربُ
فهل نضيّع ما ابقى الزمان لنا وننفض الكفّ لا مجدٌ ولا حسبُ
إنا اذن سبّة في الشرق فاضحة والشرق منّا وان كنّا بهِ خَربُ

ويختم القصيدة بنشوة فخر فيقول

اذا اللغات ازدهت يوماً فقد ضمنت للعُرب ايّ فخار بينها الكتُبُ
وفي المعادن ما تغشي برونقه يدُ الصّدا غير انّ لا يصدأ الذهبُ

وامثال هاتين القصيدتين كثيرة في الادب العربي[3] ومصدرها كما ذكرنا غيرة

(١) ديوانه (١٩٣٧) ج ١ ص ٢٥٣ (٢) ديوانه ٢ - ٤
(٣) راجع منها قصيدة محمد الهاشمي في المورد الصافي ٧ - ٦٨

لغوية نشأت على أثر اليقظة القومية في النصف الاخير من القرن الماضي ولا تزال الى الآن . وتقترن بالغيرة على اللغة ما نظم في ابطال العرب الاقدمين ووقائعهم احياء لسالف المجد وانهاضاً لمائت الهمم . كقول الرصافي من قصيدة مقابلاً بين العرب اليوم والعرب قديماً

لهفي على العرب امست من جمودهم   حتى الجمادات تشكو وهي في ضجر
اين الجحاجح ممن ينتمون الى   ذؤابة الشرف الوضّاح من مُضر
قوم هم الشمس كانوا والورى قمر   ولا كرامة لولا الشمس والقمر
راحوا وقد أعقبوا من بعدهم عقباً   ناموا عن الامر تفويضاً الى القدر

وقد اتصلت هذه الروح بالجمعيات الادبية في المعاهد العلمية وخارجها فالتهبت بها نفوس الناشئة وأخذوا في بدء القرن الحالي يتغنون بالاناشيد الحماسية . وهاك مثالاً منها نظم ١٩٠٦ في بيروت لاحدى الجمعيات العربية : —

لغة العرب اذكرينا   واذكري ما فات
كيف ننساك وفينا   نفحة الحياة

***

يا بني الشام ومصرٍ   وبني العراقْ
هل نسيتم ذكر عصر   طبّق الآفاق

***

كنتمُ فيما تقضّي   بهجة الازمان
فلماذا اليوم نرضى   حالة الهوان

ولشيوع هذه الغيرة اللغوية والتاريخية واتقادها في الادب يومئذٍ اسباب شتى منها — (١) اطراد الانتظام السياسي بمصر وظهورها بمظهر دولة عربية متقدمة (٢) اطراد التقدم العلمي والصحافي في الاقطار السورية والعراقية (٣) ان الاتراك برغم تشديدهم النكير على طلاّب الاصلاح كانوا لا يزالون يعتبرون العربية لغة الدين والثقافة الشرقية القديمة ويعدون انفسهم من حماتها ومناصريها فلم يظهر منهم في ذلك العهد ما يرعب المتحمسين لها او يثبط عزائمهم

على ان من الانصاف التاريخي ان نعيد هنا القول ان هذا العمل التخميري الذي سرى في الاوساط الادبية قبل ١٩٠٨ لم يبلغ درجة النضج ولم يصل الى نفوس السواد من الامة . فكانت العواطف العمومية لا تزال غير منظّمة . وكان الادب العربي بين هذه الروح القومية الآخذة في الاستيقاظ ، وما ألفه من الجامعة العثمانية المرتبطة بالخلافة ، حيران لا يدري كيف يسير . فهو من جهة قومي ومن جهة عثماني تارة يتغنى بامجاد العرب ، وطوراً يتغنى بامجاد العرش العثماني . وما زال في هذا الموقف الغريب حتى فوجىء بالدستور فذهبت حيرته ومرت عليه مدة كانت العثمانية الحرّة فيها غايته المنشودة[1]

(١) وقد بسطنا ذلك في كلامنا على « الشعر الدستوري »

الحركات العربية

المنظمة وأثرها العربي

ذكرنا انه في الثلث الاخير من القرن الماضي ظهر في سوريا والعراق صيحات ادبية تهيب بأبناء العربية في السلطنة العثمانية ان يهبّوا من رقادهم ويسعوا لاعلاءِ شانهم . وقد كان لتلك الصيحات اثر يذكر في تنبيه الشعور ونفض غبار الخمول الذي تراكم عليهِ قروناً عديدة . على ان الامم العربية لم تكن قد وصلت في حياتها الاجتماعية والسياسية الى درجة التعاون المنظم . فلم تتجاوز تلك الصيحات حدّ اثارة الشعور ، بل لم يكن لها اثر بيّن الا في حلقات خاصة من أهل الثقافة . وظلّ الامر كذلك حتى أعلن دستور ١٩٠٨ فغمر البلاد العربية بموجة من الاخلاص والحماسة للوطنية العثمانية . لكن تلك الموجة لم تلبث كما بسطنا في غير هذا المقام ان تراجعت وضعف أثرها في النفوس .

وقد دلّت العربَ التجاربُ على ان القانون النظري شيء وتنفيذه شيء آخر ولعلهم ذكروا يومئذٍ خط كلخانة الذي اصدره السلطان عبدالمجيد سنة ١٨٣٩ ثم الفرمانات والعهود الصادرة بعد ذلك كفرمان ١٨٥٦ ، وفرمان ١٨٧٤ ، والمادة التاسعة من معاهدة باريس ، ودستور مدحت سنة ١٨٧٦ . وفي كلها كانت تركيا تعترف قانونياً بالتساوي بين جميع الاجناس والاديان في السلطنة . على ان ذلك التساوي لم يتمّ فعلياً

فلما ذهبت النشوة الدستورية الجديدة فتح العرب عيونهم فاذا هم والاتراك وجهاً لوجه ، واذا بينهم اختلاف مريب يثير الشكوك بنيات الاتحاديين – وهم حماة الدستور ومنفذو احكامه . فتملكهم التشاؤم ورأوا ان العهد الجديد لا يختلف عما سبقهُ وانه لا بدّ لهم من العمل . وكانوا في مطلع القرن العشرين وقد خطوا خطوات واسعة في سبيل الرقيّ ، وتهيأ لهم من اسباب النهضة ما لم يتهيأ من قبل ، فأخذ السياسيون منهم ينظّمون الجمعيات والدعايات توصلا الى نيل حقوقهم وصدّاً للتيار التركي من الطغيان عليهم

وغير نكير ان موقف الاتحاديين من الدستور لم يكن سهلا . فهم الذين أعلنوه، وهم الذين كان عليهم ان يحموه ويطبّقوه . فلم يكن غريباً ان يحصروا معظم السلطة في ايديهم وان يكون جلّ تعويلهم على العنصر التركي

وبذلك فتحوا باباً لتذمر غير الاتراك . وسرعان ما احدث هذا التذمر تعكيراً في صفوف الدستوريين من ملكيين وعسكريين ، فبدرت بين العناصر المختلفة ، كما رأينا، بوادرُ سوء الظن . ولم يكن بين الشبيبة المتحمسة من يتلافى الامر بالتي هي احسن ، فكان ما كان من تلك المشادّة العنصرية التي فرّقت قلوب العرب عن الترك وحوّلت انظارهم الى العصبية القومية

وطبعاً لم يكن عقلاء الطرفين راضين عن هـــذه الحالة التي اقلّ ما يقال فيها انها توهن قوى الدستوريين وتحرج مركزهم. فقام مفكـِّروهم يدعون الى التساهل وإزالة سوء التفاهم . ومنهم الدكتور رضا توفيق[1]. فقد صرّح سنة ١٩١٠ لمحرّرِ جريدة (بروجره دي سلانيك) بقوله –[2] « انا على اتفاق تام مع الجمعية عـلى ان البلاد في حاجة الى حكومة قوية ، ولكنني اخالفها في استخدام القوة . واذا كان وجودي في المجلس قـد قضى عليّ بان احمل عـــلى طلعت بك الممثل الاكبر للجمعية في الوزارة وصديقي ورفيقي منـذ الساعة الاولى في جمعية الاتحاد والترقي فذلـك لاعتقادي بان الواجب عليّ ان افعل ما فعلت . ولو سكت كغيري لـكان ذلـك خيانة لا يغتفرها الوطن لي . ان الدستور لا يكون الا كلمة لا معنى لها اذا لم نحترم الحرية السياسية والحقوق الاساسية وحرية القول والكتابة والخطابة ، واذا لم تعامل العناصر كلها معاملة واحدة بمقتضى احكام الدستور »

ففي كلام هذا التركي الحرّ ما يشير الى سياسة الاتحاديين التي حملت العرب يومئذ على التبرم وسوء الظن

وكما كان بين مفكري الاتراك متساهلون يدعون الى الوئام كذلك كان بين مفكري العرب فقد ذكرت جريدة الاهرام ان جمهوراً من العثمانيين في مصر اجتمعوا سنة ١٩١٠ لوداع سليمان البستاني نائب بيروت . فجرى في ذلك الاجتماع من الكلام ما يشفّ عما كان بين العنصرين التركي والعربي من توتر في العلاقات . وها نحن ننقل بعضه بتصرف عن مجلة النبراس البيروتية –[3] قـال رفيق بـك العظم « ان العرب

(١) هو عالم تركي كبير وكان من صميم الاتحاديين

(٢) ثورة العرب (المقطم ١٩١٦) ص ٥١ (٣) مج ٣ ص ٣٣٣

مهضومة حقوقهم ولغتهم ممتهنة مضطهدة » . وهو يعزو هذا لا الى الامة التركية فهي صديقة للعرب ولكن الى بعض ذوي المناصب في الاستانة . ثم يقول متحمساً . « فالواجب ان يفهموا اننا لا نصبر على هذا الضيم لانهُ يهمنا ان تحيا الدولة. إن الترك بلا العرب تزول دولتهم ، والعرب بلا الترك يؤكلون ويهضمون ، فحياة الدولة تهمّنا وتهمّهم على حدٍّ سواء »

وممن تكلموا في ذلك الاجتماع الدكتور يعقوب صرّوف فقال « ان معتقدي كان كمعتقد أخينا رفيق بك حتى قابلت اليوم العلّامة البستاني ففهمت منه الحقائق ، وانا واثق انهُ لم ينقل اليّ غير الحق. فاذا كان العرب قد حرموا الوظائف فلأنهم لم يسيروا في سلك التوظيف . وان كان قد بدر من بعض كتّاب الاتراك ما آلم العرب فذلك ليس رأي القابضين على أزمّة الامور « بل ان رأيهم عكس ذلك تماماً » ... الى ان يقول .. « فالواجب ان نعاونهم بالنصيحة ومحو سوء التفاهم ونساعدهم على ادماج جميع العناصر والطوائف حتى تصحّ الجامعة العثمانية » .

واخــذ السيد رشيد رضا يثبت ان هناك سوء تفاهم بين العرب والترك لا يجوز انكاره ، على انهُ كان يحاول ان يحصره في فئة معينة . ومما قالهُ « لا ننكر ان بعض ذوي الاغراض في الاستانة هم سبب هذا الشر »

أما البستاني فكان ينزع منزع السياسي العثماني الصميم. وقدشرع يبيّن ان هذه المشادة مبنية على الاوهام ، وان الدولة مفتوحة للعرب كما هي للترك . وفي كلامه — « أقول لكم عن ثقة وعن يقين ان قولهم ان بين رجال الحكومة من الاتراك قوماً يكرهون العرب او يضطهدونهم وهمٌ باطل اختلقهُ بعض اصحاب الاغراض والمفاسد . فالاتراك عموماً ورجال الحكومة منهم خصوصاً يحبون العرب ويجلونهم ويعتمدون عليهم في تأييد الدولة . ولا يضطهدون اللغة العربية بل هم على عكس ذلك يؤيدونها »

فيؤخذ مما ورد في هذ الاجتماع الذي كان يضم نخبة من مفكري العرب ان العرب كانوا يتهمون الاتراك بهضمِ حقوقهم والاستبداد بالامر دونهم واضطهاد لغتهم . وقد تناول جرجي زيدان ذلك في مجلة الهلال فنشر مقالاً موضوعه العرب والترك حاول فيه الاعتذار عن الاتحاديين وحمل العرب على التؤدة وحسن الظن . ومما جاء فيه[1] — « لا ننكر استخدام جمعية الترقي نفوذها في الانتخابات حتى جعلت الاكثرية من

(١) الهلال مج ١٧ ص ٤١٥

حزبها ، وانها تلكأت في اسناد الوظائف الكبرى الى العرب . ولكننا لا نحمل ذلك على رغبتها في الاستئثار بالسيادة دون العرب او غيرهم ، ولكن فعلت ذلك على ما نظن رغبة في سلامة الدولة، وصيانة للدستور الذي نالته بعد شق الانفس من ان تعبث به الايدي اذا تولاه غير اهله » ولشدة رغبة زيدان في المسالمة وعطفه على القائمين بأمر الدستور اخذ يلوم بعض مواطنيه على وقوفهم موقف العداء من اخوانهم الاتراك فيقول – « لما اعلن الدستور وجاهر الاتراك انهم يتنازلون عن جنسيتهم وامتيازاتهم رغبة في الوفاق ما كان من العرب الا السعي في تأييد الجامعة العربية . فألفوا جمعية التآخي العربي بالاستانة وأنشأوا الصحف للدفاع عن العرب والتنديد بالاتراك والتفاخر بمجد العرب ودول العرب وعلوم العرب »

وفي كلام زيدان شيء من الحقيقة لا الحقيقة كلها ، فان الذي يراجع تاريخ هذه الحركة يرى كما بينا مراراً ان العرب لم يكونوا عند اعلان الدستور اقل غيرة من الاتراك على الجامعة وان تبعة الشقاق الذي نجم بعدئذٍ واقعة على الطرفين ولاسيما على الاتراك. فزيدان نفسه يصرح باستئثارهم بالمناصب ولكنه يأخذه بحسن الظن وروح التفاؤل ولا ينتظر من كل واحد ان تكون له تلك الروح فيغضي عما كان يراه من استبداد جنسي

وقد عقد رشيد رضا في مجلة المنار مقالاً ضافياً[1] تناول فيه ما كان من سوء تفاهم بين العنصرين ففصّل اسبابه وشرح كلياته وجزئياته ثم قال متحفظاً « لا اقول ان كل ما روي من ذلك صحيح المتن والسند . ولا اقول ان ما صح منها كان بسوء النية وتعمد هضم حقوق العرب . ولكنني لا استطيع ان انكر قول من يقول انها في مجموعها تفيد التواتر المعنوي الدال على انه يوجد في رجال الدولة ورجال الصحافة التركية أناس يسيئون الظن بالعرب ولا يعطونهم حقوقهم ولا يعرفون قيمة اتحادهم بالترك واتحاد الترك بهم »

وسواءٌ كان الاتراك الملومين او كان العرب فالذي يهمنا هنا ان ذلك النفور العنصري يومئذٍ حقيقة لا مراء فيها وانه قد شغل الافكار والاقلام زمناً غير يسير ، وقد أصاب رشيد رضا اذ قال في المقال السابق الذكر « هذا ما كانت عليه البلاد في العام الماضي (١٩٠٩) . وكانت قد نجمت قرون الخلاف ولكن لم يشعر بها الجمهور فلما كثرت و كبرت تنكّر الناس في سورية ومصر وخاضت في المسألة الجرائد العربية

(١) العرب والترك مجلة المنار مج ١٢ ص ٩١٣ – ٩٣٢

حتى في اميركا ، وتبارت فيها قرائح الشعراء ، وتجاوبت فيها الاصوات حتى عمت البلاد والجهات . فاهتزت بذلك النعرة العربية اهتزازاً شديداً

ومن دلائل هذا الاهتزاز انهُ في الجلسة التي عقدتها اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي سنة ١٩١٠ قام عضو عربي منها هو عمر منصور باشا مبعوث طرابلس الغرب والقى خطاباً بالغاً منتهى الجرأة ، وفيه يحمل على الاتراك ويعزو اليهم سبب الخلاف الناشب بينهم وبين العرب فيقول متألماً[1] — « لماذا لا تتعدّون على حقوق الارمن والروم والبلغار العثمانيين . اتعرفون لماذا ؟ لانّ عند الارمن قنابل ، وللروم اليونان وللبلغار بلغاريا . اما نحن فلا يشدّ ازونا احد ولكن ثقوا انّ لنا الله ورسوله . اذا قال لكم مبعوث عربيٌ ان ابناء العرب ممتنون منكم فــلا تثقوا بهذا القول ولا تصدقوهُ . اقول لكم هذا على مسمع منكم جميعاً »

ولم يكن اندفاع هذا النائب الجريء في عاصمة الاتراك ومركز قوتهم الا لما كان يراه او يسمعهُ من اقوال غلاتهم حطاً من كرامة العربية وابنائها . ويكفي ان نذكر من ذلك على سبيل المثال كتاب « قوم جديد » لكاتب تركي اسمهُ عبيد الله . فقد ذهب في الغلوّ كلّ مذهب حتى طلب من الاتراك ان ينزعوا اسماء كبار العرب من الصحابة والتابعين عن قباب المساجد ويضعوا محلها اسماء عظام الترك[2]

ومن اقوال غلاتهم قول احدهم[3] — « ما هي العثمانية ؟ ولماذا لا نقول التركية . إن الحقيقة تغلب الخيال ، ومن المحال العقلي ان تظل هذه الشعوب المتباينة مرتبطةً بعضها ببعض وراء ستار وهمي . وتحت اسم بالٍ خلق . يجب علينا ما دام في استطاعتنا الحياة ان نعمد الى الجيش والاسطول والعلوم والآداب والشرائع والقوانين وكل شيء فنصبغهُ بالصبغة التركية المحضة »

وقد طلب احمد جودت محرر جريدة إقدام ان تنقح اللغة التركية من الكلمات العربيّة . وعلى وتره ووتر اضرابه من الغلاة كان يضرب جماعة من أولي الامر ومثيري شعور الجمهور وقد تغلبت اصواتهم على أصوات المعتدلين ، وهذا ما دفع العرب الى مقابلتهم بالمثل والكيل لهم بنفس المكيال .

والظاهر ان العرب أحسوا بهذا التنكر منذ أوائل العهد الدستوري فعمدوا الى

(١) جريده البرق (بيروت) سنة ٣ عدد ١٢٢ (٢) القضية العربية (الاعظمي) ١ — ١٠١
(٣) القضية العربية ١ — ٩٥

توحيد دفاعهم بتأليف الجمعيات السياسية وهاك اهمها[1] : —

المنتدى العربي سنة ١٩٠٩ — أسس في الاستانة على ان يكون مثابة للشبان العرب في تلك العاصمة

جمعية الفتاة (الاستانة) — وهي للعرب بمنزلة الاتحاد والترقي للترك

الجمعية القحطانية ١٩٠٩ (مصر) — جمعية سرّية غايتها بث المبادىء الصحيحة بين ابناء الامة العربية وتوحيد صفوفها

الجامعة العربية ١٩١٠ (مصر) غايتها السعي لاتحاد حلفي بين أمراءِ الجزيرة العربية ثمّ التعاون على عمران البلاد والدفاع عنها وإنشاءِ صلة بين الجمعيات العربية في سورية والعراق وغيرهما

حزب اللامركزية ١٩١٢ (مصر) غايته تبيان محسنات الادارة اللامركزية في السلطنة العثمانية

الجمعية الاصلاحية ١٩١٢ (بيروت) وهي اشبه بفرع من حزب اللامركزية وينحصر عملها في تنفيذ الاصلاح اللامركزي في ولاية بيروت

جمعية العهد ١٩١٣ (الاستانة) وهي تضم نخبة من ضباط العرب في الجيش وغايتها السعي للاستقلال الداخلي لبلاد العرب ، على ان تظلّ متحدةً مع حكومة الاستانة اتحاد المجر مع النمسا (قبل الحرب)

على ان اول جمعية عربية نشأت في ذلك العهد هي جمعية الاخاء العربي . تأسست في الاستانة سنة ١٩٠٨ . ومن غاياتها جمع كلمة الملل العثمانية المختلفة والسعي لاعلاء شأن الامة العربية وصيانة حقوق ابنـــاء العرب وتأييد الحرية والعدل والمساواة بين عناصر الامة العثمانية وإزالة الضغائن وسوء التفاهم من بينهم » الخ الخ

وكان التجانس مفقوداً بين اعضائها فلم تعش طويلاً .

ولا ننسى في هذا المقام المؤتمر العربي العام الذي عُقد في باريس (١٩١٣) وضم وفوداً من اكثر الاقطـــار والمهاجر العربية . وكانت غايته مصارحة الدولة العثمانية بتطبيق نظام اللامركزية في بلاد العرب مع المحافظة على الرابطة العثمانية

***

(١) تلخيصاً من كتاب الثورة العربية لامين سعيد ، ص ٧ — ٦٩

فالجو العربي الادبي كان في ذلك العهد مشبعاً بالاماني والحركات القومية وملائماً كل الملائمة لانتشار الدعايات ضد حكومة الاستانة . وقد كانت تلك الدعايات تنبعث عن مصدرين مختلفي الغرض هما – (١) الجمعيات العربية (٢) الايادي الاستعمارية . فالاولى لم تكن غايتها على ما يستدل من نظمها وتصريحات رجالها الا خدمة القضية العربية باعتبارها مسألة من مسائل السلطنة العثمانية الداخلية . وذلك ما يعنيه رشيد رضا بقوله عن النهضة العربية وتوجهها الى الاصلاح الديني والاجتماعي والمدني[1] – « وهي جديرة بذلك بدليل اتفاقها في سورية والعراق والجزيرة على بناء هذا الاصلاح على اساس اللامركزية الادارية اذ بذلك تحفظ حقوق الدولة العثمانية ويتمكن الارتباط بها ، وبه يعطى كل قطر حقه بحسب استعداده ومذاهب اهله » بل ذلك ما كان يعنيه اولو الامر في كل جمعية سياسية

اما الثانية (الايادي الاستعمارية) فلها غرض آخر – كانت ترمي الى تفكيك عرى الدولة العثمانية وفصل الاقطار العربية لاغراض استعمارية . ولا نشك انها سعت في تنشيط الجمعيات وحمايتها اذ رأت فيها او في بعضها ما قد يوصلها الى هدفها المنشود

ولا نستطيع ان نتثبت هنا المدى الذي بلغته علاقات اوربا بالجمعيات العربية ، بل لا ندري هل حصل قبل الحرب الكبرى تفاهم بين الاستعمار ودعاة القومية . فان هؤلاء كانوا متمسكين بصلاتهم العثمانية يتجنبون الوقوع في أحابيل الاستعمار . على اننا ندري ان اوربا كانت تمدّ يداً حريرية الملمس الى طلاب الاصلاح ، وان النفسية العربية كانت في العهـــد الدستوري (ما بين ١٩٠٩ – ١٩١٤) ظاهرة الاضطراب بدليل ما نراه من نفثاتها الشعرية المعبرة عن خوالجها والمطالبة بتحقيق أمانيها . ومن أمثلة ذلك قصيدة للشيخ سليمان التاجي الفاروقي (فلسطين) تزيد على السبعين بيتاً يخاطب فيها السلطان ويلتمس منه النظر في حقوق العرب . وهاك بعضاً منها – :

العُربُ لا شقيتْ في عهدك العربُ سيوف ملكك والاقلام والكتبُ
همُ الجبـــال فما حمّلتهم حمـــلوا لكن اذا سِمتهم ضيم النفوس أبوا

ومنها مشيراً الى خيبة آمال العرب

كنا نعلّل بالدستور أنفسنا بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقبُ

---

(١) المنار ١٦ ص ٧٧٠

حتى اذا جاء لم يحدث لنا حـدثاً ولا استجيب لنا في مطلبٍ طلبُ

ولهُ قصيدة أخرى قيلت استفزازاً لنواب العرب . وقد نشرت في جريدة المفيد « بلسان الامة العربية تخاطب أبناءها » وبتوقيع بدوي فلسطين . ومطلعها

بيُمنِ نواصيكم عقدت الامانيا ورجّيتُ ان أعلو لكم من علانيا

ومنها : بنيّ انهضوا واحيوا حياةً عزيزةً حياةً تعيد المجد للعُرب ثانيا

وبعد ان يحدّثنا عن أمجاد العرب يلتفت ثانيةً الى النواب فيقول : —

ألا نهضةٌ شرقيةٌ عربيـةٌ تزلزل أقواماً وتوهي رواسيا

وتقضي على كل امتيازٍ واثرةٍ ويصبح كل الناس فيها سواسيا

الا رجـلاً ذا مِرّةٍ فيلمّكم ويرأب صدعاً فيكم بات واهيا

يقوم فلا يرتدّ او يبلغ المنى ويقضي ولكن يبعث السيف قاضيا

وللفاروقي كثير من مثل هذه النفثات القومية . على انها مبعثرة في الجرائد اليومية السورية والمصرية . ولم نقف لهُ على مجموعة خاصة[1]

* * *

وأشد من أقواله وأعنف نفثات عبد الحميد الرافعي (طرابلس) وقد كان قبـل الدستور من مريدي ابي الهدى الصيادي شيخ السلطان عبد الحميد. فلما حدث الانقلاب وحدثت على اثره تلك المشادّة العنصرية ثار ثائره عـلى الاتحاديين ، فنظم عدّة قصائد نارية مظهراً فيها فسادهم ومهيباً بالعرب الى النهوض والتقدم ومنها قصيدة مطلعها[2]

ما تصلح الدنيا ولا ناسها ما لم يلِ الاقوامَ أجناسُها

ومنها : داركْ أمير العُرب جرثومةً للعرب قـد ادركها ياسُها

تجاوز الترك عـلى حقها والترك قوم ضاع إحساسها

ومنها : هبوا بني العُرب إلامَ الكرى وقد دها الآمال دمّاسُها

طلبتمُ الاصلاح من عصبةٍ تُوتّرُ بالإفساد اقواسُها

فكم تقيمون على ذلّةٍ وروضة الصبر ذوى آسُها

ألستمُ نسلَ القروم الألى تنتعل الهامـاتِ افراسُها

فجرّدوا العزم الذي طالما شقّ صدوراً طال وسواسُها

(١) ما نشرناه للفاروقي أعلاه هو من بعض ما تكرم بارساله الينا المرحوم ابراهيم طوقان الاديب الفلسطيني المعروف (٢) راجعها في ذكرى يوبيله ص ٨٨١

ويجري في ذلك ثم يقول مشيراً الى الدولة العثمانية وعواطف المسلمين قبلاً نحوها :-

كنا نرى طاعتها عصرَ ما   كانت تلي الاحكامَ اقداسُها

اما اليوم فقد تغيرت الحال عنده وهـا هي تقف من العرب موقف العداء ومن الدين ولغة القرآن موقف الرياء .

تحسب ان العرب اعداؤها   وهم مدى الايام حرّاسُها
عونٌ على السلم وان حاربتْ   فهم مواضيهـا واتراسها
تزعم حبَّ الدين لكنْ كما   يروّج السلعة دلاسهـــا
لو تألف القرآن ما حاربتْ   لسانه حتى التوى فاسها

وهكذا ينحي باللذع الاليم عـــلى اولي السلطة من الاتحاديين فينعتهم بالكفر والتخنث والسفالة والظلم ، ويطلب من العرب الاتحاد والتضامن دفعاً لعادية هؤلاءِ القوم المارقين الذين لشدة ظلمهم دفعوا البلاد الى هوة الخراب

من عظم ما جارت بانحائنا   أنحى على الامة إفلاسها
ما همّها في دُور حكامها   الا بأنْ تملأ اكياسها
فلنتحد فعلاً عسى همـــة   تهتاج بالتوحيد اقباسها
وتنعش الانفس من امة   تلهبت بالذل أنفاسهـــا

وقس على هذه القصيدة كثيراً من اقواله

وقد أشرنا سابقاً الى ما أثار الحفائظ من اقوال جريدتي طنين واقدام وما حاوله بعض كتّاب الاتراك الاغرار من الوقيعة بالعرب والحط من لغتهم . وكيف حرّك ذلك الشعر العربي فزخرت لججه وتلاطمت امواجه حتى كنت تراه في العراق كما تراه في سوريا والمهاجر ثائراً بالنخوة القومية مزبداً بالغيرة الجنسية . ومن هذا الشعر القومي الثائر قصيدة ليوسف حيدر البعلبكي يذكر فيها امجاد العرب ثم يقول مشيراً الى جريدة اقدام التركية[1]

فقل لجهولٍ راح يلثم عرضهم   ولم يدر ان الويل من جهلهم طرّا
خلافتكم كانت بقايا فخارهم   ونلتم هدى الايمان من فضلهم طرّا
فلا حرب ذي قارٍ صلتها سيوفكم   ولا صنتمُ عن فارس عرضكم قهرا
فدع عنك يا هذا مباراة معشر   اذا ذكروا فالكون يذكرهم بشرا

(١) راجع القصيدة في القضية العربية للاعظمي ١ - ١٠٦

ومن هنا يأخذ بوصف العرب وشرف نفوسهم ونخوتهم الجاهلية ويختم ذلك بقوله :ـ

مناقب في صدر التواريخ أثبتت متى نشرت فاحت بذكرهم نشرا
لقد أقسموا أن لا يقرّوا على أذى وقدخاب يوماًمن على الذل قد قرّا

ويصل هذا الوصف بذكر الاتراك وسوء سياستهم فيقول : ـ

يريدون منـــا ان تموت نفوسنا ونرحب في أفعال طيشهم صدرا
يريدون منا أن تطيش حلومنا وان تخفض الاصوات في مجلس الشورى

ثم يلتفت الى قومه مستفزّاً حماستهم : ـ

اليكم بني الاعراب أرفع قصتي لأبلغ فيها من لدن قومنا عذرا
لعلي أرى من عزمكم ما يسرني ومن جدّكم ما تعظمون به قدرا
عليكم سلام الله ما دام عرضكم مصوناً لديكم لا يُباع ولا يشرى

* * *

ويجاريه في هذه العصبية والدفاع عن الامة العربية عبد الحميد الرافعي فيقول في قصيدة نظمت ردّاً على تنديد الاتحاديين باللغة العربية[1] ومطلعها : ـ

شنّفْ بذكر مفاخر العربانِ سمعي وأنعش خاطري وجنــاني
فحديث آباء الفتى يُنشي بــهِ عزماً لنفخ الروح في الجثمانِ
ولربَّ آثارٍ لهم تذكارها يهب الضمائر قوة الايمــانِ
تتفاخر الاجيال في اخبــارهم والشمس لا تحتاج للبرهانِ
أهل الشجاعة والبراعة والوفا والصدق والايثار والاحسانِ
جعلوا الممالك تحت ظلّ سيوفهم متظلـــين ذوائب المرّانِ

وعلى هذا النمط يستمرّ في مدح العرب وذكر مفاخرهم ، ثم يتناول لغتهم ويبيّن فضلها ورفيع شأنها كقوله : ـ

لغة بفضل جمالهـــا وجلالهـــا شهدت شواهدُ محكَم الفرقانِ
لغة اذا أدركتَ سحر بيانهـــا أدركتَ معنى السحر في الاجفانِ

وبعد ان يصفها في عدة ابيات يلتفت الى مناوئيها فيقول : ـ

قل للألى جهلوا مكانتها وقــد كادوا لها في السرّ والاعلانِ

(١) ذكرى يوبيل الرفعي ص ١٨٠

عاديتموا ما تجهلون ولم يَعب قدر الورود كراهةُ الجعلانِ
والله يأبى ان تهان فبشروا من رام ذلّتها بكل هوانِ

اما أبناؤها الذين انصرفوا عنها الى اللغات الاجنبية فيعاتبهم بقوله :-

كل اللغات لديكِ بالغة المدى خَدَمٌ وأنت مليكة الايوانِ
ظلموكِ أهلكِ بالجفاء فأصبحوا والكلّ يمشي مشية السرطانِ
لم يحفظوا لكِ ذمّـــة وتعلّقوا بهوى السّوى ورموكِ بالهجرانِ
لكنهم غُرّوا بغيركِ حقبةً من دهرهم والدهر ذو ألوانِ
حتى اذا انكشف الغطاء وأيقظتْ مُقلَ الرجال حوادثُ الازمانِ
نهضوا وكلٌ يستعيذ بربّــهِ مما انتشى ويسبّ بنت الحانِ

ومثل ما تقدّم قصيدة لامين ناصر الدين (لبنان) نظمها سنة ١٩١٠ وفيها يقول[١] :-

أنسيتِ قدر العرب يا إقدامُ ولهم عــلى هام النجوم مقامُ
أجهلتِ ما نالوه من شرف به يسمو الزمان وتفخر الايامُ
لولاهمُ لم تجرِ فوق مهارقٍ يوماً بذكر مفاخرٍ أقــلامُ

وبعد ان يعدد مناقبهم ومفاخرهم التاريخية يقول :-

ان أسرف الحسّاد تنديداً بنا فلطالما ذمّ الكرامَ لئـــامُ
نحن الألى بَنَتِ النبوّةُ بيننا ذاك البنــاءَ فأزهر الاسلامُ
نحن الألى بلسانهم قــد أنزلت آي الكتاب وذلك الالهامُ

ثم يلتفت الى الجريدة التوكية مؤنباً ومعاتباً :-

أرسلتِ يا إقدام سهم وقيعةٍ لكن أعيدَ اليك وهو سهامُ
أكذا يقوم بخدمة الاوطان ذو قلمٍ ويطّلبُ الرقيّ همــامُ
أيظنّ أنّا نرتقي الّا إذا ضمّ العناصر ألفةٌ ووئــامُ

***

ويظهر هذا التفاخر الجنسي في قصيدة « ألواح الحقائق » لمحمــد حبيب العبيدي الموصلي سنة ١٩١٣ وفيها يقول[٢] :-

(١) ديوان صدى الخاطر (١٩١٣) ٩٣

(٢) راجعها في الادب العربي في العراق (لبطي) ١ - ١٥٢ وقد مر ذكرها في فصل سابق

يا بني الضاد إن للضاد حقاً ناطحت دون حقه الآباءُ
ان رضينا غير الكرامة ورداً غصَّ منّا بشاربيه الماءُ
ليت شعري ما ينقم القوم منّا أم على ابصار هناك غشاءُ
يشهد الله انَّ أول بيتٍ للعلى فينا شاده البنّاءُ
خيرة الله نحن في الخلق مما ولدت من أنسالها حواءُ
نحن شيء وغيرنا بعض شيءٍ نحن نورٌ وغيرنا الظلماءُ
انما ينكر الحقيقة غرٌّ أو لئيمٌ او حاسدٌ مستاءُ
نحن في الحي مهبط الوحي قدماً والينا المصير والانتهاءُ

ولو أردنا ان نذكر كل ما قيل في هذا الباب لضاقت به الصفحات الكثيرة . فقد كانت الاقطار العربية جميعاً تلهج به ، بل قد ردّد صداه الناطقون بالضاد في كل صقع من اصقاع المعمور . فمن الهند يبعث عبد الحق الاعظمي البغدادي سنة ١٩١٣ رسالة الى المنار يقول فيها[1] « ان لديه علاجاً لاصلاح حال المسلمين واصلاح البشر اجمعين . وهو وصفة مؤلفة من جزئين اوّلهما تعميم اللغة العربية في العالم الاسلامي كله وجعلها لغة التكلم والتعلم والتعامل دون سواها » . واما الجزء الثاني فهو تعزيز العنصر العربي « الذي اعزّ الله به الاسلام ورفع مقامه فوق كل مقام » . . قال — « فاذا غلب الاجانب العرب على امرهم وانشبوا براثنهم في احشاء بلادهم فلا عاصم للامة بعد ذلك من امر الله ولا ملجأ ولا منجاة لها من نوائب الدهر وغوائله » . الى ان يقول . . . « نعم ان العنصر العربي جار عليه الظالمون ونهك قواه العادون ومزّق وحدته المارقون . لكنهُ مع كل ذلك لا يزال أصلح العناصر الاسلامية للقيام بامر الاسلام واعادة مجد الانام »

وهو يدعو المسلمين الى تهيئة اسباب الوثوب للعرب لينهضوا ويتحدوا ويقودوا المسلمين اجمعين كما قادهم أسلافهم الاولون. فان البذل لمساعدة العرب على احياء مجدهم هو عين البذل لاعادة مجد الاسلام الذي ما تأسس بناؤه من قبل الا بايدي العرب ونفوس العرب وأرواح العرب وقلوب العرب »

ومن المهاجر الاميركية المسيحية تسمع ما لا يقلّ عن ذلك حماسة في الدفاع عن

(١) المنار ١٦ ص ٧٥٣

العرب وأمجادهم . يقول رشيد أيوب (الولايات المتحدة) من قصيدة يعارض فيها القصيدة النامقية التركية[١]

فنحن بنو الاعراب كنا ولم نزل بما خصّنا المولى نفوق الاجانبا

وبعد ان يذكر فضل النبي والصحابة وقوّاد الفتوح الاولى يقول مفاخراً

ألسنا الألى سادوا العباد ودوّخوا البلاد وأبدوا في الحروب عجائبا
وقصّر عن ادراكهم كلّ لاحقٍ غداة امتطوا ظهر العلى والمناكبا
فكم دولةٍ سدنا وشدنا بهمّةٍ احدّ من البيض الرقاق مضاربا

وتتعاظم حميته القومية حتى تبلغ بهِ الى قوله —

كذاك بنينا للعلوم معاهداً وشدنا لاهل الارض فيها مكاتبا
فما روت الايام من عهد آدمٍ الى اليوم عن شعب يفوق الاعاربا
فيا وطني لا زلت اول بقعةٍ من الارض أبدت للبرايا عجائبا
طويت من الآثار ما لو نشرته لضاقت بهِ الدنيا حجًى ومواهبا

واذا انتقلنا الى أميركا الجنوبية نرى النخوة العصبية في مهاجريها أبرز وأشد اتقاداً. ولا نبعد عن الحقيقة اذا قلنا ان التحمس الجنسي هو صفة أكثر أدبائها . ولولا ضيق المقام لاثبتنا أمثلة عديدة من نفثاتهم ، على أننا نجتزيء بنماذج لبعضهم — فمن ذلك قول « أبي الفضل الوليد »[٢]

ولما رأيت الناس يبنون مجدهم بكيت على آثارنا العربيةِ
نما زهرهم في روضهم متجدّداً وقد يبست أزهارنا بعد نضرةِ
لئن كان في الحرية الحلوة الردى فيا حبذا موتي لتحرير أمتي
بني أمّ هل من نهضة عربيةٍ لصيحاتها يهتز ركن البريةِ

وقولهُ من قصيدة مذكراً العرب بماضي أمجادهم[٣]

سلامٌ على العرب الخالدين سلام العلى وسلام الكرمْ
واني لأقرأ تاريخهم وقد كتبوه بحبرٍ ودمْ
فبين السطور ضياء الهدى وبين الجفون دموع الندمْ

---

(١) ديوانه الايوبيات (١٩١٦) ٣٧ (٢) ديوانه اغاريد في عواصف (الطبعة الرابعة) ١٥
(٣) ديوانه الانفاس الملتهبة (الطبعة الثانية) ١٠٢ ولهذا الشاعر دواوين أخرى وكلها تلتهب بالغيرة والعصبية

بني أم هل من نهوض لنا وهل من هيام بتلك الشيم
وهل من رجوعٍ الى عزنا فبين عظام العظام عظم
لقد فقد العرب اخلاقهم فسادت زماناً جموع العجم
فقل يا اخي العربي اذا مشيتَ معي قدماً لقدم
أحب بلادي واصبو الى رمال القفار وثلج القمم

وللشاعر القروي قصائد رائعة في هذا الباب ولاسيما في « اعاصيره » وسنعود اليها بعد . وكذلك سنذكر من آثار زملائه الجنوبيين ما يرسم لنا وسماً جلياً روح الأدب القومي في تلك الاصقاع

***

ومن الانصاف ان نقول ان الشعر العربي القومي لم يكن كله في ذلك العهد دفاعا عن محارم العرب ورداً لسهام أعدائهم في الدولة. بل منه ما نشأ عن طبيعة الحال فكانت غايته اصلاحية لا سياسية — الاعتبار بالماضي والحاضر ، وتوجيه النظر الى أسباب الرقي الصحيح كقصيدة انشدت سنة ١٩١٠ في احدى حفلات ومطلعها[1] —

كفّوا البكاء على الطلول الهمّد لبس القضاء على البلاد بمعتدي

وهي ترمي الى إيقاظ العرب للجري في سبيل التقدم الاجتماعي والقومي فتحضهم أولاً على توحيد الكلمة تحت راية اللغة : —

أبني العراق ومصر إنا امةٌ قعدت بها الايام أسوأ مقعدِ
إن فرّق الايمان بين جموعنا فلساننا العربيّ خير موحّدِ
قربتْ بهِ الاقطار وهي بعيدة وتوحدت من بعد فتّ في اليدِ

ومن هنا تجري القصيدة في وصف هـذا التقارب الادبي ثم تتطرق الى النظر في الدين وانهُ اختبار شخصي لا علاقة له بالجامعة القومية المنشودة

دعني وشأني والذي أنا عابد وكما يشا ايمان قلبك فاعبدِ
إني أخوك وان يكن ايماننا في البعد ما بين الثرى والفرقدِ

ومنها مخاطبةٌ للطائفة الكبرى في البلاد

قد كنتم اهـل البلاد وانتا كنا كذلك في الزمان الأبعد

(١) راجعها في مجلة الكلية (بيروت) مج ١ ص ١٥٩

كنتم وكنا والبلاد بلادكم وبلادنا فعلام لم نتوحّد
وإلامَ يقتلنا التعصب عن عمًى ويتيه فينا الجهل تيه السيد

واذا كان لا بدّ لرقي الشرق العربي من اتحاد لغوي لا ديني فانما يتوصل الى ذلك بترقية الشعور القومي وتربية النشء على محبة بلادهم وتكريم رابطتهم الوطنية

ربّوا البنين على احترام بلادهم فهم المرجّى للحوادث في الغدِ
قولوا لهم إن البلاد جميلة شهدتْ لها الاعداءُ أم لم تشهدِ
حتامَ نصغر في عيون نفوسنا والامَ نسعى كالسوائم الشرّدِ

اذا فعلنا فبه والّا فباطل دستورنا وباطلة مساعينا نحو العلى

ان تفعلوا فلقد يتم صلاحنا أو لا فما دستورنا بالمسعدِ
المجد للفعّال في هذا الورى والارض ملك الفارس المستأسد

ومثلها قصيدة للرصافي نظمها في الاستانة سنة ١٩١٠ وموضوعها « الى الامة العربية » . سداها ولحمتها اسف على مجد العرب الغابر وحض لهم على نفض الخمول والجري في سنن الحضارة والتقدم . والشاعر فيها وان يكن كما قال « الى اليأس احياناً أكاد أميل » ، لا يتمالك ان يختمها متحمساً[1] : —

ألستم من القوم الألى كان علمهم له كلّ جيلٍ في الانام قتيل
له همة ليس الظباة تفلها وان كان منها في الظباة فلول
ألا نهضة علمية عربية فتنعش ارواح لنا وعقول
ويشجع رعديد ويعتزّ صاغر وينشط للسعي الحثيث كسول

***

ولو دققنا النظر في روح الشعر العربي في العهد الدستوري لوجدنا انه مع شدة تحمسه للعصبية العربية ، ومفاخرته بأمجاد العرب الاقدمين كان لا يزال عطوفاً على الجامعة العثمانية ، نفوراً من صلف المستعمرين الاوربيين واطماعهم . يدلك على ذلك انه كان في اول الامر ينصر الخطة اللامركزية التي كان ينشدها الاصلاحيون اعتقاداً منه انها ترمي الى تعزيز العرب ضمن السلطنة العثمانية . فلما اشيع بواسطة الدعايات التركية ان للحركة الاصلاحية ولاسيما للمؤتمر العربي في باريس علاقة بالاستعمار ، وانها لذلك صدع

(١) ديوانه (١٩٣١) ٣٧١

للجامعة العثمانية[١] ، رأينا الشعر يقف موقف المرتاب . بل رأينـــا بعض المتحمسين يتراجعون على الاعقاب – كمعروف الرصافي فانه نظم بضع قصائد في ذلك . ومنها قصيدة موضوعها « ما هكذا » يحمل فيها على الاصلاحيين فيقول[٢] : –

أصبحت أوسعهم لوماً وتثريباً لما امتطوا غارب الافراط مركوبا
راموا الصلاح وقد جاءوا بلائحة خرقاءَ تترك شمل الشعب مشعوبا
لو كان في غير باريز تألبهم ما كنت أحسبهم قوماً مناكيبا

فاجتماعهم في باريس كان عنده مدعاة الى الاستعمار او توطئة له . وهو لذلك يتطير منهُ فيقول : –

هل يأمن القوم ان يحتلَّ ساحتهم جيش يدكُّ من الشام الاهاضيبا
يا أيها القوم لا يغرورُكم نفر ضجّوا بباريز افساداً وتشغيبا
فسوف يقرع كلٌّ سنه ندماً ويُسبل الدمع في الخدين مسكوبا

ولم يسكت الاصلاحيون عن حملات الرصافي فردوا عليه رداً عنيفاً وأجابهم بالمثل، بل بلغ به الحال ان نظم فيهم قصيدته « ليلة نابغيّة » فملأها بما يجب ان يتنزه الشعر عنه من هجو وتشنيع[٣]

* * *

وقد اتهم الرصافي يومئذ بمشايعة الاتراك تزلفاً ، او انه قد اخذ بالدعايات التركية فكان في حكمه متسرعاً . والذي يلوح لنا ان هذا الشاعر العربي لم يكن الوحيد في حذره من الحركة الاصلاحية وغيرته على الجامعة العثمانية . فقد ظهر في انحاء مختلفة من البلاد العربية مـــا يشير الى حذر المخلصين وخشيتهم من امتداد ايدي الاستعمار وتصديع جامعة الوطنية العثمانية

ومن ذلك هذه القصيدة التي أنشدت في بيروت ١٩١٣ وموضوعها «حديث خطير» وهاك بعض ابياتها[٤]

(١) راجع وصف هذه الدعايات في المنار ١٦ ص ٦٣٤ و ٦٣٥ (٢) ديوانه ٣٨١
(٣) ديوانه ٣٨٥ (٤) المورد الصافي مج ٤ ص ٣١٦

حلك السياسة حولنا متكاثف تقذى العيون به فليس بصير
في المشرق الادنى لظى متطايرٌ وسعير نار بالوبال نـــذير
علقت بأطراف الشآم شرارة منه فجاشت أنفس وصدور

وبعد وصف الحالة السياسية عموماً وحال البلاد السورية خصوصاً يقول الشاعر للاصلاحيين

أحسبتم الاصلاح أمراً هيّناً يكفيكم منهُ لحاً وقشور
فصراخكم عبثٌ اذن وضجيجكم ووعود اوربا لكم تغرير
ما مثل عاصمة العواصم ملجأ كلا وخير الابحر البوسفور

وكأنهُ يعتذر عن هذه الحركة ويحاول تفسير أسبابها فيقول : —

عرش الخلافة ما البلاد بثورةٍ مهما علا فوق الطروس صرير
ما زال يجمع اهلها تحت الهـــلال بظلـّك التوحيد والتكبيرُ

وانما السبب الحقيقي في طلب الاصلاح ان الدستور لم يطبّق كما يجب وان الحكام لا يحكمون طبقاً للارادة السنية . فكانت النتيجة تشويش الاحكام وفقد الامن واضطراب الاحوال الاجتماعية والاقتصادية : —

إن يشكوا ألماً فليس لنقمةٍ في النفس حرّ كما هوىً وغرور
او يرفعوا صوتاً فسلْ حكامهم هل يحكمون كما قضى الدستور

***

ومثل ذلك قصيدة لشبلي الملّاط انشدها سنة ١٩١٣ بمصر في حفلة تكريم خليل مطران . وفيها يذكر حرب البلقان وما طرأ على الدولة العثمانية من طوارىء . ثم يشير الى ما كان قد أشيع عن شماتة بعض العناصر العثمانية باضطراب الدولة وضعفها فيقول دفعاً لتلك الشوائع وتبياناً لموقفهم من العرش العثماني : —

أخطا الألى نسبوا لبعض عناصرٍ منها شعور شماتةٍ وتحامي
فلنحن نعلم ان عرش محمدٍ خير لنا من سائر الاحكام
بل نحن نفهم انهُ برٌّ بنا من كل محتكم من الآنام

والشاهد في هذه الابيات وما تقدمها ان الشعر كان لا يزال يرى في العرش العثماني موئلًا للشرقيين وان الاصلاح لا يعني الانفصال عنهُ والالتجاء الى امم الغرب . على ان ذلك لم يقف دون انتشار الدعوة للقومية العربية والمطالبة بحقوقها في السلطنة . وقد أعلنت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ وتلك هي العواطف السائدة في البلدان العربية . وقد علمنا في فصل سابق كيف زُجّت تركيا في أوارها وكيف عمّ الاقطار السورية والعراقية الارهاب العسكري فصمت فيها كل لسان حر وخبَتَت كل نزعة قومية

ثورة العرب

مساعيهم لتأسيس ملك عربي

حدث في اثناء الحرب الكبرى حادثان كبيران كان لهما اثر عميق في نفسية العرب وبالتالي في شعرهم ، هما اعدام الشهداء ، والثورة الحجازية . ولسنا في مقام البحث عن الاسباب التي أدت الى كليهما وانما نحن نؤرخ الواقع وأثره في ادبنا العربي الحديث

ومن المعلوم ان الدولة العثمانية لم تكن قبل الحرب عمياءَ عن الحركات القومية العربية فأخذت تبث عيونها في كل ناحية لتلمَّ بكل شيء من امرها . ولم تكن في اول الامر تظهر القسوة والشدة كما يستدل من مفاوضاتها لزعماء الحركة الاصلاحية الذين اجتمعوا في باريس برئاسة عبد الحميد الزهراوي[١]. على انها كظمت ما في نفسها خوفاً من تدخل الاجانب وجعلت تتحين الفرص السانحة

فلما اشتعلت نيران الحرب العامة والغيت الامتيازات الاجنبية اسرعت الدولة الى تفتيش القنصليات المعادية فوقع في يديها بعض الوثائق السرية وبها تمكنت ان تكشف كثيراً من اسرار الجمعيات العربية[٢] وحينئذٍ شمرت عن ساعد الجد فقبضت على جماعة من الزعماء ، وتمكن بعضهم من الفرار الى اوربا ومصر

وأحيلت الاوراق الى الديوان الحربي فحكم على نخبة من اعيان الوطنيين بالموت شنقاً . وقد نفذ الحكم في ٦ ايار (مايو) سنة ١٩١٥ في دمشق وبيروت . وحكم بالاعدام غيابياً على نحو ستين من الوجهاء ، فضلاً عمن عوقبوا بالنفي او بالسجن[٣]

---

(١) راجع صورة الاتفاق بين الطرفين في المنار ١٦ – ٣٣٩ (٢) راجع تفصيل ذلك في كتاب الثورة العربية لامين سعيد ١ – ٦٦ (٣) راجع اسماء الشهداء والمحكوم عليهم غيابياً في كتاب ايضاحات الذي اصدره جمال باشا وكتاب الثورة العربية الجزء الاول

ومن الصعب الآن ان يصف كاتب ما خالج قلوب السكان يومئذ من الهلع والنقمة . وها نحن نعيد ذكرى تلك الايام المؤلمة فيعود الى نفوسنا ما كنا نشعر به من الضغط والرهبة – شعور مخيف كان يخيم على البلاد حتى لم يكن احد يجسر على التكلم او البحث في الشؤون السياسية او اظهار الاسف على شهداء العربية

على ان ذلك الضغط التركي الرهيب لم يخلُ من فائدة اجتماعية فقد كان من اسباب التقارب بين الطوائف ، وذلك لارتباطهم بشعور عام انهم عنصر مظلوم . واثر ذلك بيّن في الشعر العربي لذلك العهد

والى ذلك الضغط وذلك الشعور الاليم بالظلم يرجع السبب في توسيع شقة الخلاف بين العنصرين التركي والعربي ، وبالتالي الى تسهيل مهمة الحلفاء في سوريا والعراق ، ثم الترحيب بهم يوم تمكنوا من الفوز على تركيا وفصل الاقطار العربية عنها . ومما يعكس لنا هذه الحال قصيدة لرضا الشبيبي نظمها على اثر طرد الاتراك من العراق وهي تحمل لنا أسفهُ بل اسف العثمانيين في العراق لسوء السياسة التركية التي أدّت الى التفرقة بين عنصري الدولة الكبيرين . وفيها يقول[1] :

يا من يعزّ علينا ان نؤنّبهم	في حيث لا ينفع التأنيب والعذَلُ
جفوتمونا وقلتم نحن ساستكم	متى مطيتها الاخفاق والفشلُ
تأبى الحوادث الا ان نملّكمُ	ولا ودين التآخي ما بنا مللُ
أما صفحنا عن الماضي لأعينكم	أما أديلت لكم أيامنا الاوَلُ

ومنها مشيراً الى حكومة الاتحاديين وسوء إدارتهم : —

قبّضتمُ لحفاظ الملك طائفة	لغيرها الملك والاجناد والدول
قوم من العرب وخز النحل حظهم	وحظّ قوم سوانا الاريُ والعسل
عنــد المغانم تنسونا ويفدحنا	من المغارم ثقلٌ ليس يحتمل
أين الرهين بأموالٍ لنا ذهبت	ومن بقيدُ باخوانٍ لنا قتلوا
إما شهيدٌ معلّى فوق شاهقةٍ	او موثق بحبال الأسر معتقل

فالشاعر هنا يعيد ذكريات الحرب وما قبلها ويعزو الى الاتحاديين ما أصاب البلاد من شقاء وما نجم من خلاف أدى الى إيهان قواها ووقوعها في يد الاعداء

***

(١) راجع كتاب «العراق في دوري الاحتلال والانتداب» للحسني ص ٥٥ وديوان الشبيبي ٣٧

ومن البديهي ان الشعر العربي في الاقطار العثمانية لم يستطع اثناء الحرب ان يبكي الشهداء كما كان يود . فلمّا وضعت الحرب اوزارها وخرجت سوريا والعراق والحجاز من المنطقة العثمانية عاد الشعراء الى ذكريات شهدائهم وصاروا يعددون مآثرهم . وقد رفعهم الشعر الى مصاف الابطال فافتنّ في تمجيدهم وتقديس أهدافهم ، كما فعل الزهاوي في قصيدته « النائحة » وهي تقارب المائة والستين بيتاً . ولا نخطىء اذا سمّيناها « معلّقة الشهداء » . ففيها يصف المشانق وقبور القتلى وأهلهم ، ويذكر أسماء الشهداء واحداً واحداً باكياً شبابهم طالباً الثأر لهم . ثم يذكر ما أصاب الناس من نفي وتشتيت . ويعقّب بذكر الثورة ودخول العرب دمشق ثم يختمها بذم جمال باشا ، والتفاؤل بعهد زاهر ينسي العرب ماضي آلامهم : واليك بعض أبياتها[1] : —

على كلّ عود صاحبٌ وخليلُ ... وفي كل بيتٍ رنة وعويلُ
علاها وما غير الحميّـة سلّمٌ ... « شبابٌ تسامى للعلى وكهولُ »
لقد ركبوا كور المطايا بجثهم ... الى الموت من وادي الحياة رحيلُ
رجالٌ عليهم من سنا الفضل رونقٌ ... وللمجد فيهم غرّةٌ وحجولُ
مشوا في سبيل المجد يحدوهم الردى ... وللحق بين الصالحين سبيلُ

***

قبورٌ ببيروت وأخرى بجلّقٍ ... تُجرّ عليـها للرياح ذيولُ
سرتْ روحهم تطوي السماء لربها ... وما غير ضوء الفرقدين دليلُ

وبعد ان يذكر الشهداء ويعدد أسماءهم وصفاتهم يقول : —

بني يعربٍ لا تأمنوا الترك بعدها ... بني يعربٍ ان الذئاب تصولُ
ولن تسكن الايام عن عصبة جنوا ... ولكن بما كالوا لهم سنكيلُ
وقد سلبوا حرية الناس مذ عتوا ... وتلك مرادٌ للحياة وسُولُ
وصبّوا دماءً من شعوب بريئةٍ ... فاخضل وهدات بها وتلولُ

ومنها مخاطباً جمال باشا : —

جمالُ لأنت القبح سمّوك ضده ... وثوبك اذ أرفلت فيه ذليلُ
تُريد لمجد العُرب فيما أتيتهُ ... زوالاً ومجد العرب ليس يزولُ
رويدك لا تغترّ بالدهر ان صفا ... ولا تأمن الايام فهي تدولُ

(١) راجعها في ديوانه او في الادب العصري (بطي) ١ — ١٨

وراءك لا تقرب رواسي يعربٍ فقرب رواسيها عليك وبيلُ

***

ولخير الدين الزركلي قصيدة نظمت (كما جاءَ في ديوانه) «على اثر اعدام الترك فريقاً من شبان العرب بسورية وقيام الثورة بالحجاز» ومنها في الشهداء[١] : —

نعى نادب العُرب شبّانَها فجدّد بالنعي أحزانَها
بكى كلّ ذي عزّةٍ تربه فهاج نزاراً وعدنانَها
فمن للمدامع ان لا تفيضَ وتسلَ كالسبل هتّانها
فجائعُ هنّ حديث القلوب وهيهات تسطيع سلوانها
ومنها : فأبكى على غرر المسلمين أباة المذلّة قرآنَها
وابكى على آل عيسى المسيح شمّ العرانين صلبانَها
نعتْ لغة العُرب من احكموا لسان قريشٍ وتبيانها
وناحتْ على من بنوا عزّها واعلوا بما أثلوا شانها

وهناك قصائد لغير هذين الشاعرين فلتراجع في مظانها[٢]

***

وكما نسمع بكاء الابطال في الوطن نسمعهُ في المهاجر . فان المهاجرين لم يكونوا يوماً اقلّ حماسةً من اخوانهم المقيمين. والذي يقرأ دواوين ابي الفضل الوليد، والشاعر القروي ، وفرحات ، والجرّ ، وصوايا وسواهم يرى من اتقاد العروبة ما قد لا يراه في البلاد العربية نفسها . واليك انموذجاً من شعر المهجر في الشهداء وهو من قصيدة موضوعها «ليحيي العرب»[٣]

بلادَ الشام غادرك الكرامُ فعيش الحرّ فيك اذن حرامُ
لقد كثرت من العرب الضحايا ولم يهتزّ في الغمد الحسامُ

ومنها مشيراً الى السفاكين حاضّاً العرب على الثورة —

وحتّام المخافة من علوجٍ لهم ذمٌّ وليس لهم ذمامُ
يرون محبة الاوطان جرماً بهِ تهوي من الاحرار هامُ

(١) ديوانه (١٩٢٥) ٦٥ (٢) راجع منها «جزار سوريا» لامين ناصر الدين في ديوانه الالحام ٥٧ (٣) ديوان الانفاس الملتهبة (للوليد) ٧٣

لقد قتلوا العواطف والمزايا ففي احشائنا منها سهامُ
أنبقى ساكتين بلا حراكٍ وللثورات حولينا اضطرامُ

ثم يخاطب الشهداء ويصف شجاعتهم لدى الموت

أيا صحبي الكرام ألا فداكم لئامٌ بعد ما قلّ الكرامُ
مشيتم باسلين الى المنايا وكان لكم على النطع ابتسامُ
ليحيَ العرب قد صحتم ومتم فصيحتكم لحتفكم دوامُ
فنحن لدى بسالتكم حيارى وأنتم فوق ذلتنا عظامُ
على أعواد مرقبةٍ رُفعتم منارات بها يهدى الانامُ
وكنتم قدوةً للشعب مُثلى فهل يُرجى له يوماً قيامُ

ويتقدّم من هنا الى مخاطبة ارواحهم ثم يختم قوله بالحكمة التالية —

وربّ ضحيةٍ أحيتْ شعوبا فكان لها انعتاق واقتحامُ
على البلوى اذن صبرٌ جميلٌ لنا آمالنا ولك السلام

وللوليد على هذا النسق عدّة قصائد عربية الروح كصدى الاجيال ، والصرخة الكبرى والدولة العربية وسواها . ومثل ذلك للشاعر القروي . ومن اقواله في الشهداء قصيدة مطلعها[1]

خير المطامع تسليم على الشهداء ازكى الصلاة على ارواحهم ابدا
فلتنحن الهام اجلالاً وتكرمةً لكل حرٍ عن الاوطان مات فدى
يا انجم الوطن الزهر التي سطعت في جو لبنان للشعب الضليل هدى
قد علقتكم يد الجاني ملطخة فقدست بكم الاعواد والمسَدا
بل علقوكم بصدر الافق اوسمة منها الثريا تلظى صدرها حسدا
أكرم بمجبل غدا للحرب رابطة وعقدة وحدت للعرب معتقدا

والقصيدة كلها — كأكثر شعر القروي — غيرة وطنية متقدة ، واذكاء لنار الحمية القومية في صدور الشبيبة العربية . وقد اتخذ الوطنيون في سوريا ولبنان يوم ٦ ايار (مايو) عيداً تذكارياً عاماً . ففي بيروت كما في دمشق يقيمون كل عام مهرجاناً حافلاً يلقون فيه الخطب والقصائد ذاكرين اولئك الوطنيين الذين ضحي بهم على مذبح السياسة

(١) راجع ديوانه الاعاصير ص ٥٥

والقومية ولو جمع كل ما قيل فيهم منذ انتهاء الحرب الكبرى الى الآن لملأ مجلداً ضخماً . فلنقف هنا عند حد الاشارة اليها

***

اما الثورة الحجازية (او العربية) فقد اعلنت في مكة في ٢ حزيران سنة ١٩١٦ . والذي يطالع ما نشر من الكتب والرسائل عنها (عربي وغير عربي) يصل الى النتائج التالية –

١ – ان الشعور العربي القومي الذي شهدناه يتأجج عقب اعلان الدستور حتى توصل الى المطالبة باللامركزية خبا في اول الحرب . ولكنه لم يلبث ان تحول الى كراهية للترك ورغبة في التخلص منهم لضغط الاتحاديين في اثناء الحرب

٢ – ان العلاقة بين الاستانة ومكة كانت على شيء من التوتر وقد زادها توتراً اتصال شريف مكة بالجمعيات العربية

٣ – ان الحلفاء وأخصهم بريطانيا تمكنوا من اجتذاب الشريف حسين بن علي اليهم بوعود خلابة منها انهم يساعدونه على استقلال العرب وتأسيس مملكة عربية

٤ – وبناء على هذه الوعود اعلن الحسين الثورة على الاتحاديين فاشترك العرب فعلاً في الحرب الكبرى

وقد كان لهذه الثورة في البلدان العربية (ما عدا مصر) نتائج معنوية خطيرة اهمها انها اذكت في نفوس الناس العصبية الجنسية ، ووضعت في ايديهم سلاحاً فعالاً للمطالبة باعادة مجدهم التليد

فاصبح الملك حسين في الادب العربي (في سوريا والعراق) بطل العرب والمطالب الاكبر بحقوقهم . وانا نلفت النظر هنا الى منشور الثورة[1] الذي اذاعه باسطاً فيه الاسباب التي حفزته الى مقاتلة الاتحاديين ومنها اضطهادهم للغة العربية ، وقتلهم لكثيرين من نوابغ النهضة القومية وما قاموا به في البلاد العربية من نفي أسر وافراد ومصادرة اموال ومتاجر ، وغير ذلك من الاعمال المنكرة

وقد اشترك في هذه الثورة عدد غير قليل من السوريين والعراقيين ، وبينهم نخبة من ضباط الجيش التركي سابقاً . ولا بدع فقد اعلن الشريف وانها عربية تشمل كل عربي

(١) راجع المنشور في الثورة العربية (امين سعيد) ١ – ١٤٩ وفي كتاب الوثائق والمعاهدات لجريدة الايام الدمشقية ص ٣٦

كائناً من كان على شرط ان يكون صادقاً لوطنه مخلصاً لقومه »[١]

ولا شك ان الاتراك بذلوا جهدهم لاخماد الثورة . وقد استطاعوا في اثناء الحرب ان يكمّوا افواه الناس في سوريا والعراق عن نشر اخبارها . بل ان يحملوهم على التشنيع بها . على انها كانت في الحجاز قوّة فعّالة ، وكان للادب نصيب كبير فيها . وممن رافقوا الثورة وتغنّوا بها فؤاد الخطيب فقد اوحت اليه بكثير من الشعر الحماسي . كقوله من قصيدة حيّى بها استقلال العرب ونهضة الحسين ومطلعها[٢]

حيّ الشريف وحيّ البيت والحرما ... وانهض فمثلك يرعى العهد والذمما
يا صاحب الهمّة الشمّاء انت لها ... ان كان غيرك يرضى الأين والسّقما

ومنها مخاطباً الاتحاديين —

يا آل جنكيز ان تثقل مظالمكم ... على الشعوب فقد كانت لهم نِعما
فالظلم ايقظ منهم كلّ ذي سِنَةٍ ... ما كان ينهض لولا انه ظُلِما

ومنها مشيراً الى اشتعال الثورة في الحجاز —

فمن يكن عن اباة الضيم في صمم ... فليسمع اليوم صوتاً يحسم الصمما
فقد تكلم صوتُ النار مرتفعاً ... من الحجاز فشقّ البيد والأكما
يا ابن النبي وانت اليوم ناصره ... قد عاد متصلاً ما كان منفصما
والتفّ حولك أبطالٌ غطارفةٌ ... شمّ الانوف يرون الموت مغتنما
فاصدمْ بهم حدثان الدهر معترضاً ... صدّاً من الترك ان تعرض لهُ انهدما

ثم يلتفت الى العرب مستفزّاً حميتهم ومذكراً اياهم بالمجد الغابر

إيه بني العرب الاحرار انّ لكم ... فجراً أطلّ على الاكوان مبتسما
من ذلك البيت، من تلك البطاح ، على ... تلك الطريق مشت أجدادكم قدما
من كل أروع وثّابٍ اذا انتسبتْ ... بيض الصوارم كان الصارم الخذِما
لستم بنيهم ولستم من سلالتهم ... ان لم يكن سعيكم من سعيهم امما
الى الشآم، الى أرض العراق ، الى ... أقصى الجزيرة سيروا واحملوا العلما

ومثل الخطيب خير الدين الزركلي . ومن نفثاته في هذا الباب قوله سنة ١٩١٨ من قصيدة عنوانها العرب والترك يصف فيها فظائع الاتراك[٣] —

(١) كتاب ثورة العرب (المقطم ١٩١٦) ٢٣١ (٢) كتاب ثورة العرب (المقطم ١٩١٦) ٢٤٦
(٣) ديوانه ٨٣

عتا أحفاد جنكيز فساقوا سلائل يعربٍ سوق العبيدِ
فكم قتلوا من الاخيار صيداً وكم ساموا المهانة من عميدِ
وكم حملوا على الاعواد ظلماً وكم سقوا المنية من شهيد

ثم يشير الى الثورة فيقول : —

الى أمّ القرى عدتِ المذاكي وفي أمّ القرى خفقُ البنودِ
بروقٌ في الحجاز ومضْنَ وهناً فكان بجلقٍ قصف الرعودِ

ويقول من قصيدته « الشهداء » وقد مرّ ذكرها : —

أبى السيف الا انتقاماً لها وخاف على الضيم خسرانها
أثار بني هاشمٍ في الحجاز وأنطق في الترب حسانها
كتائب هبت تلبّي الدعاة وتطوي القفار وكثبانها
برمحٍ يرنّ وعضبٍ يئن يثُبته في الترك وسنانها
هو الثأر أدركه الثائرون اشجى فروقاً وسلطانها

وقصائد هذين الشاعرين نموذج لما نظم في الثورة والقائمين بها . ومن الذين اشادوا بالثورة العربية عبد المحسن الكاظمي وديوانه ينضح بروح العروبة وذكرى امجادها التليدة(١)

وما نراه في الوطن نراه في المهجر فقد حركت الثورة هناك الشعر العربي فتبارى زعماؤه في وصفها وتعديد حسناتها ، وتمجيد من اوقدوها . كقول رشيد ايوب(٢) —

من اقاصي الروم نهديك السلام مع نسيم السَّحَرِ
يا شريفاً كلما ناح الحمامْ فوق غصن الشجر

صاحب السيف الصقيل المستهاب في دياجي المحنِ
انت من قوم لهم تعنو الرقاب من قديم الزمنِ

خضتها حرباً على الباغي تدور بكماة اسُد
وتركت الترك اصحاب الفجور عبرة للابد

(١) راجع ديوانه ج ١ ص - ١٩٠ و ١٩٧ (٢) الايوبيات ٦٩

فأدر يا ايها الساقي الكؤوس جـاء وقت الطـربِ
واسقنا من خمرة تجلو النفوس من ظـلام الكُرَبِ

واصغ للبلبل ان لاح الصباحْ صـاح فوق القُضُبِ
فلتعش للعزّ في تلك البطاح دولـة العَرَبِ

وهذا الشاعر من مهاجري السوريين في الولايات المتحدة وهم عموماً أقل تأثراً بالحركة العربية من مهاجري أميركا الجنوبية كما يشهد بذلك شعرهم المنشور في الدواوين والصحف وقد ألمنا وسنلم أيضاً بشيء من اقوال هؤلاء « الجنوبيين » الذين كان لهم يد تذكر في إضرام الروح العربية وحفظ الشعلة القومية بين ابناء العرب في تلـك الاصقاع.

ولما انسحبت الجيوش التركية من الاصقاع العربية ودخل العرب الشام بقيادة فيصل في ٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٨ أخذت الشعرَ نشوة الظفر حتى كنت تراه في دمشق وبيروت والقدس وسائر الحواضر تتدفق الحماسة منهُ تدفّق السيل كقول متحمّس من قصيدة — (١)

أجل بزغت في الشرق شمس الحقائق برغم العـدى والمزعجات الطوارقِ
غداة انتضى العضب المهنّد فيصلٌ بكل كميٍّ رابط الجأش صادقِ
لعمركَ ما العرب الكرام يهولها صليل المواضي او دويّ البنادقِ
ولا راعها ما جرّعت من مرائر وقد نصبت قدماً حبالُ المشانقِ

وقول الزهاوي من قصيدته الناجحة (وقد مرّ ذكرها) —

وجاءت خيول العُرب تعدو وراءها بمقربة للانكليز خيولُ
هنالك اهل الشام صاحوا وكبّروا وكبّر اعلامٌ بها وسهول
وكان لاخذ الثأر قد ثار ضيغمٌ له في مغار الغابتين شبول
اغرّ كريم الاصل من فرع هاشم فطاب له فرع وطاب اصولُ

ويقول امين ناصر الدين في « الالهام » من قصيدة موضوعها يوم الصلح : —

فيالك يوماً فيه وثّق للورى عرى الصلح رهط صادق العزم حازمُ

---

(١) ديوان حماسيات للعاملي ٦٧

فنيلت حقوق واستقلت ممالك وأنصف مظلوم وجوزي ظالمُ
نهضت بهم من وهدة اليأس جملةً فعيشهم غضّ الجوانب ناعمُ
طلعت عليهم والوجوه عوابس ولم تمض الا والثغور بواسمُ

وقول اسعد خليل داغر من قصيدته «تاريخ الحرب الكبرى» في فتح سوريا : —

بشراكِ سوريةُ العزيزةُ فافرحي وتهللي بخلاص شعبك واطربي
فالله سؤلك قد اجاب فبالغي ما شئت في حمد الاله واطنبي
وعلى الألى نحوك آيات الثنـــا صوغي وعن قدر الصنيعة أعربي
اني لمنقذكِ العظيم لشاكرٌ وبنصرهِ هذا لأكبر معجب

وفي ٢٣ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩١٨ احتفل العرب احتفالاً باهراً برفع العَلَم العربي في المكان الذي شنق فيه شهداؤهم، فكان لرفعه هزّة ادبية عظيمة وهي تتجلّى في عشرات القصائد والخطب التي جاشت بها خواطر الادباء من جميع المذاهب. واليك منها هذه القطعة الحماسية وهي من مخمس للشيخ مصطفى الغلاييني(١)

رايةَ العُرب رايةَ المدنية رايةَ المجد رايةَ الحرية
انت مهوى آمالنا الوطنية ومنارٌ يهدي السبيلَ السوية
دمتِ فينا مدى الزمان عليّه

بكِ نحمي الحمى المفدّى ونجني ثمراتٍ تحيي القلوبَ وتُغني
ونرجّي الحياة في روض امنٍ وارفٍ ظله خصيب اغنّ
في حمى دولة العلى العربية

ومن هذه الحماسات قول شاعر مسيحي من موشح(٢)

ايها الابطال حيوا العَلَما واحملوه
وانصبوه فوق اسوار الحمى واحرسوه
كن لقومي رمز مجدٍ وعلاء في الامم
وتموّجْ فلك الشعب فداه يا عَلَم

(١) راجع قصيدته «نشيد الحرية» في ديوانه (٢) حليم دموس . ديوانه – ٣٠٧

وبعكس شعور المهاجرين قول ابي الفضل الوليد من قصيدة موضوعها نشيد العلم [١]

العُرب حولك جندٌ ايها العَلَم　　منهم تآلفت الاوطار والهمم
من خضرةٍ وبياض نعمة وهدى　　وحمرة وسواد نقمة ودمُ
الوانك استكملتْ امجاد مملكة　　فيها تلاقى النهى والبأس والكرم
اليك نرنو وفي اجفاننا عِـبرٌ　　وفي القلوب شعور بات يحتدم
من الحجاز الى ارض الشآم الى　　ارض العراق لك الآفاق تبتسم
اذا طلعت تطلّعنا الى شرف　　وعزة فاطلّت حولنا الامم

وقس على هذه الامثلة القليلة ما لو أثبتناه لما وسعته عشرات الصفحات

***

كان الحزب العربي يأمل تأليف سلطنة عربية تضم الشام والعراق والحجاز وسائر الجزيرة العربية تحت العَلَم الهاشمي . فتكون هذه الاقطار امارات مستقلة في اداراتها الداخلية ولكنها مرتبطة بعرش واحد يجلس عليه الحسين وأولاده من بعده . وكان هذا الحزب يوالي دولة بريطانيا العظمى ويعتبرها سنداً للدولة العربية وحليفة لها على طوارىء الزمن

فلما انقضى العام الاول على تأسيس حكومتهم في دمشق ظهر لهم ان ثقتهم بوعود الحلفاء لم تكن قائمة على أس ٍ ركين، وان ألاعيب السياسة الاستعمارية لا يؤمن شرها، فاخذ التشاؤم يتسرب الى نفوسهم . وبعد أن كانوا بالامس يطفرون طرباً لذكر الثورة والعَلَم العربي والسيادة القومية ، وقفوا يتهامسون بما سيؤول اليه أمرهم . وطبيعي في مثل تلك الحال أن يمس زهرة شعرهم القومي شيء من الذبول — مسحة من الشعور بالظلم . وعلى ذلك قول الزركلي سنة ١٩١٩ من قصيدة مطلعها : — [٢]

فيمَ الونى وديار الشآم تُقتَسَمُ　　أين العهود التي لم تُرعَ والذِّمم

وهي أكثر من اربعين بيتاً ، وقد يصل فيها شعوره الى درجة الثورة على الظلم فيقول متوعداً —

اليَّة بسماءٍ ظلّلت وطـني　　وأنبتت عشبه بالغيث ينسجم
لئن تولّوا رعينا حسن ودّهم　　وصين منا ومنهم في العروق دمُ

(١) الانفاس الملتهبة ١٣٠　(٢) ديوانه ١٥

وأشد من ذلك قول الغلاييني في دمشق سنة ١٩٢٠ –[١]

هبّوا فأمتكم أمست على خطرٍ جارت عليها الاعادي جور مُنتقمِ
حتى تسيل ربوع الشام مُفعمة دماً يسيل الردى في سيله العَرِمِ
وذمّةِ العُرب والايام شاهدة لنصرنّ الوغى في السهل والعَلَمِ
حتى يخلّوا بلاد العُرب أجمعها من ساحل الروم حتى ساحل العجم

***

ولم يكن شعراء المهجر أقلّ من شعراء الوطن شعوراً بمكائد الاستعمار وخوفاً من ضياع الآمال . ففي الحفلة الكبرى التي احياها الحزب الوطني السوري في بونس ايرس سنة ١٩٢٠ احتفالاً بتسنم فيصل عرش سوريا القى الدكتور جورج صوايا قصيدة حماسية قال فيها مخاطباً الامة العربية[٢] –

يا امتي جاهري بالحق لا تجمي ونازعي الخلق بقيا مجدكِ الهرِم

ومنها مشيراً الى فيصل والعَلَم العربي –

قد قام فينا صلاح الدين ويحهم فليقحم الشام من قد قال لم يقم
ففيصل العُرب مستلّ بساحتها في حده الحدّ بين الذل والشمم
يا ايها الشعب دافع عن كيانك لا تجبنْ وذدْ بالقنا عن مجد ذا العلم

وقد حملت الحماسة شاعراً كبيراً من شعراء المهجر ان يطلب من وطنه لبنان الانضمام الى الدولة العربية في سوريا واليك بعض قوله في ذلك[٣]

فانْ لم ترضَ بالعُرب اتّصالاً فلا تجعل جزاء الخير شرّا
ولا تطلب لاوربا انتصاراً على الشعب الذي ولاّك نصرا

ويقول مخاطباً فيصل –

أفيصلُ والمطامع محدقاتٌ بنا وحوادث الايام تترى
فلا تترك لذي طمع علينا يداً تخفي وراءَ الحلو مرّا

---

(١) ديوانه ٦٦ (٢) ديوانه همس الشاعر ص ١٠٥

(٣) الياس فرحات – راجع مجلة الاصلاح (بونس ايرس) مج ٢ عدد ٨

ثم يتطرق الى ذكر الاحزاب واختلافها والى آمال الوطنيين الاحرار فيقول متوعداً –

وان نفشل ويغشى الشام ضيمٌ جعلنا الشام للافرنج قبرا

ولهذا الشاعر الوطني كثير مثل ذلك

ومن يراجع الشعر العربي السياسي في السنتين التاليتين للحرب (١٩١٩ و ١٩٢٠) يجده واحداً في جميع الاوساط السورية والعراقية – نقمة على سياسة اوربا في الشرق[١] ودعوة الى الجهاد في سبيل الاستقلال والمحافظة على كرامة العَلَم العربي. ولعل اهم ما اثار النفوس في ذلك الوقت واقعة ميسلون وما كان من بسط الانتداب على البلاد السورية – ثم الثورة العراقية والهابها العصبية القومية على ضفاف الرافدين (وستذكر في باب خاص)

***

اما مصر فكانت مشغولة باحوالها الخاصّة – كان شعرها السياسي منصرفاً الى محاربة الاحتلال، وتوجيه نظر الامة الى الاستقلال. وبرغم ما كنا نراه يومئذ لبعض ادباء المصريين من العطف على القطرين الشقيقين (سوريا والعراق) لا يسعنا الاّ ان نقول ان الرأي الادبي العام في وادي النيل لم يكن عربيّ النزعة – بل نذهب الى ابعد من هذا فنقول انه كان ناقماً ثورة الحسين على الخلافة العثمانية، تلك الثورة التي انتهت بانتصار الحلفاء وتعزيز الاحتلال (عهدئذٍ) في مصر. ولذا وقف الشعر المصري ازاء القضيّة العربيّة وقفة المُعرض نافضاً يده من كل ما له علاقة سياسية أو قومية بسائر البلدان العربية.

ويؤيد قولنا هذا ما صرّح به مصريّ صميم[٢] اذ قال في حفلة تكريم الوفد العراقي سنة ١٩٣٦ مشيراً الى هذا الموقف والى تحوّل الشعور المصري[٣] –

« منذ عشرين سنة أو نحوها كان اكثر المصريين اذا ذكر البلدان العربيّة ذكرها في شيء من الموجدة يشبه الالحاد». وبعد أن يذكر أن نظرهم الى الاقطار العربية لم

(١) يمثل ذلك قصيدة « المشرقية » لناصر الدين – ديوانه الالهام ١٨٢

(٢) محمد توفيق دياب منشىء جريدة الجهاد (٣) راجع خطابه في صوت الاحرار عدد ٧٦٣

يكن يختلف عن نظرهم الى أي قطر شرقي – كاليابان او الصين مثلاً – يقول – وتلك المرحلة الاولى كانت مرحلة الوساوس والشكوك[1]. فلما توالت الخطوب دراكاً على الاخوات المتقاطعـــات استيقظت روح الايمان من سباتها العميق فاخذت الالسنة والاقلام العربية كلما ذُكرت العروبة وآلام الشقيقات ذكرتها مصحوبة بشعور من الاخاء لم يكن قبل موفوراً »

***

وقد كان الشعراء في سوريا والعراق حتى في « مرحلة الشكوك والوساوس » التي يشير اليها الاستاذ دياب اعطف على القضية المصرية . على ان تحول الشعور المصري الاخير نحو الشقيقات العربية قد زادهم حماسة واهتماماً وسنرى بعد كيف يظهر ولاءهم للوطنية المصرية وقدرهم لجهادها .

---

(١) يؤيد ما ذكره الاستاذ دياب عما كان عليه الشعور المصري سابقاً تصريح للدكتور طه حسين . راجع « المكشوف » بيروت عدد ١٧٥

المشادة

بين الانتداب والاستقلال

وضعت الحرب الكبرى أوزارها وللوطنيين في البلدان العربية ، ولاسيما مصر وسوريا والعراق ، آمال قومية واسعة . على ان عصبة الامم لم تلبث ان قررت ان هذه البلدان لا تزال في حاجة الى وصاية او ارشاد بعض الدول الكبرى . وهكذا وضع نظام الانتداب او الحماية (سمّه ما شئت) . فاعترى الشرق العربي شعور عام بالخيبة واستفزّ ذلك العناصر الوطنية فهبت تسعى لنيل أمانيها . وهذه المساعي هي أساس العوامل التي كان لها أعظم اثر سياسي في شعر الحقبة الاخيرة . وهي تظهر في اربع ظواهر رئيسية : —

١ — كفاح القومية المصرية
٢ — الثورة العراقية
٣ — الثورة السورية
٤ — المشكلة الفلسطينية

ولنلق نظرة عجلى على كلّ منها

« كفاح القومية المصرية » وهو قديم يرجع عهده الى بدء الاحتلال البريطاني، على ان أول من نظّمه وأول من وحّد الاتجاهات الوطنية مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني . وقد صدق امين الرافعي إذ قال[1] — « تبددت بمصطفى كامل كلّ الاباطيل التي كان خصوم مصر يذيعونها عن الروح الوطنية في البلاد ، وكان احتفال الامة بجنازته أروعَ مظهر اثبتت به مصر أنها أمة حية لا تستطيع ان تعيش الا امة مستقلة »

(١) ابطال الوطنية (رضا) ١٩٢٣ ص ١٥

وقد الهب مصطفى كامل الشعر العربي في مصر وفي غير مصر وجرّأ الشعراء على مهاجمة المحتلين ومطالبتهم بالجلاء ، كما دفعهم الى التغني بالحرية والكرامة القومية فلا بدع ان نرى في الشعر العربي عند موته اتقاداً تتأجج فيه العواطف القومية كقول حافظ ابراهيم من بائيته المشهورة في ذلك الزعيم — :

هنيئاً لهم فليأمنوا كلّ صائح — فقد أُسكت الصوت الذي كان عاليا
ومات الذي أحيا الشعور وساقهُ — الى المجد فاستحيا النفوس البواليا
شهيد العلى لا زال صوتك بيننا — يرنّ كما قد كان بالامس عاليا
يناشدنا بالله ان لا تفرّقوا — وكونوا رجالاً لا تسرّوا الاعاديا

وأشد من ذلك قصيدته في حفلة تأبينه ومطلعها[1] :—

نثروا عليك نوادي الازهـــار — واتيتُ انثر بينهم اشعـــاري
زين الشباب وزين طلاب العلى — هل انت بالمهج الحزينة داري
غادرتنا والحادثات بمرصد — والعيش عيش مذلة وإسار
ما كان احوجنا اليك اذا عدا — عادٍ وصاح الصائحون بدارِ

ومنها: قم وامح ما خطّت يمين كرومرٍ — جهلًا بدين الواحد القهّار
جزع الهلال عليك يوم تركتهُ — ما بين حرّ اسىً وحر اوار
متلفتاً متحيّراً متخيّراً — رجلا يناضل عنهُ يوم فخار

وقصيدته الذكرى ومطلعها :[2]

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا — واقضوا هنالك ما تقضي بهِ الذمم
ومنها: هنا الكميّ الذي شادت عزائمه — لطالب الحقّ ركناً ليس ينهدم
لبّيك نحن الألى حرّكت انفسهم — لما سكنت ولما غالك العـــدم
قبل اسكتوا فسكتنا ثم انطقنا — عسف الجفاة وأعلى صوتنا الألم
لبّيك إنا على ما كنت تعهده — حتى نسود وحتى تشهد الامم
فيعلم النيل انا خير من وردوا — ويستطيل اختيالاً ذلك الهرم
يا ايها النشء سيروا في طريقتهِ — وثابروا رضيَ الاعداءُ ام نقموا
فكلكم مصطفى لو سار سيرته — وكلكم كامل لو جازهُ السأم

(١) ديوانه (١٩٢٢) ٣ — ١١٠ (٢) ديوانه (١٩٢٢) ٣ — ١١٧

ولشوقي في رثاء مصطفى كامل قصيدة مشهورة مطلعها –

المشرقان عليك ينتحبان   في مأتم قاصيهما والداني

وهي من عيون الشعر. ويدور اكثرها على مآثر الفقيد وشخصيته ومنزلته في قلوب الناس. ومثلها قصيدة لخليل المطران تجدها في ذيل ديوانه مطلعها «اعلى مكانتك الاله وشرّفا». وهي اكثر من تسعين بيتاً عامراً وتُصوّر الفقيد زعيماً وطنياً ضحى بحياته في سبيل بلاده كقوله

مصر التي كافحتَ لُدّ عُداتها   متصدراً لرُماتها مستهدفا
مصر التي سقت الجيوش مناقباً   ومُنىً لتكفيها المُغير المجحفا
عرّفت اهليها حقيقة قدرهم   وكفاهمُ من قدرهم أن يُعرفا

ومن المراثي التي تذكر قصيدة احمد نسيم – ما بال دمعك لا هام ولا جار[1] –

وبمناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة مصطفى كامل نرى لشوقي قصيدة تنضح بالوطنية كقوله يخاطب الفقيد[2]

لك الخُطبُ التي غصّ الاعادي   بسورتها وساغت للندامى
فكانت في مرارتها زئيراً   وكانت في حلاوتها بغاما
بك الوطنية اعتدلت وكانت   حديثاً من خرافة او مناما
بنيت قضية الاوطان فيها   وصيّرت الجلاء لها دِعاما

وفي هذه القصيدة يستعرض احوال البلاد السياسية ثم يستطرد الى ما تحتاج اليه من وسائل الاصلاح

ومن اراد ان يعرف شيئاً من الحركة الادبية التي احدثها موت مصطفى كامل فليرجع الى الصحف العربية سنة ١٩٠٨، والى ما نشر من الشعر في ذلك العهد وكذلك الى ما قيل فيه يوم ازاحة الستار عن تمثاله (١٤ مايو سنة ١٩٤٠)[3]

***

(١) راجعها في ديوانه (١٩٠٨) ص ٢٣ (٢) الشوقيات ١ – ٢٧٧

(٣) راجع «الاهرام» ١٦ مايو ١٩٤٠ وخصوصاً قصيدة خليل مطران التي مطلعها – امنوا بموتك صولة الرئبال

وينتقل لواء الجهاد الوطني الى يد سعد زغلول . وفي سعد تجسّمت خوالج الامة المصرية وامانيّها بعد الحرب العالميّة الاولى . وقد اصبح مثالاً في الجهاد القومي لكل الامم العربية المجاورة. فها هو يثير مصر مطالباً بالاستقلال، وها هو يُنفى مع رفاقه الى جزيرة سيشل . ولمـــا افرج عنهم وعادوا الى الوطن استقبلهم الشعر العربي استقبال الابطال وقد اشترك فيه اكثر الادباء في وادي النيل وفي مقدمتهم شوقي وحافظ والمطران والعقاد والمازني ومحمد عبد المطلب واضرابهم . وبموت سعد بلغت الحماسة الشعرية اعلى درجاتها . فنظم في مصر، كما نظم في سوريا ولبنان والعراق والمهاجر ما لا يستطاع حصره الا في مجلد خاص ، من مراث تصف مناقبه العالية وكفاحه الوطني المجيد[1] . وقد اقيمت له حفلات تذكارية متعددة نذكر منها خارج مصر تلك التي اقامها العراقيون في بغداد ١٩٢٧ وادباء المهجر البرازيلي في سانبولو سنة ١٩٢٨ وقد اشترك فيهما ابرز الادباء في تلك الاقطار

ولم تمت الحركة الوطنية المصرية بموت سعد بل ظلّ خلفاؤه يناضلون . وقـــد استطاعوا بثباتهم ان ينالوا حق الاعتراف باستقلال مصر وعقدوا مع بريطانيا معاهدة صداقة فتمّ لهم تنظيم شؤونهم . ولم يلبثوا ان دخلوا عصبة الامم

وقد تخلل هـــذا النزاع الطويل الذي رفع لواءه مصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهما من رجال مصر حوادث شتى كان لها اثرها الخاص في الشعر كحادثة دنشواي ورفع الحماية ، واعلان الملكية، وثورة ١٩١٩، ومسألة الامتيازات الاجنبية وغيرها . على ان هذه الحوادث عند التحقيق ليست الا حلقات من سلسلة المشادّة بين الانتداب والاستقلال

« الثورة العراقية » من المعلوم انه لما احتلت بريطانيا العراق نشرت للعراقيين (كما نشر لسواهم من ابناء العربية) منشوراً تبين فيه اسباب احتلالها وأنها انما تقصد تحرير العرب لا فتح بلادهم . واليك نص هذا المنشور[2] : —

« إن الغاية التي ترمي اليها بريطانيا العظمى وفرنسا من مواصلتها في الشرق تلك الحرب التي اثارتها مطامع الالمـــان هي تحرير الشعوب الرازحة منذ زمن تحت نير

(١) راجع من ذلك قصيدة بشاره الخوري « قالوا دهت مصر دهياء » . وراجع ديوان الالهام ١٠٦٦

(٢) راجعه في « العراق في دوري الاحتلال والانتداب » للحسني ص ٨٥

الاستبداد التركي تحريراً تاماً وتشييد حكومات وادارات وطنية تستمد سلطتها من رغائب الاهالي الوطنيين الصادرة عن رضاهم وحسن اختيارهم . وتوصلاً لهذه الغاية قد اتفقت بريطانيا العظمى وفرنسا على تشجيع ومساعدة حكومات وطنية في سوريا والعراق اللتين قد تم تحريرهما فعلاً على يد الحلفاء وفي البلدان الاخرى التي يسعى الحلفاء لتحريرها والاعتراف بهذه الحكومات عند ما يتم تنظيمها فعلاً . وان بريطانيا وفرنسا لا يخطر في خلدهما قط ارغام هذه البلدان على قبول نظامات معينة من اي نوع . وجل اهتمامهما هو ان تضمنا لهذه البلدان بمساعدتها الفعالة سير الحكومات والادارات التي يتخذونها عن محض ارادتهم سيراً منتظماً الخ الخ »

فكان من الطبيعي ان يتوقع العراقيون والسوريون وسواهم عهداً استقلالياً تاماً . لكن الامور في العراق جرت منذ الاحتلال على غير ما يرام فقد رأى العراقيون سوريا تتمتع حيناً (أيام فيصل) بالاستقلال وبالملك وهم لا يزالون تحت نير الانتداب ثم حدثت حوادث زادتهم امتعاضاً من حكامهم البريطانيين . فأخذ الوطنيون منهم يتفاوضون ويبحثون سراً في موقفهم واتفق الوجهاء ورجال الدين على طلب الاستقلال وتعيين أمير من انجال الحسين . وفي سنة ١٩٢٠ دارت بينهم وبين البريطانيين مراسلات ادّت الى مؤتمر عام قدّم فيه المندوبون العراقيون ثلاثة مطالب رئيسية هي : ـ (١)

١ ـ الاسراع في تأليف مؤتمر يمثل الامّة العراقية ليعيّن مصيرها وشكل ادارتها ونوع علاقتها بالخارج

٢ ـ منح حرية المطبوعات ليتمكن الشعب من الافصاح عن رغائبه وافكاره

٣ ـ رفع الحواجز البريدية بين انحاء القطر اولاً وبينه وبين الاقطار المجاورة والممالك الاخرى ثانياً ليتمكن الناس هنا من التفاهم بعضهم مع البعض ومن الاطلاع على سير السياسة الراهنة في العالم

والظاهر ان التفاهم بين السلطة والوطنيين كان متعذراً فعمدت السلطة الى سياسة الارهاق، وقبضت على بعض الزعماء فنفت بعضاً واعتقلت آخرين . لكن هذه السياسة لم تأت الا بعكس المطلوب . فقد احرجت الوطنيين ولاسيما سكان وادي الفرات

(١) نقلاً عن العراق للحسني ص ٩٠

حتى افتى امامهم الكبير محمـــد تقي الشيرازي بجواز امتشاق الحسام في وجه السلطة دفاعاً عن الحقوق القومية[1]

وهكذا نمت فكرة اعلان الثورة. وقد القى محمد الباقر الشبيبي يومئذ خطبة حماسية وانشد قصيدة منها[2]

بني يعرب لا تأمنوا للعدى مكرا خذوا حذركم منهم فقد أخذوا الحِذرا
يريدون فيكم بالوعود مكيدة ويبغون ان حانت بكم فرصة غدرا
فلا يخدعنكم لينهم وتذكّروا اضاليلهم في الهند والكذب في مصرا
ومن مات دون الحق والحق واضح اذا لم ينل فخراً فقد ربح العذرا

وفي هذه الثورة يقول مهدي الجواهري من قصيدة[3]

إلام التواني في الحياة وقد قضى على المتواني الموتّ هذا التنازعُ

وبعد ان يذكر ان في العراق نهضة يقابلها نهضات في سائر البلدان العربية يقول عن الثائرين

ويوم نضتْ فيه الحمول غطارفٌ يصان الحمى فيهم وتحمى المطالع
تشوّقهم للعز نهضة ثائر حنين ظماءٍ اسلمتها المشارع
لقد عظموا قدراً وبطشاً وانما على قدر اهليها تكون الوقائع
وما ضرّهم نبو السيوف وعندهم عزائم من قبل السيوف قواطع
اذا استكرهوا طعم الممات فأبطأوا أتيح لهم ذكر الخلود فسارعوا

ثم يصف الثورة في الكوفة ووادي الفرات واستفزاز الانكليز لهم، ويعدّد مناقب موري شرارتها الاولى الشيخ الشيرازي . ومن قوله فيه : ـ

تثور به للموت نفسٌ أبيّة وتأبى سوى عاداتهنّ الطبائع
بطارحه وقع السيوف اذا مشى كطارح المشتاق في الأيك ساجع

والقصيدة اكثر من ٧٥ بيتاً و كلها على هذا النمط الحماسي . وله قصيدة اخرى

(١) العراق للحسني – ص ١٠٣ (٢) العراق – ص ١٠٧ (٣) ديوانه (١٩٣٥) ص ٦٩

في الثورة مطلعها[١]

ان كان طال الامدُ فبعد ذا اليوم غدُ

ولخيري الهنداوي في الثورة قصيدة طويلة نارية الروح مطلعها[٢] - ايها الشرق هل فقدت الشروقا - ومنها مخاطباً وطنه

انتَ اذنبتَ ام بنوكَ ام الظـــلاّم شاءُوا ان يغصبوكَ الحقوقا
بيّتوا امرهم بليلٍ وجاءُوكَ جميعاً يتلو فريق فريقـــا
حاولوا - لا ابا لهم - أن يكون الـــشرق كالعبد مستضاماً رقيقا
فنهضنا كالأسد في اوجه الـــقوم لنجتثّ بغيهم والفسوقا
ومنها: ويك لا ارتضي الحياة بذلٍّ فمُزِّقْ إهابهـــا تمزيقـــا
وادرْ لي في الرافدين حميّا الـــحرب صرفاً وكسّر الابريقا
ان موتاً يكون في ساحة العزّ لموتٌ اجدرْ بهِ ان يروقا
الى ان يقول -
ليت شعري هل مبصر انا يوماً عَلَمَ ابن الحسين فيها خفوقا
تلك أمنيّتي فـــلا عيش الا ان اراها تهتزّ غصناً وريقا

ومن موقدي الشعور الوطني يومئذٍ الشيخ مهـــدي البصير شاعر الحلة وهو من الذين اعتقلوا ونفوا. ومن شعره الثوري المحرّك قوله في قصيدته «لبيك ايها الوطن». ومطلعها[٣] -

ان ضاق يا وطني عليّ فضاكا فلتتسعْ بي للامام خطاكا
ومنها: بك همتُ اوبالموت دونك في الوغى روحي فداك متى اكون فداكا؟
ثق انني سأذبّ دونك باذلاً روحي لارخصها فما اغلاكا
فليسخط الغربيّ اني ناهضٌ اقصى رجائي ان انال رضاكا
كذبتك اقطاب السياسة عهدها فلتضمننّ لك الحياة ظباكا
افيطلبون لك الرعاية ضلة ما كان اقصرهم وما احجاكا
لو انصفوك لحرّروك لانهم ربحوا قضيتهم بظلّ لواكا

(١) راجعها في ديوانه ٣٣٦ (٢) الادب العصري (بطي) ١-١٦٦ (٣) الادب العصري ٢-٩٦

ومثل هذه العواطف تتجلى في شعر عبد الحسين الازري، ومحمد ابي المحاسن، وعلي الشرقي ، ومحمد الهاشمي ، وسواهم . اما الزهاوي والرصافي فلم نر لهما شيئاً من ذلك في ما نشر من شعرهما

***

اشتعلت الثورة فوقع من ضحاياها مئات من الطرفين . ولم تر بريطانيا بدّاً من مصالحة الثوار فاصدرت منشوراً بالعفو العام . ثم « شكلت » للعراق حكومة وطنية موقتة الى ان يتم انعقاد مؤتمر عربي عام يعين مصير البلاد وشكل حكومتها .

وكان فيصل في اثناء ذلك قد انهار عرشه في دمشق، فقرر باتفاق الطرفين انتخابه ملكاً على العراق وصرف النظر عن عقد المؤتمر العام . على ان الشعب استفتي في امر انتخابه فنال ٩٩ بالمئة من الاصوات . وهكذا نودي به ملكاً واحتفل بتتويجه في ٢٣ آب (اغسطس) ١٩٢١

وكان لهذا الحادث التاريخي اثر يذكر في الادب العربي فقد القي فيه من الخطب والقصائد ما لا يتسع المقام لذكره . واليك انموذجاً منهُ قصيدة انشدها الزهاوي في حضرة الملك فيصل على اثر قدومه عاصمة الرشيد[١] وفيها يقول :—

انا محبّوك فاسلم ايها الملك ومصطفوك لعرش شاده الفلك
عرش العراق ضمان للعراق وفي تأييده الشعب والاحزاب تشترك
الناس من فرح إذ جئت تراسهم من بعد ما قد بكوا من بأسهم ضحكوا
قد ارتضاك له فاهنأ بدولته الله والناس والتوفيق والملك
هذا السلام يعمّ الرافدين غداً فلا دمٌ بعد هذا اليوم ينسفك
جرى ليلحق ناس بابن فاطمة حتى اذا تعبوا في جريهم بركوا
من هاشم من قريش من ذوائبها حيث الوشائج والارحام تشتبك

ومنها : لله يا فيصلٌ ما انت مورثه للعُرب من شرف في شكره اشتركوا
في نهضة برجال كنت تراسهم حيناً لتحرير اوطان بها انسبكوا
عش للرقيّ فان الشعب اجمعه مذهبٌ يفتح عينيه به سدكُ

***

(١) الادب العصري (بطي) ١ – ٦١

ولا ينكر انه بتنصيب فيصل استقرت الحال نوعاً في العراق على ان الاماني القومية لم تصل وثبة واحدة الى غايتها . فكان موقف العرش حرجاً بين السلطة المنتدبة والقومية العراقية المتوثبة لكنّ فيصلاً كان ربّاناً ماهراً فسيّر المركب بين اللجج برفق وحكمة ، واستطاع قبيل موته ان يوقّع على معاهدة الاستقلال وان يدخل العراق في عصبة الامم

ولم يخل الشعر العراقي في اثناء ذلك من روح التبرم فبرغم النهضة السياسية في العراق وبرغم ما كان يضيء في العهد الفيصلي من انوار الامل والاستبشار ظلّ فريق من كبار ادبائه يغلب عليهم التشاؤم فينفثونهُ شعراً قاتم اللون ناقماً سوء الحال . وزعيم هذا الفريق الرصافي كما ترى في قصيدته للريحاني سنة ١٩٢٢ اذ يقول[١] —

أأمين جئت الى العراق لكي ترى ما فيه من غُرر العلى وحجوله
عفواً فذاك النجم اصبح آفلا والقوم محتربون بعد افوله
ومنها : واذا وقفت بدارس من مجده فكوقفة الباكين بين طلوله
والحبُّ كما نحب الحزين مكفكفاً غرب الدموع بجانبي منديله
ومنها : حال لو افتكر الحكيم بكنهه طولَ الزمان لعيّ من تعليله
من ذا يبدّله فان قوارعي يئست لعمر الله من تبديله

الى ان يقول . —

من اين يرجى للعراق تقدم وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير في وطن يكون السيف عند جبانه والمال عند بخيله
والراي عند طريده والعلم عند غريبه والحكم عند دخيله

وتظهر هذه الروح في قصيدته في حفلة الحزب الوطني البغدادي للمستر كراين الاميركي (سنة ١٩٢٩) اذ يقول[٢] —

واذا تسأل عمّا هو في بغداد كائن
فهو حكم مشرقي الضّرع غربي الملابن
وطني الاسم لكن انكليزيّ الشناشن
قد ملكنا كل شيء نحن في الظاهر لكن...

(١) ديوانه ٤٠٣ (٢) ديوانه ٤١٦

نحن في الباطن لا غلك تحريكاً لساكن

ومثل ذلك قصيدته «الحرية في سياسة المستعمرين» (ديوانه ٤٢٦) وغـادة الانتداب (٤٢٧) وكيف نحن في العراق (٤٣٥) وحكومة الانتداب (٤٣٧)

هـذا الشعر المتبرّم الناقم كان شائعاً في الاوساط القومية المتشددة ويقابله شعر وطني مستبشر كان ينظر الى الامور بعين الرجاء مؤمناً بالنهضة الجديدة واثقاً بتقدمها. ومن امثلته ما قيل في العَلَم العراقي والنهضة العربية، وآمال الشباب والملك العربي والسيادة القومية وما الى ذلك، كقول الجواهري من قصيدة في سفر الملك فيصل الى جنيف (١٩٣١) تمهيداً لدخول العراق عصبة الامم[1]. يفتتحها بوصف مناقب فيصل وحسن سياسته وجميل خدمته للعراق ثم يقول

لا ادّعي انْ قـد اتم نموه — من كان امس بشكل طفل حابِ
فلَتلك ليست بالبعيد منالها — عن كل شعبٍ طامحٍ وثاب
لكن اقول أوبتَه مستقبلا — لا بالعديم سناً ولا الخـلاب
كالشهد اولَ ما تذوّقه فمٌ — ما زال بين لهاه طعم الصاب
فاليوم ها هوذا بظلك يحتمي — مثل احتماء العين بالاهداب

ومثل هذا القول بل واكثر منهُ استبشاراً وايماناً بالمستقبل يتجلى لك في كثير من الشعر الذي نظم في عهد فيصل وعهد خلفه الملك غازي الأول

« الثورة السورية » ذكرنا ان دمشق كانت بعد الحرب الكبرى اول عاصمة خارج الحجاز تودي فيها بالاستقلال العربي. وهاك اول برقية وردت الى بيروت بعد دخول العرب دمشق (وقد نشرت في ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٣٦ بتوقيع الامير سعيد الجزائري) — « بناءً على تسليمات الترك فقـد تأسست الحكومة الهاشمية على دعائم الشرف طمنوا العموم واعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية »

ومعلوم ان سوريا بعد الحرب عهد بادارتها المستقلة الى الامير فيصل. ثم حدثت حوادث وجرت مفاوضات سياسية لا مجال لذكرها الآن. وفي خلال ذلك تم لحكومة دمشق تنظيم المؤتمر السوري ممثلاً لجميع الاقطار السورية ومنها فلسطين فأعلن في ٧ آذار (مارس) سنة ١٩٢٠ المناداة بالامير فيصل ملكاً دستورياً على البلاد السورية[2]

(١) ديوانه (١٩٣٥) ١٠٦ — (٢) راجع الثورة العربية (سعيد) ٣ - ٣٠

على ان ذلك الاستقلال لم يطل عهده ففي ٢٥ تموز (يوليو) من السنة نفسها دخل الجيش الافرنسي دمشق فاضطرّ فيصل الى ترك عرشه وأصبحت سوريا داخلة في منطقة الانتداب . وبذلك أخمدت تلك النائرة الملكية التي كان السوريون قد بدأوا يغتبطون بها . فبعد ان كان الشعر العربي في حماهم شعر القومية السائدة والوطنية الجذلة والراية العربية الخفاقة اصبح ذكريات مؤلمة كقول الشاعر من قصيدة في وداع فيصل مطلعها[1] : —

اضاعوه وكان فتىً هماما — وبالاوطان صبًّا مستهاما
(أضاعوه واي فتىً أضاعوا) — أضاعوا القلبَ والبدَ والحساما
فودّع في الدجى تاجاً وعرشاً — ومملكةً وآمالاً جساما
هو التاريخ عاد فعُد اليه — وصف غرناطةً تصف الشآما
سلاماً يا أبا الغازي سلاما — يعزّ على المروءة ان تضاما
أطعتَ عصابةً ضلّت فكانت — بصدر جهادك الماضي كلاما
ولولا ذاك كنت الملك فينا — ولكن ابعدوا عنك الكراما
فسادت في رحاب القصر فوضى — فلا رأياً هناك ولا نظاما

وكقول الغلاييني من قصيدة نظمها في دمشق (٢ ك ١٩٢٠) ومطلها — وقفت على الاطلال اطلال قحطان[2] —

لئن كنتمُ من قبل في يد غاصب — ضعيف القوى من خمرة الجهل نشوانِ[3]
فانكم ذا اليوم نهبٌ مقسّم — بأيد شداد شرّها منكم دانِ
رقدتم وسيف القوم يرهف حدّه — وما غمده الاّ طُلى آل عدنانِ

وله كثير مثل ذلك

وكذلك لخير الدين الزركلي كقوله من قصيدة سنة ١٩٢٢ وهو في عمان[4]

أبكي ديارا خلقت للجمال
ابهى مثال

---

(١) حليم دموس (ديوانه) (٢) ديوانه ص ٧١ (٣) يقصد الاتراك
(٤) راجعها في ديوانه ٢٦

أبكي تراث العزِّ والعزّ غالٍ
صعب المنال
أبكي جلال الملك كيف استحال
الى خيال

وله قصيدة سماها الفاجعة[١] نظمها على اثر واقعة ميسلون ودخول الجيش الفرنسي الشام ومطلعها —

الله للحدثان كيف يكيد بَرَدى يغيض وقاسيون يميدُ

ومنها ما في دمشق لناهض من عزّةٍ وبها سرادق غاصب ممدود
بلد تبوأهُ الشقاء فكلما قدم استقامَ له بهِ تجديد

وبعد ان يصف الجيش وانخذال السوريين لتنافر زعمائهم يقول : —

خدعوك يا أمَّ الحضارة فارتمتْ تجني عليك فيالقٌ وجنود
من ذا يكفكف أدمعاً مهراقة كالغيث تهطل حسرة وتجود
تسقي بها في الغوطتين مباسم ذهب النواح بمائها وخدودُ

وفي الذكرى الاولى لاستقلال سوريا ينشد الكاظمي في مصر قصيدة مطلعها : «أفي مثل هذا اليوم طاف المبشّر» تشف عن شعور الناس في ذلك الحين[٢]

ولو راجعنا ما نظمهُ كبار شعراء سوريا بعد سقوط العرش الفيصلي كمن مرّ ذكرهم ، وكخليل مردم ، وفارس الخوري ، وشفيق جبري ، ومحمد البزم ، وفؤاد الخطيب ، ومحمد الشريقي وبدر الدين حامد واضرابهم ، وما نظمه زملاؤهم في سائر الأقطار العربية والمهاجر ، لوجدنا عليه مسحة من الألم تشف عن أسفهم على ما ضاع من اماني وتبدّد من احلام

***

في خلال ذلك كانت العراق (كما مرّ معنا) تتقد بالثورة ومصر تجاهد تحت لواء سعد . وقد رأى السوريون نتائج الثورة العراقية والجهاد المصري ، فكان ذلك دافعاً لهم الى تنظيم الكلمة ومناوأة الانتداب

ولم تلبث هذه المناوأة ان انجلت عن ثورة ١٩٢٥

(١) ديوانه ٦٢ (٢) ديوانه ٢٦١

ولسنا نبحث الآن عن الاسباب البعيدة او المباشرة لهذه الثورة فذلك عمل مؤرخيها ، على أننا نقرر هنا انها كانت خطوة كبرى في سبيل الهدف المنشود . فقد انتهت بتنظيم الكتلة الوطنية ، ثم باعلان الجمهورية (سنة ١٩٣٢) وبالاتفاق مبدئياً على معاهدة شبيهة بمعاهدة العراق

وقد نظم في الثورة السورية والحركة الوطنية شعر كثير اشتركت فيه جميع الاقطار العربية . فمن مصر مثلاً شوقي وحافظ ، ومن العراق الرصافي والجواهري ، ومن المهاجر السورية اللبنانية الشاعر القروي والياس فرحات والدكتور جورج صوايا والياس قنصل وابو الفضل الوليد ومسعود سماحه

ومن لبنان وفلسطين مصطفى الغلاييني وعلي الحوماني وابراهيم طوقان وفتى الجبل وسواهم . فاذا أضفت هذه الاسماء الى اسماء شعراء سوريا الذين مرّ ذكرهم والى اسماء كثيرين في انحاء البلاد العربية ممن لم يذكروا استطعت ان تقدر ما كان لهذه الثورة من الاثر في الشعر العربي. واننا نشير هنا اشارة خاصة الى دواوين الغلاييني، والحوماني، والشاعر القروي ، والياس قنصل وبدر الدين حامد لما يتأجج فيها من نيران تلك الثورة وما تحمله الى الاقطار العربية من حرارتها المتقدة

« الجامعة العربية والروح الاقليمية » رأينا من الفصول السابقة ان الدعوة للعربية لم تكن قبل الدستور العثماني منظمة او ذات هدف معين بل كانت عاطفة قومية تظهر من حين الى آخر في الادب العربي بمظهر التذكير بالماضي والاهابة بابناء الشرق العربي الى التقدم في سبيل العلى . فلما دخل العرب العهد الدستوري واصبحوا يرون بجلاء ما لهم وما عليهم اخذتهم الغيرة القومية فبدأوا يلهجون بها ، وشعروا ان العنصر السائد في السلطنة يقاومها فازدادوا تعلقاً بها ، ولم يلبثوا ان نظموا الجمعيات والهيئات السياسية ، فانتشرت بينهم دعوة قومية ترمي الى استقلال الاقطار العربية استقلالاً ادارياً

وفي الحرب الكبرى اعلنت الثورة الحجازية باسم العرب والملك العربي ولما وضعت الحرب اوزارها انتشرت الدعوة للجامعة العربية تحت لواء الهاشميين انتشار النار في الهشيم ، وكانت ترمي الى احياء مجد العرب بتنظيم دولة كالدولة الاموية في الشام تضم الاقطار السورية والعراقية والحجازية ثم تتدرّج الى سواها

حلمٌ جميل استعذبه السواد الاعظم من سكان تلك الاقطار، وقد كان مصدر الهام لكثير من الشعر القومي والخطب الحماسية. ولن ننسى يوم نُشر العَلَم العربي في بيروت وقد استولى فيهِ على الناس شعور غريب لا عهد لهم بهِ من قبل — شعور الكرامة القومية الحرة. كان الاحتفال في دار الحكومة، وهاك بعض ما قاله الخطيب «الرسمي» مخاطباً الشعب العربي[1] —

«ان هذه الراية التي تنشر اليوم هي شعار استقلالك وستكون خافقة فوق رأسك ما خفق فؤادك لها، فان بقاءَها هو اليوم في يديك. فان احببت لها البقاء فاستمتْ في حبها واعمل على اعلائها بين الامم. ان البلاد العربية اليوم هي بمثابة كتلة وطنية واحدة خاضعة لحكم شريف مكة واميرها وملك البلاد العربية جلالة مولانا المفدى حسين الاول. واننا لا ننسى ابداً حلفائنا ونخص منهم دولة انكلترا العظمى المساعدة العظيمة التي قاموا بها نحونا لحصولنا على هذه النعمة الكبرى»

وقد اقيمت المهرجانات لرفعه في الشام وسائر المدن السورية. ولم يشكك احد يومئذٍ في ان الملك العربي اصبح امراً واقعاً وان انتصار الحلفاء على الاتراك كان الحجر الاساسي في توطيده

ودارت الايام فاذا بالانتداب يفرض على البلدان العربية. واذا بالحكومات العربية الاقليمية تبرز عوضاً عن الدولة العربية المتحدة، واذا في الادب العربي فكرتان تتصارعان فكرة الوحدة وفكرة الاقليم

اما الاولى فكانت ولا تزال رسالة الشعر العربي منذ عهد الدستور (١٩٠٨). وقد راينا كيف برزت بعد الثورة، وعبثاً حاول دعاة التقسيم اماتتها. فهي عند السواد الاعظم من عرب الشرق الادنى رسالة المجد القديم.

فلنقف قليلاً لنرى هذه الرسالة وكيف التفت العرب بعد يقظتهم الحديثة الى امجادهم الغابرة.

* * *

(١) راجع جريدة صوت الاحرار ٢١ نيسان (ابريل) سنة ١٩٣٧

لفتة الادب الى ماضي العرب

من يراجع الادب العربي في عهوده السالفة لا يرى فيه من شأن يذكر للوقفات التاريخية التي تلبس الماضي برود الجلال وتدوّن مآثر الاسلاف باقلام الفخار . خذ مثلاً ما جمعه القُرشي في كتابه « جمهرة اشعار العرب » فهو يضمّ اشهر الشعر العربيّ القديم من معلّقات ومجمهرات ومذهبات ومنتقيات وملحمات ومشوبات ومراثٍ ومع ذلك لا تجد بينها ما يدلّ على اهتمام العرب بهذا النوع من الادب . ويصدق هذا الحكم على حماسة ابي تمام وسائر المجموعات الشعرية القديمة والمولدة . ولا نستطيع ان نعدّ التفاخر بالاجداد في مثل شعر ابن كلثوم او الفرزدق واضرابهما من باب الوقفات التاريخية بالمعنى الذي نفهمه الآن فما ذلك الا مباهاة شخصيّة او قبليّة ليس فيها ما يدلّ على شعور عام يحدو الشاعر الى التغني بامجاد الغابرين ووصف ابطالهم ومآتيهم . وقد يجوز ان نستثني من هذا الحكم العام بعض المنظومات القليلة كسينيّة البحتري التي يصف فيها ايوان كسرى وبنوّه «بعجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلبس». او بعض المراثي القومية كقصيدة ابن عبدون في بني الافطس التي مطلعها – « الدهر يفجع بعد العين بالاثر » وقصيدة ابي البقاء الرندي التي يندب فيها الملك الاسلامي بالاندلس ومطلعها – « لكل شيء اذا ما تمّ نقصان » . اما التواريخ المنظومة امثال ارجوزة ابي طالب عبد الجبار التي تسرد في ٥٤٢ بيتاً تاريخ الخلفاء من راشدين وأمويين وعباسيين واندلسيين[١] فليست الا سرداً عادياً للحوادث ولا يراد به استعراض الامجاد القومية السالفة او التعبير عن روح الأمة وامانيها الكامنة .

وقد كان من المتوقّع ان ينشأ في العهود المختلفة التي تلت عصر الفتوح ما يدلّ على تأثر الادب باعمال الفاتحين ومآتي الابطال ولكننا قلما نعثر من ذلك على شيء جدير بالذكر حتى ان الحركة الشعوبيّة التي ظهرت في اوائل العصر العبّاسي وكان الباعث اليها تلك المشادة العنصرية بين الفرس والعرب لم تترك لنا من اقوال المدافعين عن العرب الا بعض شعر ونثر لا يستحق ان يعدّ من باب الوقفات التاريخية . وكذلك قل في تعصّب المتنبيء للعرب وذمّه للعجم. فهو مع كونه عربياً صميما لم يخرج عن نطاقه

(١) راجعها في الذخيرة لابن بسام (١٩٤٢) قسم ١ مج ٢ ص ٢٠٥

الشخصي المحدود الى نطاق القومية الواسع ولم يصرف شعره عن امراء او كبراء يسبغ عليهم حلل المديح او خصوم وحسّاد يسلقهم بالسنة الهجـــاء الى تعظيم امّته بتعظيم تاريخها والتنويه بامجادها . وذلك عين مـــا نلحظه في كل عصورنا الادبية حتى نهضتنا الحاضرة . ولهذه الظاهرة التاريخية اسباب منها ـ ان العرب سابقاً لم يهتموا الا للعصبية القبليّة ولم تكن القومية عندهم ولاسيما بعد العصر الاموي متميّزة تمام التميّز عن الدين . وقد اصاب احد الباحثين اذ قال « ان هذا الفن (الشعر البطولي القومي) يحتاج الى ممارسة وتفرّغ وطول معاناة ومثل ذلك لم يكن متهيّئاً لادباء العربيّة الذين كانوا اميل الى تقليد من سبقهم[1] » . اما في هذا العصر فقد تغيّرت الحال فانّ التطورات السياسية والاجتماعية قد جعلتهم يشعرون بكيانهم ففتحوا اعينهم ورأوا سوء حالهم ازاء الامم الاخرى . وهكذا اخذوا منذ اوائل هذا القرن ينفضون عنهم غبار الهوان . وساعدتهم الحرب العالمية الاولى فاصبح لهم دول مستقلة اسماً او فعلاً فكان من الطبيعي ان يلتفتوا الى ماضيهم القديم ـ الى عهد الفتوح والملك ومـــا تلاه من الازدهار العلمي ـ تعظيماً لقوميّتهم وارهافاً لهممهم وحفزاً لابنائهم على السير في سبيل اسلافهم . وفي ذلك يقول علي مصطفى مشرفه[2] .

« فكما ان الاوروبيين عندما افاقوا من قرونهم الوسطى عمدوا الى احياء ماضيهم فبعثوا الثقافة الاغريقية وجعلوا منها اساساً لنهضتهم كذلك نحن في الشرق قد هدانا وحي السليقة الى منابع عظمتنا فرجعنا الى ماضينا ليكون قاعدة لصرح تقدمنا » .

ويقول فؤاد صروف[3]

« ان الاساس في النهضة الصحيحة هو الاحساس بالكرامة . والاحساس بالكرامة يستيقظ ويستعز بالانساب الى آباء واجداد نفخر بهم وماض نباهي به وامجاد نغنيها » .

وهذا الالتفات لا ينحصر في قطر واحد بل هو عام وله ظواهر شتّى اهمها مـــا يلي :

« ١ ـ ذكرى النوابغ والابطال » وقد وضع في هذا الباب نثراً عدد كبير من الكتب والرسائل وكلها ترمي الى تخليد عظماء الامّة العربيـــة بعرض تاريخهم

(١) راجع فصلا لفخري ابو السعود في اسباب خلو الشعر العربي القديم من البطولة ـ الرسالة (مصر) ٥ ـ ٢٠١ (٢) المقتطف ١٠٠ ـ ٢٠٣ (٣) المقتطف ١٠٠ ـ ٢٣٨

ووقائعهم وآثارهم سواء كانوا من رجال السياسة والحرب والادارة ام من رجال العلم والادب والدين[١] . وهو باب واسع جداً وقد طرقه القدماء وخلفوا لنا كثيراً من التراجم والدراسات على انهم لم يعنوا عناية المحدثين بالتمحيص التاريخي والنقد العلمي والتحليل النفسي ولم يهدفوا مثلهم الى تمجيد التاريخ العربي واتخاذه وسيلةً لتحميس الجيل الحاضر ورفع انظاره الى المثل القوميّة العليا . وقد يتجلى ذلك على اتمه في الشعر الحديث واليك بعض الامثلة وهي قُلٌّ من كثر —

« عُمريّة حافظ ابرهيم » وهي قصيدة في نحو ١٩٠ بيتاً يعرض فيها الشاعر مناقب الفاروق ومآثره . ومطلعها :

« حسب القوافي وحسبي حين أُلقيها ... اني الى ساحة الفاروق أُهديها »

ومنها في وصف الدولة الاسلامية بعد مقتل عمر —

فاصبحت دولة الاسلام حائرةً ... تشكو الوجيعة لمّا مات حاميها
مضى وخلّفها كالطود راسخةً ... وزانَ بالعدل والتقوى رواسيها
تنبو المعاول عنها وهي قائمة ... والهادمون كثيرٌ في نواحيها
واهاً على دولةٍ بالامس قد ملأت ... جوانب الشرق رغداً من اياديها

وبعد ان يعدّد اعمال الفاروق ومكارمه يختم القصيدة بقوله —

هذي مناقبه في عهد دولتهِ ... للشاهدين وللأعقاب احكيها
لعلّ في امّة الاسلام نابتةً ... تجلو لحاضرها مرآة ماضيها
حتى ترى بعض ما شادت اوائلها ... من الصروح وما عاناه بانيها
وحسبُها ان ترى ما كان من عُمَرٍ ... حتى ينبّه منها عين غافيها

وعلى غرار العمريّة بضع منظومات في ابطال الاسلام الأول كعلويّة محمد عبد المطلب[٢] وبكريّة عبد الحليم المصري[٣] وخالديّة عمر ابو ريشة[٤] واشباهها .

---

(١) راجع من ذلك كتاب اشهر مشاهير الاسلام لروحي الخالدي. وروايات زيدان وكتاب حاضر الاندلس وغابرها لمحمد كرد علي وكتاب تراث العرب العلمي لقدري طوقان وسلسلة مقالات آثار العرب العلمية للمؤلف في الهلال مج ٣٠ .

(٢) ديوانه والمقتطف ٥٥—٦٩١ (٣) المقتطف ٥٣ — ٩ (٤) ديوانه (شعر) ٢٣١

ومن هذا الشعر البطولي المُشيد بامجاد الماضي ما قيل في عبد الرحمن الداخل وهو الامير الاموي الذي نجا من سيف العباسيين ثم تمكن من دخول الاندلس وانشاء دولة اموية هناك . وقد نظم فيه احمد شوقي موشّحا عنوانه صقر قريش فذكر قصة نجاته ورحيله الى افريقيا ثم ما كان من امره في الاندلس وكذلك فعل خير الدين الزركلي[١] وسواه .

وممّن جعل في مصاف الابطال زنوبيا ملكة تدمر التي اشتهرت ببأسها حتى أصبحت موضوعاً للشعر والنثر[٢] . وقد أولع ادبنا مؤخراً بالذكريات الألفيّة لبعض نوابغ الرجال كالمتنبيء والمعرّي وما قيل في هذين الشاعرين نثراً وشعراً لا يقلّ عن عدّة مجلّدات[٣] . ومن هذا القبيل تخصيص بعض المجلات اعداداً خاصة لذكرى بعض المشاهير وسوى ذلك ممّا نكتفي بالاشارة اليه

« ٢ – المأثور من وقائع العرب واخبارهم » ولا نقصد بذلك ما دوّنه المؤرخون من حوادث تاريخية بل ما يعكسه الادب من روح تلك الحوادث وما يقصّه علينا من مستملح النوادر . وقد نقل لنا الرواة عنهم كثيراً من الاخبار التي تبرز فيها مكارم الاخلاق من شجاعة ووفاء وعدل وحكم وكرم ونزاهة كالذي يتناقلونه عن حاتم طيء وكعب بن مامه والسموأل ومعن والاحنف وما يعزونه الى بعض الخلفاء والوزراء والعظماء من اخبار وطرائف تجدها متفرّقة في كتب الادب كالاغاني والعقد والفرج بعد الشدّة وثمرات الاوراق ومصارع العشاق والمستطرف وسيرة عنترة وقصص الف ليلة وليلة وسواها . هذا فضلاً عن الوقائع التاريخية التي تشير الى ما بلغوه من عزّ وسؤدد . فلا غرابة ان نجد فيها الادب الحديث مصدر وحي لكثير من الاحاديث الممتعة التي تعيد لنا العهود الأولى مصوّرة بازهى الالوان وتعكس لنا محامد الاسلاف في ذلك الزمان . وقد اتسع لمثل هذه الاحاديث ادبنا المنثور وخصوصاً بابا الترسل والخطابة واصبح معروفاً شائعاً حتى لا حاجة للتدليل عليه . وعليه فسنكتفي ببعض الامثلة الشعرية – ومنها

« قصّة خولة بنت الازور واخيها ضرار » وهي قصيدة لشبلي ملاط في ٩٥

---

(١) راجع ديوانه (٢) راجع مجلة الكلية ٩ – ٦١ ومجلة المورد ٨ وديوان الملاط –زنوبيا
(٣) راجع في المعري المهرجان الالفي الذي نشره المجمع العلمي العربي بدمشق .

بيتاً تصف بطولة الفارس العربي ضرار بن الازور واخته في حادثة جرت لهما عند فتح دمشق على يد خالد بن الوليد . ومطلعها[1] —

ادموعُ خولةَ ام عقيقُ الوادي   ايام نادى للجهاد منادي

وترى خولة اخاها وهو يتأهب للحرب فتبكي فرحاً ثم يأخذان بالحديث عن الجهاد فيقول ضرار متحمساً

يا خولَ ان ابي وجدّي استُشهدا   قبلي على مرأى النبيِّ الهادي
وانا على آثار من درجوا ومن   سعدوا من الآباء والاجداد

ويجري في حديثه واصفاً بطولة المجاهدين . فتجيبه خولة متهللة —

بوركتَ يا ابن ابي وقُدِّس والد   يُحبيه مثلُ ضرار في الاولادِ

ثم تشتعل نيران القتال فيستبسل ضرار في الهجوم على حصن للاعداء ولكنّ الاقدار تشاء ان يجرح جرحاً بليغاً فيتمكن الاعداء منه ويأسرونه . ولما بلغ خولةَ خبر اسره اتقدت نار الحميّة في صدرها وحملت وهي متنكرة بزيّ فارس من الفرسان حملة شديدة على الاعداء . ولما رأى العرب هذه الحماسة منها اتقدت حماستهم فاغاروا معها وهكذا ربحوا المعركة وانقذوا اخاها من الاسر . يقول الشاعر في ختامها —

ومشى الغزاة الفاتحون ودوّخوا   ما دوّخوا من امّةٍ وبلادِ
قل للأُلى عزّت بهم اوطانهم   وتسوّدوا من طارف وتلادِ
كونوا ضراراً في الجهاد وخولةً   ان الجدود تعيش في الاحفادِ

﴿ واقعة اليرموك ﴾ وعلى ذكر خالد بن الوليد وما يؤثر من وقائعه نذكر هنا المعركة الفاصلة التي حدثت بين العرب والروم على هذا النهر الصغير الذي يصبّ في الاردن قرب طبريا . وهي موضوع لكثير من الفخر القومي او التاريخي ومما قيل فيها « وقفة على اليرموك » اوّلها[2] —

على اليرموك قف واقرا السلاما   وكلّمه اذا فهم الكلاما

(١) ديوان اللاط ٢٨٣

(٢) للمؤلف تجدها في المورد الصافي ٩ – ٢٠١ والهلال ٢٩ – ٢٦٥ والمختارات السائرة ١٣٩

وبعد ان يصف الناظم ذلك الوادي يخاطب عرب اليوم مذكراً ايام مجدهم القديم فيقول :

ألا هبّوا احدثكم بمجدٍ لكم غشي الجزيرة والشآما
الى اليرموك ان تبغوا المعالي وفوق ضفافه فاجثو احتراما
هنا الاسلام ضاءَ له حسامٌ غداة استلّ خالده الحساما
وهبَّ ابو عبيدةَ مثلَ ليثٍ يجرّ وراءه الموتَ الزؤاما
فاصلى الروم حرباً ايّ حرب وفلّ بعزمه الجيش اللهاما
وسار على روابي الشام يخطو تخرّ له الرّبى هاماً فهاما

وينتقل من وصف المعركة وما احرزه الفاتحون الى حال العرب اليوم وما اصابهم من تأخر وهوان . ويختم القصيدة بالرجاء ان نجمهم سيشرق من جديد فيعود اليهم ما خسروه من عزّ وما تمتعوا به قبلاً من سلطان .

« مصرع الامين » ومن الحوادث التاريخية تلك الحرب التي نشبت بين ابني الرشيد الامين والمأمون والتي انتهت بقتل الاول وطغيان النفوذ الفارسي في الدولة العباسية . والى ذلك تشير قصيدة للدكتور رشيد الخاوي مطلعها[1] — « لمن القباب الباسقات ذراها » وفيها يتحدث عن الخلافة العربيّة وعن مجد العرب منذ ظهور الاسلام الى سقوط عرش الامين ومن قوله —

تعبُ القرون تناولته ساعةٌ ضلّت مسالكها وطاش هداها
هذي جناية هاشمٍ في ملكها غفر الاله لهاشمٍ عقباها

وهو يرى ان مصرع الامين كان فوزاً للفرس ووبالاً على العرب —

ما إن رأت عيني كيومك مصرعاً محق العروبة واستباح حماها
وازاح عن عرش النبيّ متوّجاً من اهله واحلّه كسراها

ويدعو في ختامها الى عصبيّة قومية اذ الملك لا يقوم بدونها . ولا جدوى من الاعتماد على الدول القوية —

ما الاقوياء وان أروك ليانةً الا ذئاب تستلين شياها
فاذا اصابت منك موضع رقّةٍ دلفت اليك بشرّها واذاها

(١) راجعها في جريدة البرق (بيروت) ع ٢٣٩٦

« سقوط غرناطه » مأساة قومية مشهورة . وقد تركت اثراً عميقاً في الادب العربي من ذلك قول شوقي في قصيدته الاندلسية التي مطلعها « اختلاف النهار والليل ينسي » حيث يصف عزّها الغابر وكيف جار عليها الزمان فسقطت في يد الاعداء واصبح قصرها الشهير المعروف، بالحمراء اطلالاً خاوية لا تزال الى الآن شاهدة بما كان لاصحابها بني نصر من مجد وعظمة . وفي القصيدة ينحي بالائمة على ملكها ابي عبدالله لسياسته التي ادت الى ضياع مجده ومجد آبائه —

مشت الحادثات في غُرف الحمراء مشيَ النعيِّ في دار عرس
هتكتْ عزّة الحجاب وفضّت سدّة الباب من سمير وانس
ومفاتيحها مقاليد ملكٍ باعها الوارث المضيع ببخس
رُبَّ بانٍ لهادمٍ وجَموعٍ لمُشتّتٍ ومُحسن لمُخسٍ

وفي الحمراء وغير الحمراء من الوقائع المؤثرة والحوادث الهامة اقوال كثيرة[1] ومثلها ما نقلوه من نوادرهم الدالة على مكارم اخلاقهم ونجتزىء منها بقصيدة لالياس فياض موضوعها « الوفاء »[2] . وهي تدور على ما جرى للأمير الأموي ابرهيم بن سليمان بن عبد الملك يوم فرّ من سيف السفّاح العبّاسي واحتمى عند رجل كان الامير قد قتل والده وهو لا يعرف الرجل ولا الرجل يعرفه . يبدأها بقوله : —

ربّةَ الشعر عن رجال الوفاءِ حدّثينا وابغي جميل الثناءِ
حدّثينا عن قومنا العُرب اهل المجد قدماً والهمّة القعساءِ
عن رعاةٍ جاءوا عراةً من القفر فحازوا ملكاً على الدنياءِ
رفعتهم خلالهم فتساموا ثم هانوا من بعد ذاك العلاءِ
وبناءُ الاخلاق اعلى واقوى من بناء المعاقل الشمّاءِ

ويتقدّم من هنا الى ذكر ما كان بين الامويين والعباسيين والى فرار الامير ابرهيم وانتحائه جانب المدينة حيث يدفعه الخوف الى منزل يراه امامه فيقول له رب المنزل من انت فيجيب انني عائذ مستجير من اعداء يطاردونني فيرحّب به دون ان

(١) راجع منها قصيدة « على اطلال الحمراء » في الهلال ٣٠ — ٦٢٣ وقصيدة لشفيق المعلوف في المقتطف ٨٠-١٣٧ . والالياذة الاسلامية لاحمد محرّم في الرساله ٨-٤٠٦ . وثورة بدر لمحمود اسماعيل في الرساله ٣ — ٢٠٥٠ . ويوم حطين لعبد المحسن الكاظمي في ديوانه

(٢) ديوانه . والمورد الصافي ٩ — ١٠٨

يسأله عن اسمه ويفرد له حجرة يقيم فيها على الرحب والسعة . وتمضي بضعة ايام والضيف على هذه الحال على انه يلحظ ان مضيفه يخرج كل صباح من المنزل خروج مستعد لنزال ثم يعود عند المساء وعلى وجهه امارة الكآبة . فيسأله يوماً عن ذلك فيقول ان لي ثاراً عند شخص اسمه الامير ابرهيم بن سليمان فانا اخرج كل يوم باحثاً عنه والى الان لم اظفر ببغيتي من قاتل والدي . اما الامير —

فلو أنّ الجبالَ دكّت عليه لم تَرعه كهذه الأنباء
عجباً ساقه القضاء الى بيت الدّ الخصُوم والاعــداءِ

فيلبث هنيهة من الزمن واجماً من هول ما يسمع ثم يذكر ما لقيه من كرم مضيفه فيضبط نفسه ويقول للرجل — انا ادلك على خصمك فاني اعرف مكانه . فيدهش الرجل ويقول منفعلاً من هو ؟ فيجيبه انا هو انا قاتل والدك فاثأر مني واسفك بعدلٍ دمائي . ويظنّ صاحب المنزل لاوّل وهلة ان ضيفه قد جُن. ولكنّه ما كاد يتحقق صدق قوله حتى ثارت في نفسه عاطفتان عنيفتان عاطفة الثأر لوالده وعاطفة الواجب لضيفه . وبعد جهاد نفسي شديد تتغلّب الثانية على الاولى —

قال : كن من تشاءُ انك ضيفي وهو عندي من اقدس الاشياء
لستُ والله خافرا ذمّتي معك وقد نلت من طعامي ومائي

ويختم الشاعر قصيدته مباهياً بمحامد الاسلاف فيقول —

تلك آباؤنا وذاك تراث المجد منهم باقٍ الى الابنــاءِ
شرفٌ في سماحةٍ ، وذكاءٌ في وقارٍ ، وقدرةٌ في وفاءِ

٣ — ذكرى الامصار والآثار » وهي تدخل في بابين — ما يرجع الى العهود الاسلامية وما يرجع الى عهود سابقة . والقول فيها واسع . ومن الاول قصيدة لجميل الزهاوي في « المستنصرية » بالعراق وكانت قبلاً تفاخر بمعهدها العلمي وهو الان طلول دارسة . يقول الشاعر — واصفاً ما رآه منها —

وقفتُ على المستنصريّة باكياً ربوعاً بها للعلم امست خواليا

تهبّ رياح الصيف في حُجراتها   فتلبسها ثوباً من النقع هابيا
وتسعى على الجدران منها عناكبٌ   تُجدّ لها في ما تداعى مبانيا

ثم يسأل تلك الدار عن عهدها الماضي ورجالها الاعلام وكيف انقلبت بها الحال بعد ان كانت شمساً مضيئة في سماء الشرق وكان الغرب غارقاً في لجة الظلام.

فقالت ألمّت حادثاتٌ عظيمة   وجرّت على هذي البلاد الدواهيا
هناك اضمحلت دولةٌ عربيّة   بها كانت الايام ترفع شانيا
فكابدتُ منهن الصروف نوازلاً   وقاسيت منهنّ الخطوبَ عواديا

ومن ذلك ايضاً قصيدة لمحمود الحبوبي موضوعها بين قصور المتوكل[١]. وقصيدة لحسين وصفي رضا[٢] وقصيدة الرصافي (سوء المنقلب)[٣]

واكثر ما يذكر من الامصار الاسلامية الحواضر التي زهت في الشرق والغرب كدمشق وبغداد وقرطبة واشبيلية وغرناطه والقيروان وسواها. ولا غرابة فان هذه الحواضر تمثل عهوداً ذات مجد لا يُنسى في تاريخ الاسلام وفي طليعتها بغداد التي تغنى بماضيها عدد من الشعراء[٤].

ولم يكن اهتمام الادب الحديث بالاثار الاسلامية ليحول دون اهتمامه بما سبق الاسلام وهذا قد يكون عربياً او يمتّ الى العرب بصلة ما كتدمر ومأرب وبيترا وصنعاء وسواها. او قد يكون غير عربي كبعلبك وصور والمدائن والاقصر وانطاكية وغيرها من خواضر الامم السالفة التي سنشير اليها بعد.

« حضارة العرب ومدنيتهم في التاريخ » — اي ما قاموا به من جليل الاعمال وما خدموا به العمران البشري كقول اديب اسحق واصفاً دولة العرب وفتوحها[٥] — « شعلة سرت من الحجاز فانارت الشام والعراقين والمغرب والهند. واتّصلت باطراف الفرنجة فملأتها نوراً وناراً. فهي بنورها تستضيء ومن نارها تقتبس ». ثم يذكر فتوح العرب فيقول على طريقته الخطابيّة — « فسارت اسود رجالها على طيور خيولها

(١) راجعها في مجلة الكتاب ٦ — ٣   (٢) المقتبس ١ — ٩٣٥
(٣) المقتبس ٢ — ٤١٩   (٤) مثل علي الجارم ديوانه ١ — ١٣٩ وايليا ابو ماضي المقتطف ٥٥ — ٣٦٦   (٥) راجع مقاله في الدرر ٢٠٠

تطوي الصحاري وتقطع الفدافد حتى نطحت بروقي عزمها شرفات الايوان ونسرت من الشرق نسر الرومان، ونشرت على مصر اعلامها، وضربت في الاندلس خيامها » .

وفي النثر الحديث كثير من مثل هذا الالتفات الى ماضي العرب وكثيراً ما يقترن بمقابلة الماضي بالحاضر والاهابة بعرب اليوم الى النهوض من حالة الهوان وتلافي امورهم قبل فوات الاوان . ولا يقصّر الشعر عن النثر في ذلك . ومن امثلته قصيدة لحبيب العُبيدي موضوعها « العرب الكرام » وهي تقع في ١٤٠ بيتاً كلها مفاخرة بفتوح العرب تحت لواء الاسلام وخدمتهم للحضارة والعمران . كقوله[1] : —

بدا النور من بطحاء مكة ساطعاً　　فضاءت به في ارض يثرب دُورها
فمزّق ايواناً لكسرى مشيّداً　　واخمد نيراناً شديداً زفيرها
واجفلَ منه قيصر فوق عرشه　　ودُلت له بُصرى ودُكت قصورها

وبعد ان يعدّد الاقاليم التي افتتحوها في الشرق والغرب يقول مفاخراً بحضارتهم

وكلّ بلاد قد وطئنا صعيدها　　غدون رياضاً زاهياتٍ زهورها
وأنبتن احساناً وعدلاً وحكمةً　　وعلماً وفضلاً زاخراتٍ بحورها

ومن هذا الباب قصيدة لعمر ابو ريشه موضوعها « لمحة » ومطلعها[2] —

أوقفي الركب يا رمال البيدِ　　إنّه تاه في مداك البعيـــد

وفيها يصف بزوغ الوحي النبويّ في سماء الصحراء ثم يذكر ما كان بين النبي وقريش وكيف توطّد الاسلام في الجزيرة فدفع العرب الى الفتح

وقفت موجة الهدى تغسل الشرك وتروي النفوس بالتوحيدِ
فرمت بالكتائب الخُرس روما　　وبابطالها الغزاةِ الصيـــدِ
وضفاف اليرموك تُرسل منها　　زفرات الحداء لابن الوليـدِ

وامّة مثل هذه عرف لها التاريخ الوقائع الغرّ في فارس وغير فارس وانتشرت حضارتها في الشرق والغرب هي عند الشاعر

امّـــة يعربيّة تركت في　　مسمع الدهر آية التمجيد

ولكن ابناءها لم يطل بهم الحال حتى تنابذوا فضعفوا وذلّوا —

(١) راجع القصيدة في كتاب الادب العصري في العراق (بطي) ١ — ١٣٦

(٢) راجعها في ديوانه الاول ١٧٩

وخبت نارهم وصُبَّ عليهم   عاصفات التعذيب والتنكيد
وانتهت سيرة الجدود البنا   فجررنا القيود إثر القيود
والتفتنا فلم نجد غير ملك   مزقته اصابع التبديد

وهنا يلتفت الى عروس الرمال وشمس المجد القديم طالباً منها ان ترسل اشعتها لعل القوم يستيقظون من سباتهم وينهضون من كبوتهم .

ويقف شاعر آخر على « طاق كسرى وهو من آثار الفرس في المدائن » فيناشده ان يحدّث العرب عن مجدهم القديم فيقول من قصيدة[1] —

يا طاقَ كسرى ويا بُقيا مدائنه   وقد طوى الدهر عنه كلّ ما نشرا
خبّر بني يعرب عن مجدهم وأعِد   على المسامع من تاريخهم سُوَرا

هذا المجد الذي اصبح اطلالاً بالية « نستمد القوى من وحي ذكراها[2] » .

وقد ترى من المشيدين بتاريخ العرب وحضارتهم القديمة من يندّد بالحضارة الحديثة الآتية من الغرب وهو يخشى ان تطغى على الشرق وتجرف شبابه في تيارها . وفي مقدّمة هؤلاء مصطفى لطفي المنفلوطي الذي يدعو الى تنشئة الجيل الجديد تنشئة شرقية عربيّة فيقول[3] — « ان دعوناهم الى الحضارة فلنضرب لهم مثلاً بحضارة بغداد وقرطبه وثيبة وفينيقيا لا بباريس وروما وسويسرة ونيويورك . وان دعوناهم الى مكرمة فلنتلُ عليهم آيات الكتب المنزلة واقوال انبياء الشرق وحكمائه لا آيات روسّو وباكون ونيوتون وسبنسر . وان دعوناهم الى حرب ففي تاريخ خالد بن الوليد وسعد بن ابي وقاص وموسى بن نصير وصلاح الدين ما يغنينا عن تاريخ نابوليون وولنجتون وواشنطون ونلسون وبلوخر . وفي وقائع القادسية وعمورية وافريقيا والحروب الصليبية ما يغنينا عن وقائع واترلو وترافلغار واسترليتز والسبعين » . ومثل المنفلوطي عدد غير قليل من الذين يقفون موقف الحذر من حضارة الغرب ويدعون الناشئة الجديدة الى الاقتداء باسلافهم واتخاذ السّبل التي سلكوها نحو اهدافهم .

قد يقال ان الادب العربي الحديث لم يقف عند حد المفاخرة بامجاد العرب فان

(١) مجلة الاعتدال (النجف) مج ٦ ع ٣
(٢) راجع ايضاً قصيدة « على طلل » لمحمود غنيم في الرساله ٣ — ٥٩١
(٣) راجع مقاله « المدنية الغربية » في النظرات

له لفتات الى امم اخرى سبقت العرب وتركت آثار حضارتها في الشرق العربي. ومنهم مثلاً الفينيقيون الذين زهوا على ضفاف بحر الروم الشرقية وقد عرفوا بعمرانهم التجاري والصناعي وما قدّموه للعالم من اسباب الرقي. والى ذلك يشير خليل المطران اذ يقول من قصيدة:

اهل فينيقيا سلام عليكم يوم تفنى بقيّة الادهــار
لكم الارض خالدين عليها بعظيم الاعمــال والآثار

ومثله سليم حيدر في قصيدته «بعلبك»[1]

وفي الفينيقيين ومآثرهم يلهج عدد من ادباء لبنان في هذا العصر

ومنهم قدماء المصريين الذين كانوا من اعظم الامم القديمة ومن واضعي اسس العمران البشري فلا عجب ان يقول فيهم شاعر مصر:

مشت بمنارهم في الارض روما ومن انوارهم قبست اثينا

ولهذا الشاعر وسواه قول كثير فيهم وفي مآتيهم[2].

وهناك اليونان والرومان وآثارهم منتشرة في الشرق العربي – بقايا هياكل وقصور وملاعب وطرق وقنائل وهي تنعكس لنا في الادب الحديث بصور شتى من الاوصاف والذكريات[3].

ومن قبيل الالتفات التاريخي استيحاء ما جاء في الاخبار المقدسة والاساطير القديمة وليس ذلك بالشيء القليل في ادبنا الحديث[4].

* * *

(١) راجعها في الادب (بيروت) ٥ ج ٦

(٢) راجع لاحمد شوقي في ديوانه – قصائده «ابا النيل» و«قفي يا اخت يوشع» و«درجت على الكثر السنون»، ولمحمد الهراوي – «ابو الهول» في مجموعة احسن ما كتبت (دار الهلال) ١٦١، ولعبد الرحمن شكري – قصيدة في الرسالة (مصر) العدد ١٥٩، ووقفة للمطران – المقتطف ٦٤ – ١٢٩، ووقفة لراجي الراعي – المقتطف ٨٧ – ٥٦٥

(٣) راجع قصيدة «على شلالات دفني» في مجلة الكلية ١٥–٢٨٥ والمورد الصافي ١٤ – ١٢٥

(٤) راجع من ذلك – مريم المجدلية وقدموس وعشتروت لسعيد عقل، وشمشون لالياس ابوشبكة في ديوانه افاعي الفردوس، وسدوم له في المكشوف ٣ ع ٧٢، ومن اعماق الجبل لصلاح لبكي، والبعث الاول لعلي محمود طه (ديوانه)، وطوفان نوح لعبداللطيف النشار الهلال ٤٠–١٤١٨، والرذيلة المعبودة لرئيف الخوري البرق ٣٤٢٩، والنداء لامجد طرابلسي – الرسالة ٥ – ٥٦٣، والالم لخليل الهنداوي – الرسالة ٣ – ١٤٢٤.

قد يقال كل ذلك – وهو لا شك صحيح . على ان الروح السائدة في الادب العصري الحديث هي المستمدة من تاريخ العرب وحضارة لغتهم . هي تلك المباهية بمآتي امجادهم والداعية الى تآخيهم وتضامن اقاليمهم . ولقد رأينا كيف تقلبت بها منذ بدء النهضة شتى الاحوال السياسية وكيف صارعتها النعرات الاقليمية حتى كادت تخبت او تموت . على انها ما زالت حية في الادب ولم تعدم في خلال محنتها ما يوقد نارها ويشب اوارها . ومن ذلك قضية فلسطين وما اصاب الحسين بن علي وابنه علي ثم موت فيصل الاول وابنه غازي وغير ذلك من الحوادث الهامة . اضف الى ذلك ما احدثته وطأة الانتداب من ثورات وما نشأ في نفوس العرب بعد الاستقلال من مطامع وآمال[1] .

ففلسطين تعد قضية قومية عامة ولذا نرى الادب العربي في كل قطر يعطف عليها ويهتم بمصيرها . ولو جمعت الاقوال التي قيلت فيها منذ بدء الانتداب البريطاني في هذا العهد لملأت عدة مجلدات . ومن اراد ان يعرف الشعور الادبي العام فليطالع ما نظمه الادباء في هذا الموضوع وهو كثير لا يحصى[2].

ولعل شعر المرحوم ابرهيم طوقان (نابلس) اصدق مرآة لحال فلسطين السياسية والاقتصادية وهي في طور الانتداب . ونفثاته الوطنية الحارة منشورة في مختلف الصحف كالبرق وفلسطين والدفاع والمعرض والجامعة الاسلامية وسواها[3].

والذي يشاهد ما آلت اليه القضية الفلسطينية وما دهى ابناء العربية في البلاد المقدسة يرى صدق ما تنبأ به هذا الشاعر الشاب اذ قال من ابيات له –

يا حسرتا ماذا دهى اهل الحمى فالعيش ذل والمصير بوارُ

---

(١) لمعرفة ما نشأ عن ضغط الانتداب من تقوية الدعوة الى الجامعة العربية ، راجع مقال عبدالرحمن شهبندر . الهلال ٤١ – ٧٥١

(٢) راجع منه الامثلة التالية : قصيدة مهدي الجواهري « فلسطين الدامية » ديوانه (١٩٣٥) ١٧٦ . قصيدة بشاره الخوري « جهاد الجبابرة » الرسالة مصر ٤ – ١٨٧٢ قصيدة اليعقوبي « النظرات السبع » مطبوعة على حدة . قصيدة امين ناصر الدين في ديوانه الالهام ١٩٣ . قصيدة محمود حسن اسماعيل في « هكذا اغني » ٢٣٣ . قصيدة محبوب الشرتوني ديوانه ١٣٦ قصيدة الشاعر القروي « وعد بلفور » في الاعاصير . مجموعة الفلسطينيات لجمعية الرابطة العلمية في النجف .

(٣) وقد جمعت شقيقته شعره ونشرته في ديوان خاص

اارايت اي كرامة كانت لهم والبوم كيف الى الاهانة صاروا

***

اما الحسين ملك الحجاز ومُعلن الثورة العربيّـــة ففي انتقاله الى قبرص ، عقب الحرب السعودية الهاشمية ثم في موته عِبَر حرّكت العواطف القومية وأثارت الشعور الادبي العام فتأجج في كثير من النثر والشعر . واليك بعض القصائد التي قيلت فيه وهي قلّ من كثر ، بل وشل من بحر

فلشوقي مرثاته : —

لك في الارض والسماء مآتم قام فيها ابو الملائك هاشم

ولناصر الدين : —

ابا الملوك اجب ابناءك النجبا فقد دعوك وقم فاستقبل العربا

ولفؤاد الخطيب : —

هي المواكب فاشهد كيف تبتدر كالسيل مصطخب التيار ينحدر
اوفت تودّع جثمان الذي نُعيت الى الجزيرة في اكفانه مضر

ولشفيق جبري : —

تلكم قريش وما جفّت عواليها على الحطيم ولم تنشف مواضيها
من ذاكر في ظلال البيت ثورتها والعهد غير بعيد عن لياليها

ولابراهيم طوقان — ذكرى ثورة الحسين : —

اطلقي ذاك العيارا قدك ضيماً واصطبارا
يُطلب العز ابتدارا يدرك المجـــد اقتسارا

ولاسكندر الخوري البيتجالي : — حيّ البطولة والعلى

ولبدر الدين حامد — في خلافته

تاج مجد الخلافة انتظما فوق رأس الخليفة العربي
كم لبثنا السنين في وجل وذرفنـــا مدامع الحرَب

وله في منفاه الى قبرص : —

اسرفت فيما جئته يا زمانْ فما لعهدٍ منك يوماً امانْ

والجواهري في ذلك : —

هي الحياة باحلاءٍ وامرار تمضي شعاعاً كزند القادح الواري

وله مرّحباً بالحسين الى العراق : —

ارى الشعب في اشواقه كالمعلّق لما حدّثوه عنك يرجو ويتقي

وشبيه بما قيل في الحسين ما قيل في ابنهِ الملك علي فقد نظمت فيهِ مراث وطنية تشف عن شعور العرب في مختلف الامصار نذكر منها هنا قصيدة شبلي ملاط : —

امن جرح على جرح دميّ الامَ يصاب بيت الهاشميّ
فما كاد الحسين يغيب حتى تهاوت شهب فيصلَ والعلي

على ان الفجيعة الكبرى عند ادباء العرب كانت موت فيصل وقد اقيمت لهُ مآتم في مختلف الاقطار العربية وفي المهاجر . والاقوال فيه كثيرة فهو عند الجميع بطل العروبة وحامل لوائها . واليك على سبيل التمثيل بعض ما وصلنا من المراثي فيهِ : —

لجميل الزهاوي — فجع المشرقين خطبٌ جليلٌ وعرى المغربين حزن طويل
لامين الريحاني — حلق النسر في الفضاء بعيداً — (وهي قطعة من الشعر المنثور)
لبشاره الخوري — لبست بعدك السواد العواصمُ واستقلت لك الدموع المآتمْ
لمحمد البزم — رُم عظيماً اذا أردت خلوداً وامتط الشهب في السماء صعودا
للدكتور أبي شادي — هكذا هكذا شعوب تيتّم أيها الموت ساء غنمك مغنم
لعلي محمود طه — تألق كالبرقــة الخاطفــهْ وجلجل كالرعدة القاصفهْ
للشاعر القروي — أقصِ التجلد ان العقل منهزمُ وأهون الخطب ان الدمع منك دم
لوديع البستاني — قمرٌ — وبنت الفجر — والثقلان يوم الخميس بحضرة الجثمان
لحليم دموس — هوى من سما عليائهِ بعد ان سما فسالت عليهِ دمعة الارض والسما
لابراهيم طوقان — شيّعي الليل وقومي استقبلي طلعة الشمس وراء الكرمل
لصلاح اللبابيدي —
كفكف دموعك واعدُ شجو المأتم فالموت من جند المليك الاعظم
لصلاح الرفاعي — علــم العروبة غار في العلياء لهفي عــلى الاسلام والعرباء
لعبدالمسيح محفوظ : عبقري المــلوك أي فؤاد اسكتتهُ يد الزمان العادي

هذا فضلاً عن كثير من الاناشيد الشجية، وكمثال لها نثبت بعض فقرات من نشيد الكشاف المسلم في صيدا : — دافعت بالصدق عن حرمة الحق

والناس قد كانت في الغرب والشرق
تراك يا فيصل
تراك يا فيصل
اليأس قد أبلى في الناس واستولى
في رحبة الوادي عروبة ثكلى
تفديك يا فيصل
تفديك يا فيصل

وقس على ما ذكر ما لا يمكن حصره هنا من الخوالج الشعرية والنثرية في شتى الاقطار العربية .

وقد تجدّدت العواطف القومية بموت الملك غازي وبما قيل فيه من مراثٍ تفيض بالشعور العربي. فكان مأتمه في العراق مظهراً قومياً شاركت فيه العراق سائر الاقطار العربية[١] ولسان حالها يردد مع الشاعر المصري علي الجارم

اتينا لنقضي للعروبة حقّها يسابق وفدٌ في تلهفه وفدا

فلسنا نبعد عن الصواب اذا قلنا انه على الرغم من اختلاف الاغراض السياسية وتشابك المصالح الاقليمية وتضارب النزعات الشخصية ظلّ الادب العربي شديد التأثر بالرابطة العربيّة العامّة .

* * *

ولا ينكر ان القومية الاقليمية لا تزال اقوى العوامل السياسية في البلدان العربية وربما ظلت كذلك احقاباً طويلة . وقد كان من الطبيعي ان تتطور فكرة الوحدة حتى في الادب نفسه . فان الشعور الادبي اليوم غير ما كان يوم دخل فيصل الاول دمشق — كان الشعور يومئذٍ دعوة شديدة لتأسيس المملكة العربية المتحدة ذات العرش الواحد ولارجاع المجد العربي القديم . ولكنه لم يبق كذلك بل تطوّر

(١) راجع اقوال الوفود المختلفة في جريدة بيروت العددين ٧٦٢ و٧٦٣

بتطوّر الاحوال فتدرّج من الوحدة الى الاتحاد – والاتحاد غير الوحدة – ثم اصبح اخيراً دعوة الى تحالف اخويّ يشدّ ازر كل اقليم ولا يمس استقلاله وعلى هذا نشأت جامعة الدول العربية .

على ان الشعور العربي الادبي كما راينا لا يزال يحلم بمجد القوميّة الكبرى القائم على التعاون العام وذلك منعاً لهذا التفكك الذي لمسنا ضرره الجسيم في النزاع العربي الصهيوني والذي يخشى ان يقودهم في المستقبل الى هوّة الشقاء

فكما ان افراد الاسرة الواحدة قد يستقلون بعضهم عن بعض وتبقى مع ذلك رابطة الاسرة بينهم، حتى اذا ألمت بهم ملمّة كانوا يداً واحدة فلا يتسنى لاحد ان يستعبدهم او يستذلهم ، كذلك مصر وسوريا والعراق ولبنان وسائر الدول العربية المستقلة ستسير كل منها في موكب الحضارة والتقدم على طريقتها الخاصة دون ان يقضي ذلك على روح التعاون الفعّال بينهم

وانك لتلمس هذا الشعور في كل قطر عربي اليوم فليس بغريب ان تسمع لبنانياً يقول في وطنه[1]

عربيّ النجار شدّ عراه باللواثين عبد شمس وهاشم

وآخر يقول في ابناء العرب من قصيدة[2]

وهل هم غير اخوان فيحظوا ويشقوا في مساعيهم سويّة
لنا بلساننا وطن كريم وفي تاريخه صلة قويـة

ومثلها كثيرون في لبنان . وها ان الادب المصري قد اخذ يتجه هذا الاتجاه داعياً الى الاخاء والاتحاد والوئام في ظلّ العروبة[3]. اما العراق وسوريا فقد كان ادبها ولا يزال رامياً الى تعزيز العروبة والتغني بامجادها . وقل كذلك في سائر الاقطار

***

(١) من مرثاة بشاره الخوري في فيصل (٢) مجلة الكلية (بيروت) حزيران ١٩٢٦

(٣) راجع من ذلك : قصيدة لاحمد محرّم في جريدة النداء (بيروت) ٧ حزيران سنة ١٩٣٣ وقصيدة العروبة لعلي الجارم ، ومفخرة الرشيد للدكتور ابي شادي ، وديوان محمود ابو الوفا ٨٦٠ وسواها .

تلك هي رسالة الادب القومي اليوم . وقد كاد الزمان يحققها في جامعة الدول العربية وما تهدف اليه من وئام ، واصبح في صدور العرب علـى اختلاف اقاليمهم وثقافاتهم واصولهم ونحلهم امل بنهضة قومية عظيمة تجعل من مجموعة دولهم مع المحافظة علـى استقلال كلٍّ منها جبهة قويّة تجاه المطامع الاستعمارية ونظاماً صالحاً لتحسين احوالهم الاقتصادية والاجتماعية . فهل يتم لهم ذلك على اساس ثابت من الاخلاص والايمان والعمل ، ام يظلون على حالهم من الضعف والتأخر بين اقطاعية تذلهم وطائفية تعميهم وفوضى اخلاقية وسياسية تشلّهم وتمنعهم عن مجاراة الامم الحيّة الراقية ؟

ذلك ما نترك الجواب عنه للزمان !



تمّ الجزء الاول من هذا الكتاب ويليه الجزء الثاني وهو قسمان .

يتناول الاول منهما النهضة الاجتماعية في العالم العربي وما ينعكس عن الحياة الشعبية العصرية من آثار ادبية . ويتناول القسم الثاني النزعات الفنية في ادبنا الحديث والعوامل الفعالة في تطوّرها .

وينتهي الكتاب باستدراكات عامة وفهارس وافية للمراجع والمباحث والاعلام.

DATE DUE

